قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الثاني

(٨)

تونس

بيروت

الكتاب الخامس

انتشار الهلنستية

من ٣٢٢ إلى ١٤٦ ق . م .

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية
فى الكتاب الخامس

ق . م .

٣٤٨ – ٣٣٩ اسبيوسبوس رئيس المجمع العلمى .

٣٣٩ – ٣١٤ زنقراط رئيس المجمع العلمى .

٣٢٣ – ٢٨٥ بطليموس الأول (سوتر) يؤسس أسرة البطالمة فى مصر .

٣٢٣ – بلاد اليهود تصبح ولاية سورية .

٣٢٢ – ٢٨٨ ثاوفراسطوس رئيس اللوقيون .

٣٢١ – تقسيم إمبراطورية الإسكندر ؛ أولى مسرحيات مناندر .

٣٢٠ – بطليموس الأول يستولى على أورشليم ؛ الفيلسوفان پيرون الإيليسى وأقراطيس الطيبى .

٣١٩ – فليمون والملهاة الجديدة .

٣١٨ – أرسطوكسانس فيلسوف تارنتم وفنانها الموسيقى .

٣١٧ – ٣٠٧ دمتريوس الفاليرى يتولى السلطة فى أثينة .

٣١٦ – كسندر ملك مقدونية .

٣١٥ – ٣٠١ أنتجونس الأول سيكلپس ملك مقدونية .

٣١٤ – أنتجونس الأول يعلن حرية بلاد اليونان ؛ قدوم زينون إلى أثينة .

٣١٤ – ٢٧٠ پوليما رئيس المجمع العلمى .

٣١٢ – ١٩٨ بلاد اليونان تخضع للبطالمة .

٣١٢ – ٢٨٠ سلوقس الأول (نكاتور) يؤسس الإمبراطورية السلوقية .

٣١١ – هملكار يغزو صقلية .

٣١٠ – أجثكل طاغية سرقوسة يغزو إفريقية .

٣٠٧ – قانون مناهضة الفلاسفة .

٣٠٧ – ٢٨٧ دمتريوس پليورستيز ملك مقدونية .

٣٠٦ – أبيقور يفتتح مدرسته فى أثينة .

٣٠٦ – ٣٠٢ الحرب بين كسندر ودمتريوس پليورستيز للسيادة على بلاد اليونان .

٣٠٥ – تميوس التورومنيومى المؤرخ .

٣٠١ – زينون يفتتح مدرسته فى استوى ؛ وسلوقس الأول يؤسس أنطاكية ؛ لسماخوس يهزم أنتجونس الأول عند إبسوس .

٣٠٠ – إقليدس الإسكندرى الرياضى ؛ أوتيميروس صاحب المذهب العقلى .

٢٩٥ – ٢٧٢ پيرس ملك الملوسيين .

ق . م .

٢٩٠ — مدرسة النحت الروديسية .

٢٨٨ — ٢٧٠ استراتون رئيس اللوقيون .

٢٨٥ — ٢٤٦ بطليموس الثانى (فلادلفس) ؛ متحف الإسكندرية ومكتبتها .

٢٨٥ — زنودوتس مدير المكتبة ؛ هروفيلوس الخلقدونى عالم التشريح .

٢٨٣ — ٢٣٩ أنتجونس الثانى (جناتاس) ملك مقدونية .

٢٨٠ — أرسطوخوس الساموسى الفلكى ؛ قيام حلف الآخيين ؛ پيرس يساعد تارنتم على رومة .

٢٨٠ — ٢٦٢ أنطيوخوس الأول (سوتر) السلوقى الإمبراطور .

٢٨٠ — ٢٧٩ الغاليون يغزون مقدونية وبلاد اليونان .

٢٧٩ — پيرس يغزو صقلية .

٢٧٨ — تمثال رودس الضخم .

٢٧٧ — الغاليون يغزون آسية الصغرى .

٢٧٥ — أراطوس الصولى الشاعر .

٢٧١ — ثيمن الفيلوسى الهجاء .

٢٧٠ — كلخوس الإسكندرى وثاوقريطوس الكوسى الشاعران ؛ بروسس البابلى المؤرخ .

٣٧٠ — ٢٦٩ أقراطيس الأثينى رئيس المجمع العلمى .

٢٧٤ — ٢١٦ هيرون الثانى طاغية سرقوسة .

٢٦٩ — ٢٤١ أرسسلوس رئيس المجمع العلمى الأوسط .

٢٦٦ — ٢٦١ الحرب الكرمنيدية .

٢٦١ — إنتجونس الثانى يستولى على أثينة .

٢٦١ — ٢٤٧ أنتيوخوس الثانى (ثيوس) الإمبراطور السلوقى .

٢٦١ — ٢٣٢ أفلانيتوس رئيس الاستوى .

٢٦٠ — هرداس الكوسى الشاعر .

٢٥٨ — إراسسطراطوس الكيوسى العالم فى وظائف الأعضاء .

٢٥٧ — ١٨٠ أرسطوفان البيزنطى العالم اللغوى .

٢٥١ — أراطوس السكيونى يحرر مدينته .

٢٥٠ — أرساسيس يؤسس مملكة پارثيا ؛ اللاؤكون ؛ مانيثون المؤرخ المصرى ليكفرون الخلقيسى الشاعر .

٢٤٧ — أركيدِن السراقوسى العالم الطبيعى .

٢٤٣ — ٢٢٦ ساوقلس الثانى (كلنيكوس) .

٢٤٦ — ٢٢١ بطليموس الثالث (إرجتيس الأول) .

ق . م .

— ٢٤٣ أراطوس يقود الحلف الآخى ضد مقدونية .

— ٢٤٢ أجيس الرابع يحاول الإصلاح فى اسپارطة .

— ٢٤٠ أپلونيوس الرودسى الشاعر .

٢٣٩ — ٢٢٩ دمتريوس الثانى ملك مقدونية .

٢٣٥ — ١٩٧ أتلس الأول يوسس مملكة برجموم .

٢٣٥ — ١٩٥ أرتسثنيز مدير مكتبة الإسكندرية .

٢٣٢ — ٢٠٧ أقريسيپوس رئيس الاستوى .

— ٢٢٩ أراطوس يحرر أثينة .

٢٢٩ — ٢٢١ أنتجونس الثالث (دوسون) ملك مقدونية .

٢٢٦ — ٢٢٤ إصلاحات كليومينيس فى اسپارطة .

٢٢٦ — ٢٢٣ سلوقس الثالث (سوتر) .

— ٢٢٥ الزلزال يدمر رودس .

٢٢٣ — ١٨٧ أنتيوخوس الثالث (العظيم) الإمبراطور السلوقى .

— ٢٢١ أنتجونس الثالث يهزم كليومنيز الثالث عند سلاسيا .

٢٢١ — ١٧٩ فليپ الخامس ملك مقدونية .

٢٢١ — ٢٠٣ بطلميوس الرابع (فيلوپاتر) .

— ٢٢٠ أپلونيوس البرجائى العالم الرياضى .

— ٢١٧ بطليموس الرابع يهزم أنتيوخوس الثالث عند رافيا .

— ٢١٥ تحالف فليپ الخامس وهنيبال .

٢١٤ — ٢٠٥ الحرب المقدونية الأولى ضد رومة .

— ٢١٢ مارسلوس يستولى على سرقوسة ، موت أركميديز .

— ٢١٠ صقلية تصبح ولاية رومانية .

— ٢٠٨ زينون الطرسوسى الفيلسوف .

— ٢٠٧ ثورة نابيس فى اسپارطة .

— ٢٠٥ مصر حماية رومانية .

٢٠٣ — ١٨١ بطليموس الخامس (ابفانيز) .

٢٠٠ — ١٩٧ الحرب المقدونية الثانية .

— ٢٠٠ ديجين السلوقى الفيلسوف .

— ١٩٧ معركة سينوسفلى .

١٩٧ — ١٦٠ مجد برجموم تحت حكم يومنيز الثانى

— ١٩٦ فلامنيوس يعلن حرية بلاد اليونان ؛ إنشاء مكتبة برجمون .

١٩٠ — ٨٠ أرسطوفان البيزنطى أمين مكتبة الإسكندرية .

ق . م .

— ١٩٠ العجل الفرنيزى .

— ١٨٩ الرومان يهزمون أنتيوخوس الثالث عند مجنيزيا .

— ١٨٨ فليبومين يلغى دستور ليقورغ فى اسپارطه .

١٨٧ — ١٧٥ سلوقس الرابع (فلوپاتر) .

١٨١ — ١٤٥ بطليموس السادس (فلوميتور) .

— ١٨٠ المذبح العظيم فى پرجوم . أرسطارخوس السمثراسى أمين مكتبة الإسكندرية

١٧٩ — ١٦٨ پرسيوس ملك مقدونية .

١٧٥ — ١٦٣ أنتيوخوس الرابع (إيفانيز) الإمبراطور السلوقى .

١٧٥ — ١٣٨ مثرداتس الأول ملك پارثيا . .

— ١٧٤ أنتيوخوس الرابع يعيد بناء أولمپيوم .

— ١٧٣ قرنيادس رئيس الأكادمية الجديدة .

١٧١ — ١٦٨ الحرب المقدونية الثالثة .

— ١٦٨ إميليوس بولوس يهزم پرسيوس عند پدنا . أنتيوخوس الرابع ينهب هيكل أورشليم .

— ١٦٧ إخراج الآخيين ومنهم پوليبيوس المؤرخ .

— ١٦٦ نهضة المكابيين الأولى ؛ سفر دانيال .

— ١٦٥ چوداس مكابى يعيد الصلوات فى المعبد .

١٦٣ — ١٦٢ أنتيوخوس الخامس (پوپاتر) الإمبراطور السلوقى .

١٦٢ — ١٥٠ دمتريوس الأول (سوتر) الإمبراطور السلوقى .

— ١٦١ چوداس مكابى يعقد معاهدة مع رومة .

— ١٦٠ هزيمة چوداس مكابى وموته .

١٦٠ — ١٣٩ أتلس الثانى ملك برجوم .

— ١٥٧ بلاد اليهود تصبح دولة مستقلة يحكمها رجال الدين .

— ١٥٥ كرنيدز فى رومة .

١٥٠ — ١٤٥ الكسندر بالاس الإمبراطور السلوقى .

— ١٥٠ هپاركوس النيقيائى وسلوقس السلوقى الفلكيان ؛ مسخوس الأزميرى الشاعر .

— ١٤٦ ميوس ينهب كورنثة ؛ بلاد اليونان ومقدونيـــة تصبحان ولاية تابعة لرومة .

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان ومقدونية

الفصل الأول

تنازع السلطان

يقسم المؤرخون الماضى أحقابا ، وسنين ، وحوادث ، كما يقسم الفكر العالم جماعات ، وأفراداً أو أشياء ؛ ولكن التاريخ لا يعرف ، كما لا تعرف الطبيعة، إلا الاستمرار والتغير – والتاريخ لا يقفز قفزات historia mon facit. لهذا لم تشعر بلاد اليونان الهلنستية بأن موت الأسكندر كان نهاية عصر من العصور ؛ بل نظرت إلى الإسكندر نفسه على أنه بداية العصور « الحديثة » ، وعلى أنه رمز الشباب القوى لا على أنه عامل من عوامل الاضمحلال والفناء ؛ وكان هذا العالم موقنا بأنه قد بدأ الآن أعظم مراحل النضوج ، وأن زعماءه لم يكونوا يقلون عظمة وفخامة عن الزعماء فى أى عصر من العصور الماضية ماعدا الملك الشاب نفسه ، فهو دون غيره نسيج وحده[1]. ولقد كان هذا العالم على حق من نواح كثيرة . ذلك أن الحضارة اليونانية لم تمت بموت الحرية اليونانية، بل إنها على العكس من ذلك قد افتتحت لنفسها أقطاراً جديدة ، وانتشرت فى ثلاث جهات بعد أن حطم تكوين الإمبراطوريات الواسعة ما كان يعترض سبل الاتصال والاستعمار والتجارة من حواجز سياسية . وكان اليونان لا يزالون شعبا مغامرا يقظاً ، فهاجروا بمئات الآلاف إلى آسية ، ومصر ، وإبيروس، ومقدونية ، وبذلك لم تزدهر أيونيا مرة أخرى وحسب ، بل إن الدم الهليني

واللغة اليونانية والثقافة اليونانية قد شقت طريقها إلى داخل آسية الصغرى ، وفينيقية وفلسطين ؛ واخترقت سوريا ، وبابل ؛ وتخطت نهرى الفرات ودجلة ، بل وصلت إلى بكتريا والهند نفسهما . ولم تكن الروح اليونانية فى فى وقت من الأوقات أشد مما كانت فى ذلك الوقت حماسة وشجاعة ؛ ولم تحرز الآداب والفنون اليونانية نصراً مؤزراً أوسع من النصر الذى أحرزته فى تلك الأيام .

ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يختتمون تاريخ بلاد اليونان بالإسكندر ؛ ذلك أن العالم اليونانى بعد موته قد بلغ من الاتساع والتعقد حداً لايستطيع الإنسان معه أن ينظر إليه على أنه وحدة ، أو يقص تاريخه قصة متصلة . ذلك أنه لم تقم فيه ثلاث دول ملكية كبرى فحسب — مقدونية ، وسلوقية ومصر — ؛ بل نشأ فيـــه أيضاً مائة من دول المدن اليونانية تتمتع بدرجات مختلفة من الاستقلال ؛ وقامت أحلاف واتحادات متشابكة ؛ وأنشئت دول نصف يونانية فى أبيروس ، وبلاد البهود ، وبرجموم ، وبيزنطية ، وبيثينيا ، وكبدوكيا ، وغلاشيا ، وبكتريا . وقامت فى الغرب إيطاليا وصقلية اليونانيتان تتنازعهما قرطاجة العجوز وروما الفتية . وكانت دولة الإسكندر المزعزعة القواعد لاتربطها إلا روابط ضعيفة من اللغة وسبل الاتصال ، والعادات والدين ، لا تقوى معها على البقاء طويلا . يضاف إلى هذا أنه لم يترك وراءه رجلا قويا واحدا بل ترك رجالا كثيرين ، لم يكن منهم من يقنع بأقل من السيادة التامة . وغفلت الدولة الجديدة لسعتها واختلاف أصقاعها عن فكرة الدمقراطية ، فقد كان الاستقلال ، كما يفهمه اليونان ، يفترض وجود دولة مدينة يستطيع مواطنوها أن يجتمعوا فى أوقات معينة فى مكان واحد . يضاف إلى هذا أن فلاسفة أثينة الدمقراطية قد عابوا على هذه الدمقراطية نفسها أنها مستقر الجهالة والتحاسد والفوضى . وكان خلفاء الإسكندر جماعة من الزعماء المقدونيين تعودوا من زمن بعيد أن يقيموا حكمهم بالسيف ؛ ولم يكن للدمقراطية نصيب من تفكيرهم إلا فى أوقات متفرقة

يستشيرون فيها أعوانهم . وبعد عدة مناوشات حربية صغيرة تخلصوا فيها من صغار منازعيهم ، قسموا الدولة خمسة أقسام (٣٢١) ، فاختص أنتيپاتر بمقدونية وبلاد اليونان ؛ وليسهاخوس بتراقية ، وأنتجونس بآسية الصغرى ، وسلوقس ببابل ، وبطليموس بمصر . ولم يروا ضرورة لدعوة مجمع عام من الدول اليونانية يؤيد هذا التقسيم . وظلت الملكية من تلك الساعة إلى قيام الثورة الفرنسية — إذا استثنينا فترات متقطعة في تاريخ بلاد اليونان نفسها وتاريخ جمهورية رومة الأرستقراطية — هي المسيطرة على أوربا بأكملها .

إن المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الدمقراطية هو الحرية التي تدعو إلى الفوضى ، كما أن المبدأ الأساسي في الملكية هو السلطان الذي يدعو إلى الاستبداد والثورة والحرب . ولقد كانت الحروب الخارجية والأهلية من عهد فليب إلى عهد برسيوس ، ومن قيرونية إلى بدنا (٣٣٨ — ١٦٨) تكملها الحروب الخارجية والداخلية في الممالك لأن منافع الحكم تغوى مائة من القواد على أن يتنازعوا العروش . ولم يكن العنف أقل انتشاراً في بلاد اليونان الهلنستية منه في رومة في عهد النهضة . كذلك لم يكن زعماء العصابات اللذين يستأجرون بالمال لتأييد هذا الفريق أو ذاك أقل عدداً أو أقل شهرة في الأولى منهم في الثانية . ولما مات أنتيپاتر ثارت أثينة مرة أخرى ، وقتلت فوشيون الشيخ الطاعن في السن بعد أن حكمها باسم أنتيپاتر حكماً كان أعدل ما يستطيع أن يهبها من أحكام ، وأعاد كسندر بن أنتيپاتر المدينة إلى حكم مقدونية (٣١٨) ، ووسع حق الانتخاب حتى شمل من كان يملك ألف درخمة ، وأناب عنه في الحكم دمتريوس الفلروى Demetrius of Phalerum الفيلسوف ، والعالم ، والفنان الماوى الذي نعمت المدينة في عهده بعشر سنين من الرخاء والسلام ، وفي هذه الأثناء كان أنتجونس الأول « الجبار الأعور » يحلم بضم دولة الإسكندر كلها تحت عينه الواحدة ؛ ولكن حلفا من أقسام هذه الدولة هزمه عند إپسوس (٣٠١) ، وانتزع منه سلوكس آسية الصغرى ، وحرر

ابنه دمتريوس بوليكريتس (« آخذ المدن ») بلاد اليونان من نير مقدونية ، واستمتعت أثينة تحت حكمه باثنى عشر عاما أخرى من الحكم الدمقراطى ؛ وأقام فى البرثنون ضيفا على المدينة ، وجاء بالسرارى ليعشن معه فيه[٢] ، ودفع بعض الشبان المستيئسين إلى أعمال العنف بمغامراته النسائية(*) ، وانتصر فى معركة بحرية انتصارا باهراً على بطليموس الأول قرب قبرص (٣٠٨) ، وحاصر رودس ستة أعوام استخدم فيها آلات جديدة من آلات الحصار ، ولكنه ارتد عنها خائبا . وجعل نفسه ملكا على مقدونية (٢٩٤) ، وقضى على حرية أثينة بحامية وضعها فيها ، وتورط فى حرب بعد حرب ، حتى هزمه سلوكس وقبض عليه ؛ ومات من كثرة الشراب .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت (٢٧٩) ، انتهزت جموع من الكلت أو « الغالبين » بزعامة برنوس Brennus فرصة ما حدث من الاضطراب بسبب النزاع القائم على السلطة فى شرق البحر الأبيض المتوسط(**) ، فانقضت على بلاد اليونان مخترقة تراقيه ومقدونية . ويقول بوسنياس إن برتوس « أشار إلى ضعف بلاد اليونان ، وإلى ما فى مدنها من ثروة طائلة ، وما فى هياكلها من نذور ضخمة ، وإلى ما فى البلاد من مقادير هائلة من الفضة والذهب[٤] » . وشبت فى نفس هذا الوقت نار الثورة فى مقدونية بزعامة أپلودوروس Apollodorus ؛ وانضم قسم من الجيش إلى الثوار ، وأيدوا الفقراء الجياع فى ثأرهم الدورى المتكرر من الأغنياء وانتهاب ثروتهم . وما من شك فى أن الغالبين قد وجدوا لهم بإرشاد أحد اليونان طريقاً سريا حول ترموپيلى ، فعاثوا فى الأرض فسادا ، يقتلون وينهبون بلا حرج ولا تمييز ، ثم تقدموا بجموعهم نحو هيكل دلنى

(*) وبحث دمتريوس عن دمكليز Damocles فى كل مكان ، ولما أوشك أن يقبض عليه قتل نفسه بأن قفز فى قدر بها ماء يغلى[٣] . وليس لنا أن نحكم على الأثينيين حكما خاطئاً مستندين إلى هذا المثل الفذ من أمثلة الفضيلة .

(**) وهو غير برنوس الذى غزا إيطاليا فى عام ٣٩٠ ق . م .

الغنى . فلما صدتهم عنه قوة يونانية وعاصفة هوجاء أرسلها أبلو كما يعتقد اليونان للدفاع عن مزاره ، تقهقر برتوس وقتل نفسه فرارا من العار . وعبرت فلول الغاليين الذين نجوا من القتل إلى آسية الصغرى ، ويقول فيهم پوسنياس إنهم « ذبحوا جميع الذكور ، والعجائز ، كما ذبحوا الأطفال على صدور أمهاتهم ؛ وشربوا دماءهم وأكلوا لحوم السمان منهم ، فلما رأت ذلك النساء الشريفات والعذارى المخدرات انتحرن فرارا من العار . . . وتعرض من بقين على قيد الحياة لأصناف من الامتهان لا حصر لها . . . فمنهن من ألقين بأنفسهن على شفار سيوف الغاليين ، يطلبن لأنفسهن الموت ، ومنهن من قضين نحبهن من الجوع وعدم النوم ، وكان هؤلاء البرابرة الغلاظ الأكباد يغتصبونهن واحدة فى إثر واحدة ويشبعون فيهن شهواتهم سواء كن أحياء أو أمواتاً(*)(٥) .

وبعد أن عاث الغزاة فسادا فى البلاد أعواما طوالا ، أقنعهم يونانيو آسية بما نفحوهم من المال بأن ينسحبوا إلى شمالى فريچيا (وعرفت مستعمراتهم فيها باسم غالاشيا) ، وإلى تراقية وبلاد البلقان . وظل الغاليون جيلين كاملين يرهبون سلوقس الأول والمدن اليونانية القائمة على سواحل آسية وشواطئ البحر الأسود . وكانت بزنطية وحدها تؤدى لهم جزية سنوية تقدر بما يوازى ٢٤٠,٠٠ ريال أمريكى(**)(٦) . وكما أن أباطرة رومة وقوادها قد شغلوا فى القرن الثالث بعد الميلاد بصد غارات البرابرة على الدولة الرومانية ، كذلك

(*) ليس لدينا رواية من الغاليين أنفسهم عن هذه الحوادث ، كما أننا ليس لدينا أية رواية من « البرابرة » عن غزو اليونان لآسية ، أو إيطاليا ، أو صقلية .

(**) سنقدر الوزنة فى الصفحات التالية من هذا الكتاب بما يعادل ٣٠٠٠ ريال أمريكى على أساس قيمة الريال فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩ ، وذلك لكى ندخل فى حسابنا ما حدث فى العصر الهلنستى من ارتفاع فى الأسعار .

بحر ملوك برجوم ، وسلوقيا ، ومقدونية ، هم وقوادها مواردهم وقواهم فى القرن الثالث قبل الميلاد لصد موجات الكلت الغزاة المتكررة عن البلاد اليونانية . ذلك أن الحضارة القديمة كانت طوال تاريخها تعيش على شاطىء بحر من الهمجية طالما هددها بإغراقها واجتياحها ؛ وقد استطاعت بسالة المواطنين أن تصد أمواج هذا البحر الطامى فى يوم من الأيام بعد أن أعدت لهذا الغرض إعداداً دائماً طويل الأمد ؛ ولكن البسالة كانت تحتضر فى بلاد اليونان فى وقت أن كان الدهر يضفى عليها صبغتها القديمة ويخلع عليها اسمها اللذين عرفت بهما فى مستقبل أيامها .

وطرد أنتجونس الثانى ابن دمتريوس بوليكراتيس والمعروف باسم « جوناتاس » لأسباب لا نعرفها الآن ، طرد الغالبين من مقدونية ، وقلم أظفار فتنة أبلودورس ، وحكم مقدونية حكما حازما معتدلا دام ثمانية وثلاثين عاماً (٢٧٧ — ٢٣٩) . وكان سمحا جواداً يناصر الآداب والعلوم والفلسفة ، واستدعى شعراء مثل أراطوس السليائى إلى بلاطه ، ووثق مع زينون الرواقى الصداقة التى دامت طوال حياته ، وكان أول تلك السلسلة غير المتصلة الحلقات من الفلاسفة الملوك التى انتهت بماركس أورليوس . ومع هذا فى أثناء حكمه بذلت أثينة آخر جهودها لاستعادة حريتها . ذلك أن الحزب الوطنى الأثينى الذى كان يتزعمه فى ذلك الوقت أقرمنيدس Chremonides أحد تلاميذ زينون الشبان استولى على أزمة الحكم فى عام ٢٦٧ . واستطاع بمعونة مصر أن يطرد الجنود المقدونيين من المدينة ، ويعلن استقلال أثينة وحريتها . وجاءه أنتجونس على مهل ، واسترد المدينة (٢٦٢) ، ولكنه عامله معاملة من يحترم الفلسفة والشيخوخة ؛ فوضع حاميات فى بيرية وسلاميس وعند سنيوم ، وحذر أثينة من الاشتراك فى أحلاف والاشتباك فى حروب ، وفيما عدا هذا ترك للمدينة حريتها كاملة .

وكانت المدن اليونانية الأخرى وقتئذ تحل بأساليب اخرى مشكلة التوفيق بين الحرية والنظام ، فشرعت إيتوليا الصغيرة حوالى عام ٢٧٩ ، وكان يسكنها

كما يسكن مقدونية أقوام جبليون نصف همج لم يخضعوا فى حياتهم لغريب ، شرعت هذه المدينة الصغيرة تنظم مدن اليونان الشمالية — وخاصة مدن الحلف الدلفى الاثنى عشرى — وتضمها فى الحلف الإيتولى ؛ وضم الحلف الآخى المؤلف من مدائن پترى Patrae ، وديمى Dyme ، وپلينى ، إلى عضويته حوالى ذلك الوقت كثيراً من مدن الپلوپونيز . وظلت الهيئات البلدية التى يتألف منها كلا الحلفين تشرف على جميع فروع الحكومة المحلية ، ولكنها أسلمت قواها المسلحة وعلاقاتها الخارجية إلى مجلس الاتحاد وإلى استراتيجوس ينتخبه من يستطيع من المواطنين أن يحضر الجلسات السنوية التى تعقدها الجمعية فى إجيوم من أعمال آخية أو فى ثرموس من أعمال إيتوليا . وكانت مهمة كل حلف أن يحافظ على السلم ، ويوحد المقاييس والموازين والسكة فى الأصقاع التى يشملها . وتلك خطوة فى سبيل التعاون تجعل القرن الثالث أرقى من عصر پركليز من بعض الوجوه .

وحول أراتوس السكيونى عصبة الدول السكيونية إلى قوة من الطراز الأول . واستطاع هذا الثمستكليز الجديد وهو فى سن العشرين أن يحرر سكيون من طاغيتها بأن باغته بالهجوم ليلا هو وحفنة من الرجال ، واستطاع بفصاحته وبراعته فى المفاوضات أن يقنع جميع مدن الپلوپونيز ماعدا اسبارطة والميس بأن تنضم إلى العصبة التى ظلت تنتخبه رئيساً لها مدى عشر سنين (٢٤٥ . . ٢٣٥) . ودخل مدينة كورنثة سرا ومعه بضع مئات من رجاله وتسلق قمة أكروكورنثس المنيعة ، وبدد شمل الجيوش المقدونية ، وأعاد إلى المدينة حريتها . ثم انتقل إلى ثغر پيرية ورشا الحامية المقدونية المقيمة بها بالمال فاستسلمت له وأعلن تحرير أثينة ، وظلت تلك المدينة من ذلك الوقت إلى الفتح الرومانى تستمتع باستقلال فذ فى نوعه — فقد كانت لا حول لها ولا طول

من الناحية العسكرية ولكن الدول الهلنستية تركتها وشأنها لم تمسها بسوء لأن جامعاتها العلمية جعلتها العاصمة الذهنية للعالم اليونانى . ووجهت أثينة عنايتها للفلسفة ، واختفت من ذلك الحين من التاريخ السياسى .

وكانت عصبتا الدول اليونانية وقتئذ فى عنفوان قوتهما ، ثم أخذتا تضعفان نفسهما بمحاربة كل منهما للأخرى فى الخارج ، وبحروب الطبقات فى الداخل . ففى عام ٢٢٠ اشتبكت العصبة الإيتولية ومعها اسپارطة وإليس فى الحرب « الاجتماعية » العوان ضد العصبة الآخية ومقدونية . وكان أراطوس المدافع عن الحرية يدافع أيضاً عن حق الملكية ؛ ولذلك كانت العصبة تؤيد حزب الملاك فى كافة المدن . وشكا فقراء المواطنين من أنهم لا يستطيعون حضور الجمعيات النائية لعصبة الدول وأنهم كانوا فى واقع الأمر محرومين من الحقوق السياسية ؛ وكانوا يرتابون فى فائدة حرية لا معنى لها إلا أن تتيح الفرصة كاملة للأقوياء والمهرة دون غيرهم لكى يستغلوا الضعفاء والسذج ؛ فأخذوا يؤيدون تأييداً متزايداً المهرجين من زعماء الشعب الذين كانوا ينادون بإعادة توزيع الأراضى الزراعية ؛ وشرع الفقراء يفضلون حكم المقدونيين على حكومتهم الوطنية كما كان يفعل الأغنياء قبل مائة عام من ذلك الوقت.

بيد أن الذى قضى على مقدونية آخر الأمر هو أمانة أنتجونس الثالث . وذلك أنه كان قد استولى على زمام السلطة بوصفه وصياً على فليپ ابن زوجته، ووعد بأن يتخلى على الملك حين يبلغ فليپ سن الرشد . وأطلق عليه الساخرون فى ذلك الوقت اسم« الدوسون Doson أى الواعد » ، لأنهم على ما يبدو كانوا موقنين بأنه لن يوفى بوعده . ولكنه أنجز هذا الوعد فعلا ، وبدأ فليپ الخامس فى عام ٢٢١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، حكما طويلا مليئاً بالدسائس والحروب . وكان فليپ شجاعا قديراً ، ولكنه كان مخاتلا ميت الضمير، لم

يتورع عن أن يغرر بزوجة ابن أراطوس ، ويسم أراطوس نفسه ، ويقتل ابنه هو لأنه ظنــه يأتمر به ، وأقام ولائم من الخمر المسموم للذين وقفوا فى وجه خططه(٧) . وقد وسع رقعة مقدونية وزاد ثروتها ، وتركها وهى أكثر سكانا وأعظم رخاء مما كانت عليه منذ مائة وخمسين عاماً . ولكنه فى عام ٢١٥ أوجس خيفة من قوة رومة النامية ، فارتكب الغلطة التاريخية الموبقة بأن تحالف مع هنيبال وقرطاجة ، فما كان من رومة إلا أن أعلنت الحرب على مقدونية بعد عام واحد من ذلك الوقت وبدأت تستولى على بلاد اليونان .

الفصل الثاني

الكفاح من أجل المال

ويقول أثنيوس ، وهو ثرثار خليق بأن يعتمد عليه بالقدر الذى يصح أن يعتمد به على أمثاله الثرثارين ، إن دمتريوس الفالرومى أحصى سكان أثينة حوالى عام ٣١٠ ق . م فوجد فيها ٢١,٠٠٠ من المواطنين ، و١٠,٠٠٠ من الغرباء المستوطنين ، و٤٠٠,٠٠٠ من الأرقاء[٨] : فأما العدد الأخير فلا يمكن تصديقه ، ولكنا لانعرف شيئاً ينقضه ، وأكبر الظن أن عدد الأرقاء الذين كانوا يعملون فى المزارع قد ازداد لأن الضياع كانت آخذة فى الاتساع ، ولأن استغلالها بجهود العبيد تحت إشراف العبيد الذين يعملون فى خدمة المالك البعيد عنها ، كان آخذاً فى الازدياد[٩] . وبفضل هذا النظام انتشر نظام الزراعة الذى يعتمد على العلم أكثر من ذى قبل ؛ ودليلنا على ذلك أن فاروVarro كان يعرف أسماء خمسين كتاباً فى فن الزراعة . ولكن عوامل التعرية وتقطيع الغابات أدت إلى اكتساح التربة فى مساحات واسعة من الأرض الخصبة . وحتى فى القرن الرابع ذكر أفلاطون أن الأمطار وفيضانات الأنهار قد جرفت على مر الزمن كثيراً من تربة أتكا الخصبة ؛ ويشبه ما بقى من التلال بالهيكل العظمى الذى انتزع منه اللحم[١٠] . وما وافى القرن الثالث حتى كانت مساحات واسعة فى أتكا قد تعرت من تربتها الخصبة إلى درجة اضطرت أصحاب كثير من الضياع القديمة إلى هجرها ، وأخذت غابات بلاد اليونان تختفى شيئاً فشيئاً ، حتى اضطر الأهلون إلى استيراد الخشب كما اضطروا إلى استيراد الطعام من خارج البلاد[١١] . كذلك أجدبت مناجم لوريوم ، وكادت هى الأخرى أن تهجر ، وكان

استيراد الفضة من أسپانيا أرخص من استخراجها من مناجم البلاد ، وأضحت مناجم الذهب فى تراقية تغنى خزائن مقدونية وتجمل عمائها بعد أن كانت تصب ثروتها فى أثينة .

وبينا كانت موارد الرجولة والمواطنية المستقلة ينضب معينها فى القرى ، كانت الصناعة وحرب الطبقات تفعلان فعلهما فى المدن ، فكانت المصانع الصغيرة فى أثينة وفى جميع المدائن الكبرى فى العالم الهلنستى يتزايد عددها وعدد العبيد الذين يعملون فيها ؛ وكان تجار الرقيق يصحبون الجيوش ، ويبتاعون من لايفتدون من الأسرى ، ويبيعونهم بسعر ثلاث مينات أوأربع (مائة وخمسين ريالا أو مائتى ريال) فى أسواق الرقيق الكبرى فى ديلوس ورودس . وكان عدد من الناس يشعرون بما فى هذا النظام القديم ، نظام الاسترقاق ، من مجافاة للمبادئ الإنسانية ؛ وكان من ثمار الفلسفة أن سرت فى قلوب الناس عاطفة إنسانية نبيلة ؛ يضاف إلى هذا أن الروح العالمية التى سادت ذلك العصر لم تكن تميز بين الأجناس البشرية ، وأن العمال المأجورين الذين يخرجون من الأعمال حين لاتأتى بأرباح ليعيشوا من معونة الدولة ، كانوا فى كثير من الظروف أقل كلفة من العبيد الذين لابد من إطعامهم على الدوام(١٢). وكان من أثر هذه العوامل كلها أن أخذ عدد العبيد المحررين يزداد فى ذلك الوقت زيادة ملحوظة .

وكسدت التجارة فى المدن القديمة ولكنها راجت فى المدن الحديثة ، فازدهرت الثغور اليونانية فى آسية ومصر على حساب ثغر پيرية ، وحتى فى أرض اليونان القارية كانت خلقيس وكورنثة هما اللتين استفادتا من تيار التجارة الهلنستية الزاخر ؛ فقد كان التجار لاينقطعون عن التردد غادين رائحين على هذين البلدين ذوى المركز الهام والاستعداد التجارى العظيم ، كما لم يكونوا ينقطعون عن التردد على أنطاكية ، وسلوقيا ، ورودس ، والإسكندرية ، وسرقوسة ؛ وكانوا ينشرون مع تجارتهم نزعتهم العالمية والمتشككة . وتضاعف عدد رجال المصارف ، ولم يكونوا يقرضون المال

للتجار والملاك فحسب ، بل كانوا يقرضونه أيضاً للمدن والحكومات[١٣] ؛ وكان لبعض المدن مثل ديلوس وبيزنطية مصارف عامة أو وطنية تودع فيها الحكومات أموالها ويديرها موظفون معينون من قبل الدولة[١٤] . وفى عام ٣٢٤ أنشأ أنتمنيس الرودسى أول نظام معروف للتأمين ، وذلك بأن ضمن للملاك نظير ثمانية فى المائة من إيرادهم ما عسى أن يصيبهم من الخسارة إذا فر منهم عبيدهم[١٥] . وكانت نتيجة انطلاق الأموال المكدسة فى خزائن بلاد الفرس ، وسرعة تداول رؤوس الأموال ، أن نقص سعر الفائدة إلى عشرة فى المائة فى القرن الثالث ، وإلى سبعة فى المائة فى القرن الثانى . كذلك انتشرت المضاربات انتشاراً كبيراً ، ولكنها كانت على غير نظام ؛ فمن المضاربين من كانوا يعملون لرفع الأسعار بتحديد الإنتاج ؛ وقد وجد فى البلاد من كانوا يدعون إلى تحديد مقدار الحاصلات الزراعية لكى يحتفظ الزراع بقدرتهم على الشراء[١٦] . وكانت أثمان السلع مرتفعة فى العادة لأن الإسكندر هو الآخر قد صب فى أيدى الناس الأموال المكدسة فى خزائن الملوك الأكمينيين ؛ لكن هذا السبب عينه كان من الأسباب التى يسرت سبل التجارة ، ونشطت الإنتاج فعادت الأثمان إلى مستواها العادى . وازدادت ثروة الأغنياء إلى حد لم يعرف له مثيل فى تاريخ اليونان ، فاستحالت البيوت قصوراً ، وأضحت الرياش والعربات أفخم من ذى قبل ، وكثر العبيد ، وصارت وجبات الطعام قصفا ولهوا خليعاً ، وأضحت النساء معارض لثراء أزواجهن[١٧] .

ولم تستطع الأجور لانخفاضها مجاراة أثمان السلع الآخذة فى الارتفاع . فإذا انخفضت هذه الأسعار انخفضت معها الأجور على الفور ؛ ولم تكن تكفى إلا لإطعام شخص بمفرده ، وكانت سبباً فى انتشار العزوبة والمسكنة ، وإقفار البلاد من أهلها ؛ وأخذ الفرق بين أجر العمل الحر ونفقات الرقيق ينقص — تدريجا . ولم يكن العمل ميسراً للعمال على الدوام ، وترك آلاف من الرجال مواطنهم فى المدن اليونانية التى فى أرض القارة ليعملوا جنودا

مرتزقين فى خارج البلاد ، أوليخفوا فقرهم فى عزلتهم الريفية[١٨] . وأعانت حكومة أثينة المعدمين من أهلها بهبات من الحبوب ، وأخذ الأغنياء يسلونهم بما يقدمون لهم من التذاكر التى تبيح لهم حضور الحفلات والألعاب . فقد كانوا يقترون فى الأجور ، ولكنهم كانوا أسخياء فى الصدقات ؛ وكثيراً ماكانوا يقرضون المال لمدنهم من غير فائدة ، أو ينقذونها من الإفلاس بالهبات الضخمة ، أو ينشئون المبانى العامة على نفقتهم الخاصة ، أو يهبون المال للهياكل والجامعات ، أو يجودون بالكثير منها لإقامة التماثيل ، أو إجازة الشعراء الذين يذيعون فى الناس ملاحمهم أو يشيدون بعطاياهم . ونظم الفقراء أنفسهم فى اتحادات ليتبادلوا المعونة فيما بينهم ، ولكنهم كانوا أضعف من أن يحدوا من سلطان الأغنياء أومهارتهم ؛ ومن جمود الفلاحين واستعداد الحكومات والأحلاف المتنافسة لتبادل المعونة المسلحة للقضاء على الثورات[١٩].

وقد أدت حرية الكفايات غير المتكافئة فى جمع الثروة أو الهلاك جوعا إلى ما أدت إليه من قبل فى أيام صولون ، ألا وهو تركز الثروة فى أيدى عدد قليل جداً من الأفراد . وكان الفقراء سريعى الاستجابة إلى الدعايات الاشتراكية ، فأخذ ممثلوهم يطالبون بإلغاء الديون ، وإعادة توزيع الأراضى الزراعية على الأهلين ، ومصادرة الثروات الكبرى ؛ وكان أكثرهم جرأة يطالبون من حين إلى حين بتحرير العبيد[٢٠] .

وكان ضعف العقيدة الدينية سبباً فى نشأة الدعوة إلى إقامة مدائن فاضلة خيالية تعوض على الناس هذا الضعف : فوصف زينون الرواقى فى جمهوريته التى نشرها عام ٣٠٠ ق . م على ما يظن نظاما شيوعيا مثاليا ؛ وألهم يمبولوس أحد أتباعه (٢٥٠ فى الغالب) الثوار اليونان برواية له وصف فيها جزيرة مباركة فى المحيط الهندى (قد تكون جزيرة سرنديب) قال إن الناس كلهم فيها أكفاء ، لا فى الحقوق فحسب ، بل فى مقدرتهم وذكائهم ؛ وإنهم كلهم يعملون على قدم المساواة ، ويقتسمون ثمار عملهم بالتساوى ، ويشتركون

كلهم إذا جاء دورهم فى تصريف شئون الحكومة ، وإن هذه الجزيرة لم يكن فيها غنى ولا فقر ، ولا حرب بين الطبقات ، وإن الطبيعة تنتج فيها الفاكهة موفورة بلا حاجة إلى جهد ، وإن الناس يعيشون فيها متآخين متحابين[٢٠] .

وأممت بعض الحكومات عددا من الصناعات : فاستولت حكومة پريينى على مصانع الملح ، وأممت ميليطس مصانع النسيج ، ورودس ونيدس مصانع الفخار ؛ ولكن الحكومات لم تكن تؤدى للعمال أجورا أعلى مما يؤديه أصحاب الأعمال الشحيحون ، وكانوا يمتصون من كدح عبيدهم كل ما يستطيعون امتصاصه من المكاسب . واتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء[٢١] ، وأضحت حرب الطبقات أشد مرارة مما كانت قبل ؛ فأخذت كل مدينة قديمة كانت أو حديثة تردد أصداء كراهية الطبقات بعضها لبعض ، وكانت هذه الكراهية تتمثل فى الفتن ، والمذابح ، وأعمال القمع ، والنفى ، والقضاء على الأنفس والثمرات . فإذا ما انتصر فيها حزب طرد الحزب الآخر وصادر أملاكه ؛ فإذا عاد إلى المنفيين سلطانهم ثأروا لأنفسهم مثل هذا الثأر وقتلوا أعداءهم ، ألا فليتصور القارئ أى استقرار يمكن أن يتاح لنظام اقتصادى يتعرض لأمثال هذه الاضطرابات والهزات العنيفة . وقد وصل ما حل من الخراب ببعض المدن اليونانية القديمة من جراء النزاع بين الطبقات إلى درجة أن هجرتها الصناعات وفر منها الناس ، وأن نمت الأعشاب فى شوارعها وأقبلت عليها الماشية ترعاها[٢٢] . وكتب پولبيوس حوالى عام ١٥٠ ق . م يصف بعض مظاهر هذه الحرب كما يراها رجل محافظ ثرى :

« ولما أن هيئوا (أى الزعماء المتطرفون) نفوس العامة إلى الجشع والرشوة ، قضى على ما فى الدمقراطية من فضيلة ، واستحالت حكم العنف والاستبداد . ذلك أنه إذا اعتادت الغوغاء أن تطعم على حساب غيرها ، وأن تُبعث فيها الآمال بأن تعيش من مال جيرانها ، ثم وجدت زعيما أوتى قدرا كافيا من

الطموح والجرأة . . إذا حدث هذا نشأ عنه حكم العنف . وحينئذ تقوم الجمعيات الصاخبة ، والمذابح ، والنفى ، وإعادة توزيع الأرض[٢٣] »

وكانت الحروب ونزاع الطبقات هى التى أضعفت بلاد اليونان الأصلية حتى جعلتها غنيمة سهلة لرومة . ذلك أن قسوة المتصرين وغلظة قلوبهم المتناهية ، وتدمير الغلات ، والكروم ، والبساتين ، وتخريب الضياع ، وبيع الأسرى فى سوق العبيد قد قضى على إقليم فى إثر إقليم ، وترك البلاد أشبه بقشرة فارغة أمام العدو الأخير . وهل تقوى أرض أفقرها التنازع والتباغض ، واكتسحت تربتها عوامل التعرية ، وقطعت غاباتها ، ولم يكن يزرع أرضها إلا المستأجرون الفقراء أوالأرقاء الكليلون ، هل تقوى أرض هذا شأنها على منافسة السهول الفيضية التى تشقها أنهار العاصى ، والفرات ، ودجلة ، والنيل . أضف إلى هذه أن المدن الشمالية لم تعد كما كانت من قبل قائمة على الطرق التجارية الكبرى ، وأنها قد فقدت أساطيلها الحربية ، ولم يكن فى مقدورها أن تشرف على موارد الحبوب وطرقها وهى الموارد والطرق التى كانت أثينة واسپاطة تسيطران عليها فى أيام عظمتهما الإمبراطورية . وانتقلت مراكز القوة ، بما فيها قوة الإبداع الأدبية والفنية ، إلى أماكنها القديمة فى آسية ومصر ، وهى المراكز التى أخذت منها بلاد اليونان فى تواضع وخشوع آدابها وفنونها قبل ذلك الوقت بألف عام .

الفصل الثالث

أخلاق الانحلال

لقد عجل فشل نظام دول المدائن تدهور الدين القديم؛ ذلك أن آلهة المدينة قد ثبت عجزها عن حمايتها ، ومن أجل هذا تزعزع إيمان الناس بهذه الآلهة . واختلط أهلها بالتجار الأجانب الذين لم يكن لهم نصيب فى حياة البلد المدنية والدينية والذين انتشر تشككهم ولهوهم بين المواطنين . على أن أساطير الآلهة المحلية القديمة قد بقيت بين الفلاحين والسذج من سكان المدن ، وبقيت كذلك فى الطقوس الرسمية ، وظل المتعلمون يستخدمونها فى الشعر والفن ؛ أما من تحررت عقائدهم بعض التحرر من سلطانها فأخذوا يهاجمونها بعنف . غير أن الطبقات العليا ظلت تستمسك بها وتستعين بها على حفظ النظام ، وتقاوم الإلحاد الصريح وتعده شاهداً على فساد الذوق . ولما قامت دول كبيرة أدى قيامها هذا إلى توحيد الآلهة واندماجها هى الأخرى ، وسرت فى نفوس الناس نزعة غامضة نحو التوحيد ، وحاول الفلاسفة أن يصوغوا للأدباء مذهب وحدة الوجود فى صيغة لا تتعارض تعارضا صريحا كل الصراحة مع العقائد الثابتة القديمة . من ذلك أن أوفروس Euphemerus أحد سكان مسانا فى صقلية نشر حوالى عام ٣٠٠ق.م كتابه المسمى هيرا أنجرافا Hiera Anagrapha (ومعناه الحرفى الكتابات أو السجلات المقدسة) ، والذى قال فيه إن الآلهة إما أن تكون قوى طبيعية جسدها الناس ، وإما أن تكون — وهذا هو الأغلب الأعم — أبطالا آدميين ألّههم خيال الشعب أو عبدهم اعترافا بفضلهم على بنى الإنسان ؛ وإن الأساطير إن هى إلا استعارات وتشبيهات ، وإن الاحتفالات الدينية كانت فى الأصل مراسم تخليداً لذكرى الموتى . فزيوس

مثلا كان فانحا مات فى كريت وأفروديتى كانت موجدة الدعارة ونصيرتها ، ولم تكن قصة كرونوس وأكله أبناءه إلا طريقة للقول بأن أكل اللحوم البشرية فى الزمن القديم عادة متبعة على ظهر الأرض . وقد كان لهذا الكتاب أثر قوى فى نشر النزعة الإلحادية فى بلاد اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد(*)(٢٣).

بيد أن الناس لا يستريحون للتشكك لأنه يترك قلب الإنسان وخياله فارغين ، وهذا الفراغ لا يلبث أن يجذب إليه عقيدة جديدة مشجعة ؛ وقد مهدت انتصارات الفلسفة وانتصارات الإسكندر السبيل إلى الطقوس الدينية الجديدة . وسادت أثينة فى القرن الثالث عقائد دينية غريبة اضطربت لها أحوالها ، وكانت كلها تقريبا ، تبشر بالجنة وتنذر بالجحيم ، حتى أحس أبيقور ، كما أحس لكريشيوس فى رومة فى القرن الأول ، أن من واجبه أن يندد بالدين ويقول إنه يتعارض مع طمأنينة العقل ومتعة الحياة . ومن أجل هذا أصبحت المعابد الجديدة ، حتى فى أثينة نفسها ، تشاد عادة لإيزيس ، وسرابيس Seropis ، وبنديس Bendis وأدنيس ، وغيرها من الأرباب الأجانب . وانتشرت الطقوس الإليزيبية الخفية وأخذ الناس يحاكونها فى مصر ، وإيطاليا ، وصقلية ، وكريت . وظلت عبادة ديونيشيوس إليوثيريوس — المحرر — واسعة الانتشار حتى اندمج هذا الإله فى المسيح . وانضوى تحت لواء الأرفية أتباع جدد حين جذبت اتصالها بالأديان الشرقية التى نشأت هى عنها . لقد كان الدين القديم أرستقراطيا ، وكان يحرم على الأجانب والرقيق أن يكونوا من أتباعه ، أما الطقوس الشرقية الجديدة فكانت تقبل بين أتباعها جميع الرجال والنساء ، ومنهم الأجانب ، والأرقاء ، والأحرار ، وكانت تعد الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلود فى الدار الآخرة .

(*) وربما كان هذا الكتاب تعبيرا عن العادة الملنستية عادة تألية الملوك ومشجعا لها فى الوقت نفسه .

وانتشرت الخرافات والأوهام فى الوقت الذى بلغ فيه العلم أوجه ، وإن الصورة التى رسمها ثاوفراسطوس « للرجل الخرف » لتكشف عن رقة الغشاء الثقافى فى حاضرة النور والفلسفة نفسها . فلقد كان العدد ٧ عدداً مقدسا إلى حد لايتصوره العقل ؛ فكان ثمة سبعة كواكب سيارة ، وسبعة أيام فى الأسبوع ، وسبع عجائب فى العالم ، وسبعة أعمار للإنسان ، وسبع سماوات ، وسبعة أبواب للجحيم . وانتعش علم التنجيم على أثر انتشار التجارة مع بابل ، وكان من العقائد المسلم بها والتى لا تقبل الجدل أن النجوم آلهة تتصرف فى مصائر الأفراد والدول صغيرها وكبيرها ، وحتى خلق الإنسان كان يحدده الكوكب الذى ولد الإنسان فى مطلعه ، فيكون مرحا إذا ولد والمشترى فى السماء ؛ أو نشطا زواغا ، إذا كان فيها عطارد ، أو نكداً إذا كان فيها زحل(*) . وحتى اليهود أنفسهم كانوا يعبرون عن الأمانى الطيبة بقولهم : « مزول — توف Mazzol-Tof » نرجو أن يكون كوكبك سعدا[٢٤] » . وكان علم الفلك يكافح فى سبيل الحياة ضد التنجيم ، ثم استسلم له آخر الأمر فى القرن الثانى بعد الميلاد . وكان الناس فى جميع أنحاء العالم الهلنستى يعبدون تيكى Tyche إله الفرص .

وليس فى مقدور الإنسان أن يدرك عظيم الأثر الذى يحدثه فى الأمة موت دينها التقليدى إلا إذا أوتى خيالا قويا لا يكل ، أو قدرة فائقة على الملاحظة . لقد قامت الحضارة اليونانية القديمة على الإخلاص لدولة المدينة والتفانى فى حبها ، وكانت العقائد الخرافية من أقوى العوامل فى تدعيم المبادئ الأخلاقية وإن كانت هذه المبادئ متأصلة فى القصص الشعبى والمعارف الشعبية أكثر من تأصلها فى العقيدة الدينية . لكن الرجل اليونانى المتعلم قد خسر فى الوقت الذى نتحدث عنه دينه ووطنيته ؛ ومحت الإمبراطوريات الحدود المدنية ، وأضحت

(*) ويطلق على هـذه الصفات بالإنجليزية Mercurial, Jovial, Saturnine على التوالى .

المبادئ الخلقية ، وشئون الزواج ، والأبوة ، والقوانين ، بسبب انتشار المعارف من الأمور الدنيوية . وقد كان عصر الاستنارة فى أيام پركليز من أسباب تدعيم الأخلاق إلى حين ، وهذا شبيه بما حدث فى أوربا الحديثة ؛ فقد نمت المشاعر الإنسانية ، وأيقظت — دون جدوى — فى نفوس الناس استياء شديداً من الحروب ، ونشأت عادة التحكيم فى المنازعات بين المدن والأفراد ، وأصبحت الآداب أظرف مما كانت وأكثر صقلا ، وصار الجدل أكثر تحضراً ، وانتقلت آداب اللياقة والمجاملات اللطيفة من حاشيات الملوك ، حيث كان الباعث عليها السلامة الشخصية والهيئة الملكية ، إلى أفراد الشعب ، فلما أن جاء الرومان دهش اليونان أشد الدهشة من سوء آدابهم وغلظة طباعهم . لقد أضحت الحياة فى بلاد اليونان أرق مما كانت وأكثر تهذيباً ، وكان النساء يستمتعن بقسط أوسع من الحرية فى غدوهن ورواحهن ، ويبعثن فى الرجال الميل إلى الظرف والرشاقة ؛ فأخذوا يحلقون لحاهم وخاصة فى بيزنطية وزودس ، حيث كانت القوانين تحرم هذا العمل وتعده تشبها بالنساء[٢٥] . غير أن الجرى وراء اللذات قد أنهك حياة الراشدين من أفراد الطبقات العليا . ولم تجد المشكلة القديمة مشكلة الآداب والقوانين الأخلاقية ، وكيف يوفق الناس بين أبيقورية الفرد الفطرية ورواقية الدولة الضرورية ، لم تجد هذه المشكلة حلا لها فى الدين ، أو السياسة ، أو الفلسفة .

وانتشر التعليم ولكن انتشاره كان رقيقاً غير عميق ، فقد كان يفعل ما يفعله فى جميع العصور التى كانت الغلبة فيها للعقل فيعنى بالمعارف أكثر مما يعنى بالأخلاق ، ولذلك أخرج جماهير غفيرة من أنصاف المتعلمين الذين انتزعوا من العمل ومن الأرض ، وأخذوا يطوفون وهم ساخطون حيث يجب ألا يكونوا ، كأنهم بضاعة سائبة فى سفينة الدولة : وأنشأت بعض المدن مثل ميليطس ورودس مدارس عامة تنفق عليها الدولة ، وكان الذكور والإناث

يتعلمون مجتمعين فى مدارس تيوس Teos ، وطشيوز ، وكانت تعطى للجنسين فرص متكافئة لا نظير لها إلا فى اسبارطة[٢٦] . وتطورت مدارس الرياضة البدنية حتى أضحت مدارس عليا أوكليات جامعية بها غرف للتدريس ، وقاعات للمحاضرات ومكتبات . كذلك ازدهرت ساحات التدريب الرياضى وأضحى لها شأن فى بلاد الشرق ؛ ولكن الألعاب العامة اضمحلت حتى أصبحت مباريات بين المحترفين وخاصة فى الملاكمة ، التى كانت قوة الجسم فيها أهم من المهارة والحذق ؛ وأصبح اليونان أمة من النظارة يقنعون بأن يشاهدوا ولا يعملوا وقد كانوا فى ماضى أيامهم أمة من الرياضيين .

وتحللت الأخلاق الجنسية من القيود أكثر من تحللها فى عصر بركليز نفسه ، وإن كان هذا التحلل لم يقلل من انتشار اللواط بل ظل كما كان فى سابق الأيام . انظر إلى قول شميثا Simaetha فى بعض قصائد ثاوفراطوس : « إن الشاب دلفس Delphis يحب ، ولكنى لا أعرف أيحب امرأة أم رجلا[٢٧] » . وظلت الحظية صاحبة السلطان الأعلى ، وهل أدل على ذلك من أن دمتريوس پليوكرتيز جبى من الأثينيين ضريبة مقدارها مائتى وزنة وخمسين (٧٥٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ثم وهبها لعشيقته لاميا Lamia بحجة أنها فى حاجة إلى هذا المال لتبتاع به ما يلزمها من الصابون ؛ وقال الأثينيون الغضاب « إن هذه السيدة لابد أن تكون قذرة إلى أبعد حدود القذارة » وأصبح الناس لا يتأففون من رقص النساء العاريات بل يرونه من العادات المألوفة ، وكان هذا يحدث أمام أحد ملوك مقدونية[٢٩] . وقد صور مننذر فى مسرحياته الحياة الأثينية بأنها حياة تدور كلها حول السفاسف ، والغواية والزنى .

واشتركت المرأة اليونانية اشتراكا نشيطاً فى الأعمال الثقافية فى ذلك العصر ، وكانت لهـا جهود موفقة فى الأدب والعلم والفلسفة والفن ، فكانت أرسطوداما Aristodama الأزميرية تنشد أشعارها فى طول بلاد اليونان وعرضها وتقابل أينما حلت بأعظم مظاهر التكريم ؛ ولم يتردد بعض

الفلاسفة ، كأبيقور مثلا ، فى قبول النساء فى مدارسهم . وبدأ الأدب يعنى بوصف جمال المرأة الجسمانى بعد أن كان من قبل يعنى بقيمتها وفتنتها من ناحية الأمومة ، ونشأت العبادة الأدبية للجمال النسوى فى ذلك العهد إلى جانب أشعار الحب الروائى وقصصه . وقد صحب هذا التحرير الجزئى للمرأة ثورة على قصر وظيفتها على الأمومة ، وأضحى تحديد النسل من أهم الظواهر البارزة فى ذلك العصر ، فلم يكن يعاقب على الإجهاض مثلا إلا إذا لجأت إليه المرأة على غير إرادة زوجها ، أو بتحريض من أغواها ؛ وكان الطفل فى كثير من الأحيان يعرض للجو القاسى ، ولم يكن عدد الأسر التى تربى أكثر من بنت واحدة فى المدن اليونانية القديمة يزيد على واحد فى المائة من مجموع أسرها ؛ وفى ذلك يقول پوسيدبوسPosidippus، « وحتى الرجل الغنى نفسه ، كان يعرض ابنته للجو القاسى على الدوام . وكان يندر وجود أخوات للأبناء ، وكثر عدد الأسر التى لم يكن لها أبناء قط أو كان لكل منها ولد واحد . وفى وسعنا أن نتتبع من النقوش الباقية إلى هذه الأيام خصوبة تسع وسبعين أسرة من سكان ليليطس فى عام ٢٠٠ ق. م : لقد كان لاثنتين وثلاثين من هذه الأسر طفل واحد ، ولإحدى وثلاثين منها طفلا ؛ وكان مجموع أبناء هذه الأسر جميعها مائة وثمانية عشر ولدا وثمانيا وعشرين بنتا[٣٠]. وفى إرترياEretrfa لم يكن عدد الأسر التى لها ولدان يزيد على أسرة واحدة فى كل اثنتى عشرة أسرة ، وقلما كان لأسرة واحدة ابنتان . وكان الفلاسفة يتجاوزون عن قتل الأطفال بحجة أنه يخفف من ضغط السكان على موارد الرزق ؛ فلما أن لجأت الطبقات الدنيا إلى هذه العادة وأسرفت فيها تساوت نسبة الوفيات مع نسبة المواليد . ولم يعد فى مقدور الدين أن يتغلب على مقتضيات الراحة ونفقات الأبناء ، مع أن الدين نفسه كان فى الأيام الخالية يخيف الناس ويحذرهم من قلة النسل حتى تجد أرواحهم من يعنى بها بعد موتهم . وحل المهاجرون فى المستعمرات محل الأسر القديمة ، فلما أن نقص عدد المهاجرين فى أتكا والپلوبونيز إلى أدنى حد قل عدد السكان كثيراً . ورأى

ورأى ذلك فليب الخامس فحرم تحديد عدد أفراد الأسر فى مقدونية ، وزاد بذلك عدد الرجال بنسبة خمسين فى المائة مما كانوا عليه قبل هذا الأمر(٣١) ؛ وفى وسعنا أن نستدل من هذا على مبلغ ما وصلت إليه عادة تحديد النسل حتى فى مقدونية التى كانت لاتزال نصف بدائية ، وفى هذا المعنى يقول پولبيوس فى عام ١٥٠ ق . م :

لقد سرت فى جميع بلاد اليونان موجة من نقص المواليد ومن قلة السكان تبعاً لهذا النقص ، نشأ عنها أن أقفرت المدن من السكان وأجدبت الأرض فلم تعد تخرج ثمرها ... ذلك أن الناس قد انغمسوا فى الترف والبخل والكسل ؛ فلم يعودوا يرغبون فى الزواج ، أو فى تربية الأبناء إذا تزوجوا ، وأقصى ماكانوا يسمحون به أن يكون لهم من الأبناء ولد أو ولدان حتى يظلوا يستمتعون برخاء العيش ، وحتى يربوا هؤلاء الأبناء ليتلفوا ما يتركون لهم من المال . واستشرى هذا الفساد بسرعة وإن تكن غير ملحوظة ، وكان يحدث أحياناً أن يهلك أحد الولدين فى الحرب وأن يقضى المرض على الولد الثانى ، فيكون مصير البيت الخراب ... وهكذا نضب معين المدن وحل بها الوهن شيئاً فشيئاً(٣٢) .

الفصل الرابع

الثورة فى اسـبارطة

وفى هذه الأثناء كان تركز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد يثير النزاع الأبدى بين الطبقات فى جميع أنحاء اليونان . وكان من أثر هذا التركز فى اسپارطة أن بذلت محاولتان لإصلاح الحال بإحداث انقلاب تام فى أحوال تلك المدينة . لقد استطاعت اسپارطة بفضل عزلتها بين الحواجز الجبلية أن تحافظ على استقلالها ، وأن تصد جيوش مقدونية ، وتهزم جيش پيروس (٢٧٢) الضخم ببسالة أبنائها وشدة بأسهم . ولكن نهم الأقوياء أحدث فى داخل البلاد من الخراب ما لم تقو جيوش الأعداء على إحداثه فيها من الخارج . فقد ألغى قانون ليقورغ الذى كان يمنع انتقال الأرض من أيدى ملاكها بالبيع أو تقسيمها بالوصية(*)، واستخدم الاسپارطيون ما عاد عليهم من الثروة بطريق الإمبراطورية أو الحرب فى شراء هذه الأراضى من أصحابها[٣٣] . وما وافت سنة ٢٤٤ حتى آلت أراضى لكونيا الزراعية التى تبلغ مساحتها ٧٠٠,٠٠٠ فدان إلى مائة أسرة لا أكثر[٣٤] ، وحتى لم يحتفظ بحقوق المواطنية إلا سبعمائة رجل ، وحتى هؤلاء السبعمائة لم يكونوا يطعمون مجتمعين كما كانوا يطعمون من قبل . ذلك أن الفقراء لم يستطيعوا تقديم قسطهم من الطعام ، وأن الأغنياء كانوا يفضلون ولائمهم الخاصة . وحلت الفاقة بمعظم الأسر التى كانت من قبل تستمتع بالحقوق السياسية ، وأخذت تطالب بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى على الأهلين .

(*) ولعل سبب إلغائه أنه أدى إلى تحديد عدد أفراد الأسرة ؛ كما حدث فى فرنسا الحديثة .

وكان من فضائل الملكية أن محاولة إصلاح هذه الحال قد قام بها ملوك اسپارطة . ذلك أن أجيس الرابع Agis IV وليونداس قد ارتقيا عرش المدينة المزدوج فى عام ٢٤٢ . وأيقن أجيس أن ليقورغ كان يقصد أن تكون الأراضى موزعة بالتساوى بين جميع الأحرار فاقترح أن يشرع فى توزيعها بينهم من جديد ، وأن تلغى جميع الديون ، وأن يعاد النظام شبه الشيوعى الذى وضعه ليقورغ . وأيد الملاك الذين كانت أرضهم مرتهنة اقتراح إلغاء الديون ؛ فلما أن ووفق على المشروع عارضوا أشد المعارضة كل ما عداه من عناصر إصلاحات أجيس ؛ ثم اغتيل أجيس نفسه بتحريض ليونداس ، واغتيلت معه أمه وجدته ، وكانت كلتاهما قد نزلت عن ضياعها طائعة مختارة لتوزع على أبناء الشعب . وكانت النساء أنبل الشخصيات فى هذه المسرحية الملكية ؛ فقد كانت كلونيس Chilones ابنة ليونداس زوجة كليمبروتوس Cleombrotus الذى يؤيد أجيس . ولما نفى ليونداس واغتصب كليمبروتوس الملك هجرت كلونيس زوجها الظافر لتشترك فى النفى مع زوجها ، ولما أن استعاد ليونداس السلطة ونفى كليمبروتوس ، آثرت كلونيس أن تنفى مع أبيها(٣٥) .

وأراد ليونداس أن يضم لأملاك أسرته ما كان لأرملة أجيس من ثروة طائلة ، فأرغمها على أن تتزوج بابنه كليمنيس Cleomenes . ولكن كليمنيس هام بحب زوجته ، واستلهم منها آراء الملك القتيل ؛ ولما أن اعتلى العرش باسم كليمنيس الثالث ، قرر أن ينفذ إصلاحات أجيس . واستطاع أن يضم الجيش إلى جانبه ببسالته فى الحرب ، وأن يكسب تأييد الشعب ببساطة معيشته . فلما تم له ذلك ألغى الأفورية الألحركية بحجة أن ليقورغ لم يوافق عليها قط ، وقتل أربعة عشر من الذين عارضوا هذا الإلغاء ، ونفى منهم ثمانين ، وألغى جميع الديون ، ووزع الأراضى على الأهلين الأحرار ، وأعاد نظام ليقورغ إلى ما كان عليه من قبل . ولم يكتف بهذا ، بل شرع

يفتح البلوپونيز أمام الثورة . ورحب به الصعاليك فى كل مكان. ورأوا فيه منقذاً ومحرراً لهم ، واستسلمت له عدة مدن وهى فرحة مستبشرة ، فاستولى على أرجوس ، وپلينى ، وفليوس Philius ، وإپدورس ، وهرميونى Hermione ، وتريزين Troezen ؛ وحتّى كورنثة الفتيـة استسلمت له هى الأخرى فى آخر الأمر . وانتشرت عدوى خطته هذه فى كل مكان : فى بوؤشيا امتنع المدينون عن الوفاء بديونهم ، واستولت الدولة على الأموال لاسترضاء الفقراء؛ وفى مجالوپوليس Megalopolis قام الفيلسوف سرسداس Cercidas يدعو الأغنياء أن يمدوا يد المعونة للفقراء قبل أن تطيح الثورة بجميع أموالهم(٣٦) . ولما أن غزا كليمنيس آخيه Achaea وهزم أراطوس ، دب الرعب فى قلوب الطبقات العليا جميعها خوفا على أملاكها، واستغاث أراطوس بمقدونية ولبى نداءه أنتجونس دوسن Antigonus Doson ؛ وهزم كليمنيس فى سلاسيا Sellsia (٢٢١) ، وأعاد النظام الألجركى فى لسديمون . وفركليمنيس إلى مصر ، وحاول دون جدوى أن يستعين ببطليموس الثالث ، كما حاول دون جدوى أن يدفع أهل الإسكندرية إلى الثورة ، فلما أخفق فى كلتا المحاولتين لم يجد بدا من الانتحار(٣٧) .

وظلت حرب الطبقات مستعرة نارها، فخرج أهل اسپارطة على حكومتهم بعد جيل واحد من حكم كليمنيس ، وأقاموا دكتاتورية ثورية ، فما كان من فلوپيمين الذى خلف أراطوس فى رياسة العصبة الآخية إلا أن غزا لكونيا ، وأعاد إليها حكم الملاك . وماكاد فلوپيمين ينصرم أجله حتّى ثار الشعب مرة أخرى ، وأقام مكانه نابيس Nabis حاكما بأمره (٢٠٧) . وكان نابيس هذا سورى الموطن سامى الجنس، أخذ أسيرا فى الحرب ، وبيع عبدا فى مجالوپوليس . ولم يطلق صبرا على كفايته المقموعة فانتقم لنفسه بتنظيم ثورة بين الهيلوتين، ولما تم له الأمر منح المواطنية الاسپارطية لجميع الأحرار ، وقال للهيلوتين كونوا

أحرارا فكانوا . ولما وقف الأغنياء فى وجهه صادر أملاكهم وقطع رؤوسهم . وانتشرت أنباء أعماله هذه فى خارج اسپارطه : ووجد من أيسر الأمور أن يفتح بمعونة الطبقات الفقيرة مدائن أرجوس، ومسينيا ، وإليس ، وبعض أركاديا . وكان أينما سار يؤمم المزارع الكبرى ، ويعيد توزيع الأراضى على الأهلين ، ويلغى الديون(٣٨) . ورأت عصبة الدول الآخية أنها عاجزة عن القضاء عليه فطلبت العون من رومة . ولبى فلامنينوس طلبه ، ولكن نابيس قاومه مقاومة عنيفة أرغمت الرومان على قبول هدنة رضى بمقتضاها نابيس أن يطلق سراح الأغنياء المسجونين ، ولكنه اشترط أن يظل محتفظا لنفسه بالسلطة . وفى هذه الأثناء اغتال نابيس مغتال بتحريض عصبة الدول الإيتولية (١٩٢)(٣٩) . وبعد أربع سنين من ذلك الوقت زحف فلپومين مرة أخرى على اسپارطة ، وأعاد السلطة إلى الملاك ، وألغى أنظمة ليقورغ ، وباع ثلاثة آلاف من أتباع نابيس فى أسواق الرقيق.. وهكذا قضى على الثورة ، ولكن اسپارطة قضى عليها أيضاً ؛ نعم إن المدينة ظلت قائمة ، ولكنها لم يكن لها بعدئذ شأن فى تاريخ بلاد اليونان .

الفصل الخامس

سيادة رودس

انتقلت التجارة ورؤوس الأموال من بلاد اليونان القارية وأخذت تبحث لها عن ملاجئ جديدة فى جزائر بحر إيجة ، وذلك لأنها خشيت عنف الانقسامات الحزبية ، ولأن حركات السكان اجتذبتها إلى تلك الجزائر. فازدهرت ديلوس فى القرن الثانى ، وقد كانت من قبل موفورة الثراء بسبب وجود هيكل أپلو بها ؛ وأضحت ثغراً حراً تحت حماية رومة وإن كانت أثينة هى التى تصرف شئونها . وازدحمت الجزيرة الصغيرة بالتجار الأجانب ، وبمكاتب رجال الأعمال وبالقصور ، والأكواخ ، والهياكل المختلفة التى أقيمت للآلهة الأجنبية .

وبلغت رودس غاية مجدها فى القرن الثالث ، وأضحت بإجماع الآراء أجمل مدائن هلاس وأعظمها حضارة . وقد وصف استرابون الثغر الكبير بأنه « يفوق سائر الثغور فى مرافئه ، وطرقه ، وأسواره ، وما أدخل عليه من الإصلاحات ، حتى لأعجز عن القول بأن مدينة أخرى تضارعه أو تكاد تضارعه[4] » .

وكانت رودس ذات موقع طيب فى ملتقى الطرق التجارية التى تخترق البحر الأبيض المتوسط ، يمكنها من أن تفيد من التجارة الآخذة فى الانتشار والتى يسرت سبلها فتوح الإسكندر ، بين أوربا ، ومصر ، وآسية ، ومن أجل هذا حلت مرافئ رودس الرحبة محل مرافئ صور وپيرية ، وأضحت المرافئ التى يعاد منها شحن البضائع ، كما أضحت مكان المقاصة التجارية والمالية والعاملة على تنظيمها فى شرق البحر . وكان لتجارها سمعة حسنة فى الأمانة . ولمصارفها وحكومتها شهرة طيبة فى الاستقرار ، وسط عالم كله خيانة وتقلقل . وأفادت

الجزيرة كثيراً من هذه السمعة الحسنة ، وكان لها عمارة بحرية قوية يسيرها ملاحون من مواطنيها ، استطاعت أن تطهر بحر إيجة من القراصنة ، وتؤمن السبل البحرية لجميع السفن التجارية لسائر الأمم على قدم المساواة ، وأن تضع قوانين صالحة للملاحة تدل على عقلية ناضجة ، رضيت بها سائر السفن التجارية ، وظلت هذه القوانين هي المسيطرة على تجارة البحر الأبيض قروناً عدة ، ثم أضحت جزءاً من القوانين التجارية لروما والقسطنطينية والبندقية .

وبعد أن حررت رودس نفسها من سيطرة مقدونية بفضل مقاومتها الباسلة لدمتريوس بليوكريتيس (٣٠٥) ، وجهت سفينتها السياسية توجيهاً ناجحاً وسط بحر السياسة المضطرب فى ذلك العصر ، فاحتفظت بحيادها احتفاظا حكيما ولم تتورط فى الحرب إلا لتحول بين ازدياد سلطان دولة معتدية يخشى بأسها ، أو لتحفظ للبحار حريتها . وقد ضمت كثيراً من مدن بحر إيجة وألفت منها « عصبة جزرية » ، وكانت فى ممارستها حقوق السيادة عليها عادلة إلى حد لم تشك أية واحدة منها فيما لها من حق الزعامة عليها . وكانت لها حكومة ذات نظام أرستقراطى على أســاس دمقراطى ، شبيهة بحكومة روما فى عصر الجمهورية ؛ وكانت تحكم مدائن لندس ، وكميروس Camirus ، وياليسوس Ialysus ، ورودس مجتمعة بمهارة وعدل نسبي ، وتمنح المقيمين فيها من الأجانب من الامتيازات ما لم تمنحه أثينة من هاجر إليها من الغرباء ؛ وبسطت حمايتها على عدد كبير من الأرقاء ، ولما أن تعرضوا للخطر لم تتردد فى تسليحهم للدفاع عن أنفسهم ، وفرضت على أغنياء المدينة أن يعنوا بالفقراء من أهلها(٤١) . وكانت الدولة تواجه نفقاتها بفرض ضريبة مقدارها اثنان فى المائة على الصادرات والواردات ؛ وكانت تقرض المال بسخاء ، ومن غير فائدة فى بعض الأحيان ، إلى المدن إذا حلت بها الأزمات .

ولما أن خرب الزلزال رودس نفسها (٢٢٥) ، هب جميع العالم اليونانى لمعونتها ، وذلك لأن اليونان على بكرة أبيهم كانوا يعتقدون أن اختفاءها من وسط بحر إيجة سيؤدى لامحالة إلى الفوضى التجارية والسياسية . فأرسل هيرون الثانى مثلا مائة وزنة ذهبية (٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأعاد فى المدينة نحت طائفة من التماثيل تمثل أهل رودس يتوجهم السرقوسيون ، وأرسل بطليموس الثالث ثلثمائة وزنة(*) ، وأنتجونس الثالث ثلاثة آلاف ، ومعها مقادير كبيرة من الخشب والقار لتستخدمها فى البناء ، وتبرعت زوجته الملكة كريسيس Chryseis بثلاثة آلاف وزنة من الرصاص ، وبما يعادل ثمانية وعشرين أردباً من الحبوب ؛ وبعث سلوقس الثالث بضعفى هذا القدر وبعشر سفن ذات خمسة صفوف من المجاديف كاملة العدة . « أما المدن التى قدمت كل منها ما يتناسب مع قدرتها المالية فهذه يخطئها الحصر على حد قول بوليبوس(٤٢) » لقد كانت هذه الفترة « شكاة نيرة فى دياجير التاريخ السياسى المظلمة ، وكانت فرصة من الفرص القليلة النادرة التى فكر فيها العالم اليونانى وعمل بدأ واحدة .

(*) كانت الوزنة اليونانية تزن نحو ثمانية وسبعين رطلا مصريا . (المترجم)

الباب الرابع والعشرون

الهلنية والشرق

الفصل الأول

الإمبراطورية السلوقية

إذا انتقلنا من أرض اليونان الأصلية مجتازين بحر إيجة إلى المستقرات اليونانية فى آسية ومصر أدهشنا أن نجد فيها حياة جديدة مزدهرة ، وأدركنا أن العصر الهلنستى لم يشهد سقوط الحضارة اليونانية بل شهد انتشارها . ذلك أن طوائف فى إثر طوائف من الجنود والمهاجرين اليونان أخذت تتدفق على آسية ، وزادت فتوح الإسكندر من ضخامة هذه الطوائف بما أتاحت للمغامرات اليونانية من فرص وما مهدت لها من سبل جديدة .

وكان سلوقس الملقب « بنيكاتور » Nicator (المظفر) يمتاز من بين قواد الإسكندر بالشجاعة ، وقوة الخيال ، والكرم الذى لا حد له . وحسبك دليلا على هذا الكرم أنه وهب زوجته الثانية استرتنيسى Stratonice الحسناء لابنه دمتريوس لما عرف أن الغلام قد افتتن بها . وغضب أنتجونس الثانى حين جعلت بابل من نصيب سلوقس فزحف بجيوشه ليستولى على جميع بلاد الشرق الأدنى ، ولكن سلوقس وبطليموس هزماه عند غزة (٣١٢) . وكانت الأسرة السلوقية تعد هذه الحادثة مبدأ لتاريخ الإمبراطورية السلوقية والعصر الجديد ، وهى طريقة فى التاريخ بقيت فى غرب آسية إلى ظهور الإسلام . وضم سلوقس تحت لوائه عدة ممالك وثقافات قديمة هى عيلام ، وسومر ، وفارس ، وبابل ،

وأشور ، وسوريا ، وفينيقية ، وشملت آسية الصغرى وفلسطين فى بعض الأحيان ، وأنشأ فى سلوقية وأنطاكية عاصمتين لملكه كانتا أعظم ثروة وأكثر سكاناً من أية مدن عرفناها فى بلاد اليونان الأصلية . واختار لسلوقية موضعا قرب موضع مدينة بابل القديمة التى شيدت فيه بغداد فيما بعد ، لايبعد إلا قليلا عن ملتقى نهر دجلة والفرات ، وكان هذا الموضع من أصلح المواضع لاجتذاب التجارة المتبادلة بين أرض الجزيرة والخليج الفارسى وما وراءه . ولم يكد يمضى عليها نصف قرن من الزمان حتى بلغ عامرها ٦٠٠,٠٠٠ نفس ، كانوا خليطا من مختلف أجناس آسية تسيطر عليهم أقلية يونانية(*) . وكان موقع أنطاكية على نهر العاصى شبيها بموقع سلوقية ، ولم تكن تبعد عن مصبه بعداً يحول دون وصول السفن المحيطية إليها ، ولكنها تبعد عنه بعداً يجعلها فى مأمن من هجوم الأساطيل المعادية ، ويمكنها من استغلال حقول وادى النهر الغنية ، ومن اجتذاب تجارة البحر الأبيض المتوسط وشمالى الجزيرة وسوريا . وفى هذه المدينة شاد الأباطرة السلوقيون المتأخرون قصورهم ، وظلت المدينة تنمو وتزدهر حتى صارت فى عهد أنتيوخوس الرابع أغنى مدائن آسية السلوقية، تزينها المعابد والأروقة المعمدة ، ودور التمثيل ، وساحات الألعاب الرياضية ، والمدارس ، وحدائق الأزهار ، والشوارع الواسعة ذات المناظر الرائعة ، والبساتين الجميلة ومنها حديقة دفنى Daphne التى طبقت الخافقين شهرة ما بها من أشجار الغار والسرو ، والفوارات والجداول .

واغتيل سلوقس الأول فى عام ٢٨١ ، بعد أن حكم البلاد حكماً صالحا دام خمسا وثلاثين سنة كسب فيها قلوب شعبه . وأخذت دولته بعد موته فى التفكك ،

(*) وقد استخرج الأستاذ لروى وترمان Leroy Waterman من هذا الموضع فى عام ١٩٣١ ألواحا تدل على أن رجلا من أغنى رجال سلوقية قد ظل يتهرب من أداء الضرائب خمسا وعشرين سنة(١) .

تمزقها الاختلافات الجغرافية والعنصرية ، والتنازع العنيف على العرش ، وغارات البرابرة من كل صوب . واستبسل أنتيوخوس الأول سوتر Soter (المنقذ) فى حرب الغاليين ؛ وعاش أنتيوخوس الثانى ثيوس (الإله) ، عيشة الإدمان المستمر ، كأنه أراد أن يثبت مرة أخرى ما تتعرض له البلاد ذات الحكومات الملكية المطلقة من خطر شديد ؛ وبدأت زوجته لأوديسى Laodice سلسلة الدسائس والمؤامرات التى مزقت البيت المالك شر ممزق وقضت عليه فى آخر الأمر . وكان أنتيوخوس الثالث الأكبر رجلا عظيم الكفاية ، حسن الثقافة ؛ ويظهره تمثاله النصفى المحفوظ فى متحف اللوفر رجلا يونانيا — مقدونيا جمع إلى شجاعة المقدونيين ذكاء اليونان . وقد استعاد بحروبه الطويلة معظم الأقاليم التى فقدتها الإمبراطورية من أيام سلوقس الأول ، وأنشأ مكتبة فى أنطاكية وناصر الحركة الأدبية التى بلغت ذروتها على يدى مليجر الغزى Meleager of Gaza فى أواخر القرن الثانى . وحافظ هذا العاهل على العادة اليونانية ، عادة استقلال المدن بشئونها ، وكتب إليها يقول إنه « إذا أمر بشىء يخالف القوانين ، فعليها ألا تعير أمره التفاتا ، بل يجب أن تفترض أنه فعل ما فعل عن جهل[٢] » . ولكنه قضت عليه المطامع المفرطة ، والخيال القوى ، والعشق العنيف . وهزمه بطليموس الرابع عند رافيا Raphia فى عام ٢١٧ ، وضاعت منه فينيقية ، وسوريا ، وفلسطين . وخفف من وقع هذه الهزيمة وأعقابها حملته المظفرة إلى بكتريا والهند (٢٠٨) ، وهى الحملة التى جددت أعمال الإسكندر . وأغراه هنيبال بأن يساعده على رومة فأرسل جيشا إلى عوبية ؛ وهام وهو فى سن الخمسين بحب فتاة حسناء فى خلقيس . وأخذ يغازلها غزلا شريفا ، ثم تزوجها باحتفال عظيم ، ونسى الحرب وقضى فصل الشتاء يستمتع معها بالسعادة[٣] . وهزمه الرومان فى ترمبيلى ، وطردوه إلى آسية الصغرى ، وهجموا عليه هجوما عنيفاً فى مجنيزيا . ولم تطاوعه

نفسه على السكون فتورط فى حرب أخرى فى بلاد الشرق مات فى أثنائها بعد أن حكم ستة وثلاثين عاماً .

وكان ابنه سلوقس الرابع ميالا للسلم ، صرف شئون الدولة بالاقتصاد والحكمة ، واغتيل فى عام ١٧٥ ق . م وكان أصغر ابنيه فى ذلك الوقت أركونا فى أثينة ، حيث ذهب ليدرس الفلسفة . فلما سمع بموت سلوقس ، جمع جيشا زحف به على أنطاكية ، وخلع قاتل أبيه ، واعتلى العرش . وكان أنتيوخوس الرابع أجدر أفراد هذه الأسرة بالاهتمام وأكثرهم أخطاء ؛ ذلك أنه كان مزيجا نادرا من الذكاء والجنون ، والجاذبية ، وقد حكم مملكته حكما حازما رغم ما ارتكبه من مئات المظالم والسخافات . فقد أجاز لعماله أن يسيئوا استخدام سلطتهم ، وأطلق يد عشيقته فى ثلاث مدن ؛ وكان كريما وقاسيا لايعتمد فى أحكامه على عقل ، يحكم ويصفح عن هوى ، ويفاجئ البسطاء من أفراد الشعب ، بالهدايا القيمة ، ويلقى بالنقود على رؤوس الجماهير فى الشوارع كما يفعل الأطفال المنتشون . وكان يحب الخمر والنساء والفنون ؛ يفرط فى الشراب ، ويقوم من مجلسه فى الولائم ليرقص عاريا مع أضيافه ، أو يتعاطى نفايات الطعام والشراب . وكان رجلا إباحيا شاءت الأقدار أن تحقق له ماكان يحلم به من سلطان . كان يحتقر وقار البلاط وزخارفه ، ويمزح مزاحاً عملياً مع كبار رجال الدولة ، ويتخفى ليستمتع بما يهيئه التخفى من الترف . وكان يسره أن يختلط بأفراد الشعب ليتعرف مايقولونه عن الملك ، وأن يتجول فى أماكن الفنانين ليدرس أعمال الحفارين والصياغ ويناقشهم فى التفاصيل الفنية لصناعتهم . وكان يشعر بحماسة صادقة للآداب والفنون والأفكار اليونانية . وبفضله ظلت أنطاكية مائة عام كاملة مركز الفنون فى العالم اليونانى ؛ وكان يجود بالمال بسخاء على الفنانين لينحتوا التماثيل ويشيدوا المعابد فى غير أنطاكية من مدن هلاس ، فأعاد تزيين ضريح أپلو فى ديلوس ، وشاد دار تمثيل لتيجيا ، وتبرع بالأموال اللازمة لإتمام الأولمپيوم فى أثينة . وإذ كان

قد قضى فى رومة أربعة عشر عاما وهو فى سن يكون فيها المرء سريع التأثر بما حوله ، فقد تشرب فيها بحب الأنظمة الجمهورية ؛ وكأنما أراد أن يستبق عهد أغسطس ، فكان يسره ويوائم مزاجه وسياسته أن يخلع على سلطته الملكية المطلقة ستاراً من الحرية الجمهورية . وكان أهم آثار هيامه بكل ما هو رومانى أن أدخل ألعاب المجالدين فى أنطاكية عاصمة ملكه . واستاء الشعب من هذه الألعاب الوحشية ، ولكن أنتيوخوس استرضاه بما أقام له من الاستعراضات الفخمة الرائعة وما أنفق عليها من أموال طائلة ؛ فلما أن ألف الشعب مظاهر التقتيل عد انحطاطه هذا نصراً له . وكان من مميزاته أنه بدأ حياته رواقيا شديد التحمس للرواقية ، ثم اختتمها بعد أن تحول فى غير عناء إلى الأبيقورية . وكان يستمتع بصفاته هذه استمتاعا بلغ من قدره أن نقش على النقود التى ضربت فى أيامه «أنتيوخوس الإله البيِّن Antiochus Theos Epiphanes» . ولما أن عدا طوره كما يفعل أمثاله من ذوى الخيال ، حاول فى عام ١٦٩ أن يفتح مصر . وكاد يتم له ما أراد لولا أن أمرته رومة ، وكانت هى الأخرى تتطلع إلى الاستيلاء على مصر ، أن ينسحب من أرض إفريقية بأجمعها . وطلب أنتيوخوس أن يتاح له بعض الوقت ليفكر فى أمره ، ولكن پوبليوس رسول رومة رسم فى الرمل دائرة حول أنتيوخوس وأمره أن يقطع برأى قبل أن يجتاز محيطها . فاستسلم وهو غاضب ثائر ، ونهب هيكل أورشليم ليسترد ما أنفق فى حملته من الأموال ، طلب المجد كما طلبه أبوه من قبل فى شن الحرب على القبائل الشرقية ، ومات فى فارس وهو فى طريقه إلى هذه القبائل من الصرع والجنون والمرض(٥) .

الفصل الثانى

الحضارة السلوقية

لقد كانت مهمة الدولة السلوقية فى التاريخ أن تهب الشرق الأدنى الاستقرار الاقتصادى والنظام السياسى ، اللذين وهبتهما إياه فارس قبل الإسكندر ، واللذين أعادتهما إليه رومة بعد قيصر . ولقد أدت فى واقع الأمر هذه المهمة رغم ما ينتاب أحوال البشر من حروب وثورات ونهب وفساد . ذلك أن الفتوح المقدونية قد حطمت ما أقامته الحكومات واللغات من حواجز بين الأمم ، ودعت الشرق والغرب إلى تبادل المصالح التجارية تبادلا أتم مما كان بينهما من قبل ؛ وكانت نتيجة هذا أن بعثت الحياة فى بلاد آسية اليونانية بعثا باهرا جديداً . فبينا كان الانقسام والنزاع وجدب التربة وتحول الطرق التجارية يقضى على بلاد اليونان الأصلية ، كانت الوحدة والسلم اللتان احتفظ بهما الأباطرة السلوقيون ذواتى أثر عظيم فى تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة . ولم تعد مدن آسية اليونانية حرة فى إشعال نار الثورات أو التجارب فى أساليب الحكم ، بل أرغمها الملوك على أن تأتلف ، حتى أصبح الائتلاف إلها يعبد فى هذه المدن(٦) ، وكانت نتيجة هذا أن ازدهرت من جديد مدن قديمة مثل ميليطس ، وإفسوس ، وأزمير .

وكانت أودية دجلة والفرات ، والأردن ، والعاصى ، ومياندر ، وهاليس ، وجيحون خصبة إلى حد لا يستطيع خيالنا أن يتصوره الآن لما يثقله من مناظر الصحارى ، والقفار الصخرية التى تغطى أصقاعا واسعة من بلاد الشرق الأدنى بعد أن ظلت ألفى عام كاملة معرضة لعوامل التعرية ، ولتقطيع الغابات وإهمال الأهلين حرثها وزرعها(٧) . وكانت الأرض فى أيام تلك الإمبراطورية تروبها

شبكة من القنوات تشرف عليها الدولة وتعنى بأمرها . وكانت وقتئذ ملكا للملوك أو النبلاء من رجال حاشيته ، أو للمدن ، أو الهياكل ، أو الأفراد . وكان الأقنان هم الذين يزرعونها في جميع هذه الأحوال وينتقلون معها إذا ما أورثت أو بيعت . وكانت الحكومة تعد كل ما تحتويه الأرض من ثروة ملكا قوميا[٨] ، لكنها قلما كانت تعنى باستغلالها . وقد بلغت الحرف وقتئذ ، والمدن نفسها ، درجة عظيمة من التخصص ؛ فكانت ميليطس مثلا مركزا هاما لصناعة النسيج ، وكانت أنطاكية تستورد المواد الغفل وتحيلها إلى بضائع مصنوعة ، وبلغت بعض المصانع الكبرى التي تستخدم العبيد درجة لا بأس بها من الإنتاج الكبير ترسله للأسواق العامة[٩] . ولكن الاستهلاك المحلي لم يجار الإنتاج ، لأن فقر الأهلين لم يساعد على قيام أسواق محلية كبيرة تشجع الصناعات الكبرى .

وكانت التجارة حياة الاقتصاد الهلنستي ، فهي التي أوجدت الثروات الكبرى ، وشادت المدن العظيمة ، واستخدمت نسبة متزايدة من السكان الآخذين في الازدياد . وحل التعامل بالنقد في ذلك الوقت محل المقايضة التي ظلت أربعة قرون وسيلة للتعامل لم تقض عليها نقود كروسس . لكنها وقتئذ كادت تختفي اختفاء تاما من تلك البلاد : فقد أصدرت مصر ، ورودس ، وسلوقية ، وبرجموم ، وغيرها من الحكومات نقودا بلغت من الاستقرار والتشابه حدا يكفي لتيسير التجارة الدولية . وكانت المصارف تيسر وسائل الائتمان الفردي والعام . وكانت السفن كبيرة تتراوح سرعتها بين أربعة أميال بحرية وستة أميال في الساعة ، وكان لها فضل تقصير المسافات بعد أن استطاعت السير في عرض البحار . وفي البر عني السلوقيون بالطرق الكبرى التي ورثتها بلاد الشرق عن فارس ، وأكثروا منها ، وزادوا في أطوالها . وكانت طرق القوافل الممتدة من أطراف آسية الصغرى تلتقي في سلوقية ثم تتفرع منها إلى دمشق ، وبريتس (بيروت) وأنطاكية . وأثرت سلوقية من هذه التجارة الواسعة ،

وعمات على إنمائها ، فقامت أحياء غاصبة بالسكان فيها وفى بابل : وصور ، وطرسوس ، وزانثوس ، ورودس ، وهليكرنسس ، ومبايطس ، وإفسوس ، وأزمير ، وبرجموم ، وبيزنطية ، وسزيكوس Cyzicus ، وأپاميا Apamea ، وهرقلية ، وأمسوس Amisus ، وسينوب ، وبنتيكپيوم Banticapaeum ، وألبيا Albia ، ولسياكيا Lysimacheia ، وأبيدوس ، وثسلونيكا (سلونيكا) ، وخلقيس ، وديلوس ، وكورنثة ، وأمبراشيا Ambracia ، وإبدامنوس Epidamnus (درازو الحالية) ، وتراس ، ونيپوليس Neapolis (نابلى) وروما ، ومساليا ، وإمپوريوم Emporium ، وبنورموس Banormus (پالرمو) ، وسرقوسة ، ويوتيكا Utica ، وقرطاجة ، وقورينى Cyrene والإسكندرية . وكانت شبكة ناشطة من طرق التجارة تربط أسبانيا فى عهد قرطاجة بروما ؛ وقرطاجة فى أيام هملكار وسرقوسة فى عهد هيرون الثانى بروما أيام آل سپيو ؛ ومقدونية فى عهد الأنتجونيين ، وبلاد اليونان فى عهد العصب المتحالفة ، ومصر فى عهد البطالمة ، والشرق الأدنى فى عهد السلوقيين ، والهند فى عهد آل موريا Maurya والصين فى عهد أسرة هان . وكانت الطرق الآتية من بلاد الصين تخترق التركستان ، وبكتريا ، وفارس ، أو تجتاز بحر أرال والبحر الأسود وبحر قزوين . أما الطرق الآتية من الهند فكانت تجتاز أفغانستان وفارس إلى سلوقية أو تخترق بلاد العرب والبتراء إلى أورشليم ودمشق ، أو تعبر المحيط الهندى إلى أدانا (عدن) ثم تجتاز البحر الأحمر إلى أرستوى (السويس الحالية) ، ومنها إلى الإسكندرية . ومن أجل الإشراف على هذين الطريقين الآخرين اشتبك السلوقيون والبطالمة فى « الحروب السورية » التى أضعفتهما جميعاً آخر الأمر ضعفاً أخضعهما إلى روما .

وورثت الملكية السلوقية التقاليد الأسيوية فكانت ملكية مطلقة ، لا تحد من سلطتها جمعية شعبية . وقد نظم بلاط الملك على الطراز الشرقى فكان فيه

رجال التشريفات ذوو الملابس المزركشة ، والخصيان ، والحلل الرسمية ، والبخور والموسيقى ؛ ولم يبق فيه شيء يونانى عدا الكلام والملابس الداخلية . ولم يكن الأشراف فيها زعماء شبه مستقلين كما كانت الحال فى مقدونية وفى أوربا فى العصور الوسطى ، بل كانوا موظفين إداريين أوعسكريين يعينهم الملوك . وهذا النظام الملكى هو الذى انتقل من بلاد الفرس عن طريق السلوقيين والساسانيين إلى رومة فى عهد دقلديانوس ، وبيزنطية فى عهد قسطنطين . وكان السلوقيون يعرفون أن سلطانهم فى هذا المحيط الأجنبى إنما يعتمد على ولاء السكان اليونان ، ولهذا بذلوا كل ما يستطيعون من جهد لإعادة المدن اليونانية القديمة وإنشاء مدن أخرى جديدة ؛ فأنشأ سلوقس الأول تسع مدن باسم سلوقية وستاً باسم أنطاكية وخمساً باسم لأودنيسيا ، وثلاثاً باسم أپاميا ، وواحدة باسم استرتونيس Stratonice ، وحذا خلفاؤه حذوه بقدر ما وسعته جهودهم التى كانت أقل من جهوده . ونمت هذه المدن وتضاعف عددها كما حدث فى أمريكا فى القرن التاسع عشر .

وعن طريقهم أخذ غربى آسية يصطبغ بالصبغة اليونانية بخطى سريعة فى ظاهر الأمر . ولا حاجة إلى القول بأن هذه العملية كانت قديمة العهد ، فقد بدأت فى أيام الهجرة الكبرى ، وكان الانتشار الهلنستى من بعض نواحيه هو نهضة أيونيا من جديد وعودة الحضارة اليونانية إلى مواطنها الأسيوية القديمة ، ولقد كان اليونان حتى قبل الإسكندر يشغلون مناصب رفيعة فى الإمبراطورية الفارسية ، كما كان التجار اليونان يسيطرون على المسالك التجارية فى الشرق الأدنى القريب . أما الآن فإن الفرص السياسية والتجارية والفنية قد اجتذبت سيلا جارفاً من المهاجرين المغامرين ، والمستعمرين والكتبة ، والجند والتجار ، والأطباء ، والعلماء ، والسرارى . وكان المثالون والحفارون اليونان ينحتون التماثيل وينقشون النقود لملوك فينيقية ، وليشيا ، وكاريا ، وصقلية ، وبكتريا .

وهرعت الراقصات اليونانيات إلى الثغور الأسيوية[١٠] ، وغشى الفساد الخلقى المنسى ستار يونانى ظريف ، وأثارت مدارس الألعاب الرياضية اليونانية وساحاتها فى بعض الشرقيين شغفاً لم يألفوه من قبل بالألعاب والحمامات. فأنشأت المدن طرقاً جديدة تمدها بالماء ونظماً جديدة لصرف الأقذار ،ورصفت الطرق ونظفت . ونشطت المدارس ، ودور الكتب ، والتمثيل والقراءة والأدب ، وكان طلاب العلم فى الكليات والجامعات يطوفون بشوارع المدن يحاجج بعضهم بعضاً ، أو يحاجون الناس كما كانوا يفعلون فى العهد القديم ؛ ولم يكن أحد يحسب من المثقفين إلا إذا كان يفهم اللغة اليونانية ، ويستطيع الاستمتاع بمسرحيات مناندر ، ويوريپديز . وكانت سيطرة الحضارة اليونانية على بلاد الشرق الأدنى من أغرب الظواهر فى التاريخ القديم ؛ ولم تر آسية من قبل مثل هذا التبديل السريع الواسع المدى . غير أننا لانعرف من تفاصيله وآثاره إلا النزر اليسير ؛ ذلك أن ما وصلنا من المعلومات عن آداب آسية السلوقية ، وفلسفتها ، وعلومها جد ضئيل ، وإذا لم نجد فيه إلا عددا قليلا من الشخصيات الجبارة أمثال زينون الرواقى ، وسلوقس الفلكى ، وفى العهد الرومانى مليجر الشاعر ، وبسيديس الذى كان يلم بكثير من العلوم المختلفة ، إذا لم نجد إلا هذا العدد القليل فإنا لانستطيع أن نجزم أنه لم يكن هناك كثيرون غيرهم . والحق أن هذه الثقافة كانت ثقافة مزدهرة ، ذات ألوان متعددة ، رقيقة مهذبة ، متحمسة ، لا تقل خصباً فى الفنون عن أية ثقافة سبقتها . ومبلغ علمنا أنه لم توجد قبلها ثقافة تضارعها فى سعة انتشارها وفى وحدتها المعقدة بين ما كان يحيط بها من بيئات متباينة . وقصارى القول أن غرب آسية ظل مدى قرن من الزمان تابعاً لأوربا ، وأن السبيل قد مهدت للسلام الرومانى والتآلف المسيحى الجامع الشامل .

ولكن هذا لايعنى أن الشرق قد غلب على أمره ، فقد كانت خصائصه متأصلة فيه قديمة العهد ، ولم يكن من اليسير أن يسلم روحه إلى الغرب أياً كانت

قوته . لهذا ظلت جمهرة الناس تتخاطب بلغاتها الوطنية ، وتجرى على سننها وأساليبها المألوفة من قديم الزمان ، وتعبد الآلهة التى كان يعبدها آباؤها وأجدادها ؛ وكان الغشاء اليونانى الذى يغشى البلاد البعيدة عن شواطئ البحر الأبيض المتوسط رقيقاً ، وكانت المراكز الهلينية القائمة فى هذه الأصقاع أمثال سلوقية على نهر دجلة جزائر يونانية فى البحر الشرقى . ولم تمتزج فى هذه الأصقاع الأجناس والثقافات الامتزاج الذى كان يحلم به الإسكندر ؛ بل كان من فوق سطحه يونان وحضارة يونانية ، من تحتهما خليط من الشعوب والثقافات الشرقية ، ولم تدخل الصفات الذهنية اليونانية فى العقل الشرقى ؛ ولم تحدث ما امتاز به اليونان من نشاط وحب للجديد ، وحرص على الشئون الدنيوية ، ورغبة شديدة فى الكمال ، والتعبير عن الذات والنزعة الفردية القوية ، لم يحدث هذا كله تغيراً ما فى أخلاق الشرقيين . بل حدث عكس هذا ، حدث على مر الأيام أن جاشت أساليب التفكير والإحساس الشرقية من أسفل وغمرت الطبقة اليونانية الحاكمة ، ثم نقلها هؤلاء إلى الغرب فكانت هى التى بدلت العالم « الوثنى » . ففى بابل استعاد التاجر السامى ومَصْرِفى الهيكل الصابران سيطرتهما على الهلنى المتقلب الفرّار ، فاحتفظا بالكتابة المسمارية ، وأنزلت اللغة اليونانية إلى المكانة الثانية فى عالم الأعمال ؛ وأفسد التنجيم ، والكيمياء الكاذبة ، فلك اليونان وعلومهم الطبيعية ، وأثبتت الملكية المطلقة الشرقية أنها أقوى من الدمقراطية اليونانية ، وانتهى الأمر بأن فرضت صورتها على الغرب نفسه ، فأصبح الملوك اليونان والأباطرة الرومان آلهة كما كانوا فى بلاد الشرق ، وانتقلت نظرية حق الملوك المقدس التى كانت تسود بلاد الشرق إلى أوربا الحديثة عن طريق رومة والقسطنطينية .

وبث الشرق عن طريق زينون نزعته التجريدية والجبرية فى الفلسفة اليونانية ، كما سرى تصوفه وتقواه من مئات السبل إلى الفراغ الذى تركه تدهور

الدين اليونانى السليم . وسرعان ما قبل اليونان آلهة الشرق ورأوا أنهم فى جوهرهم آلهتهم هم ؛ ولكن اليونانى لم يكن فى واقع الأمر يؤمن بالآلهة كما كان يؤمن بها الشرقى ، ولهذا بقى الإله الشرقى ومات الإله اليونانى ، فعادت أرتميس الإفيزية كما كانت إلهة شرقية للأمومة ، ذات اثنى عشر ثديا ؛ واستسلم عدد عظيم من غزاة اليونان للطقوس الدينية البابلية ، والفينيقية . والسورية . وقصارى القول أن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة ، وأن الشرق عرض على اليونان الدين ، كانت الغلبة للدين ، لأن الفلسفة كانت ترفا يقدم للأقلية الضئيلة ، أما الدين فكان سلوى للكثيرين . واستعاد الدين سلطانه فى هذا التبادل التاريخى المضطرب بين الإيمان والكفر ؛ والنزعة التصوفية والنزعة الطبيعية ؛ والدين والعلم ؛ وذلك لأن الدين أدرك ما ينطوى عليه الإنسان من ضعف وعزلة ، وبعث فيه الإلهام والشعر . وقد سر العالم الذى زالت عن أعينه غشاوة الخداع ، العالم المستقل ، الذى سئم الحروب ، سر هذا العالم أن يعود إليه الإيمان والأمل . وكانت أعمق فتوح الإسكندر أثراً نتيجة أبعد ما تكون عن العقول ، ألا وهى اصطباغ الروح الأوربية بالصبغة الشرقية .

الفصل الثالث

برجـــوم

لقد كان امتصاص آسية لليونان امتصاصا تدريجيا سيئاً فى ضعف قوة الدولة السلوقية ، ونشأة ممالك مستقلة على أطراف العالم الهلنستى . فقد أقامت منذ عام ٢٨٠ بلاد أرمينية ، وكبدوكيا وتيقس ، وبيثينيا ممالك مطلقة مستقلة ؛ ولم تلبث المدن اليونانية القائمة على شواطئ البحر الأسود أن خضعت لحكم الأسيويين . وانفصلت بكتريا وسجديانا من حكم السلوقيين حوالى عام ٢٥٠ ؛ وفى عام ٢٤٧ اغتال أرسسيز زعيم البارنى Parni — وهى قبيلة إيرانية بدوية — حاكم بلاد الفرس السلوقى ، وأنشأ مملكة پارثيا التى قدر لها أن تنازع رومة سلطانها عدة قرون ؛ وفى عام ٢٨٢ استولى فلاتيروس Philataerus على تسعة آلاف وزنة من المال ، وكان لسمخوس Lysemachus قد ائتمنه عليها ، كما استولى على تل برجوم الحصين فى آسية وأعلن استقلاله عن الدولة السلوقية . وضم ابن أخيه أمنيز الأول Eumenes الأول إلى ملكة پيتانى Pitane وأترنيوس Atarneus . وجعل برجوم مملكة مطلقة مستقلة ذات سيادة (٢٦٢) . وكان لأتلوس الأول Attalus فضل كبير على آسية اليونانية لأنه صد عنها الغاليين الذين اخترقوا هذه الأصقاع حتى وصلوا إلى أسوار مدينته (٢٣٠) ؛ وواصل أمنيز الثانى أكبر أبنائه حكم أبيه الحازم ، ولكنه أثار دهشة اليونان بأن استغاث برومة لتحميه من أنتيوخوس الثانى ؛ وبعد أن هزم بمعونتها أنتيوخوس عند مجنيزيا ترك له الرومان جميع بلاد آسية الصغرى تقريبا ، وخلفه على العرش أخوه أتلوس الثانى ، وكان يرتاب فى مقدرة أبنائه على أن يحتفظوا بحرية برجوم ، فأوصى بملكه وهو على فراش الموت (١٣٩) إلى رومة .

وبذلت الدولة الصغيرة كل ما فى وسعها لتكفر عما أحاط بمولدها ونشأتها من غدر وخيانة ، فأخذت تنافس الإسكندرية بوصفها مركزاً للعلم والفن ؛ فلم تنفق كل ما عاد عليها من خيرات المناجم ، والكروم ، وحقول الغلال ، ومن نسيج الصوف وصناعة رقائق الجلد والعطور ، والآجر والقرميد ، ومن سيطرتها على تجارة بحر إيجة ، نقول إنها لم تنفق كل ما عاد عليها من هذا فى إنشاء جيش وأسطول قويين بل أنفقت جانبا كبيراً منه فى تشجيع الأدب والفن ؛ ذلك أن ملوك برجموم كانوا يؤمنون بأن الحكم والأعمال التجارية والمالية الخاصة تستطيعان أن تتنافسا تنافساً يؤتى خير الثمرات ، وأن تقضيا على كثير من أسباب العجز والشره . فقد كان الملك يستخدم العبيد فى زرع مساحات واسعة من الأرضين ، ويدير كثيراً من المصانع ، والمحاجر والمناجم ، وإن لم يكن ذلك بطريق الاحتكار . وبهذه الطريقة الفذة ازدادت الثروة وتضاعفت ، وأضحت برجموم حاضرة مزخرفة ، اشتهرت بمذبح زيوس ، وبقصورها الفخمة ، وبمكتبتها الجامعة ، ودار تمثيلها العظيمة ، وربما كان فيها من ساحات رياضية وحمامات ؛ بل إن ما كان فيها من دورات مياه عامة ليشهد بفضل إدارتها البلدية[11] . ولم تكن مكتبتها الجامعة يفوقها فى عدد مجلداتها ، وفى شهرة علمائها الواسعة إلا مكتبة الإسكندرية وحدها ، وكان معرض صورها يحتوى على مجموعة عظيمة من الرسوم الملونة يتردد عليها الزائرون ليستمتعوا بجمالها . وظلت برجموم خمسين عاما أنضر زهرة فى الحضارة الهلينية .

وكان بيت سلوقس فى هذه الأثناء آخذاً فى الاضمحلال والفناء . ذلك أن قيام الممالك المستقلة فى أنحاء الإمبراطورية السلوقية كان يقصر سلطان الملوك السلوقيين على سوريا وبلاد الجزيرة . وأخذت بارثيا وبرجموم ، ومصر ، ورومة تعمل جاهدة فى صبر وأناة لإضعاف هذه الأسرة ، يساعدها على هذا

المدعون الذين كانوا يطالبون بعرش البلاد كلما انتقل هذا العرش من ملك إلى ملك، كما تساعدها الجزازات والانشقاق والحرب الأهلية . وبينما كان دمتريوس الأول يعيد القوة والنشاط للحكومة السلوقية ، إذ جيشت رومة فى عام ١٥٣ جيشاً من مرتزقة الجند جاءت بهم من كافة الأنحاء لتأييد مغامر من أهل أزمير فى مطالبته الباطلة بعرش البلاد . وانضمت برجموم ومصر فى الهجوم على دمتريوس ، فقاوم هذا الملك جيوش أعدائه مقاومة الأبطال ، وخر صريعا فى ميدان القتال ، وآلت سلطة السلوقيين إلى يدى رجل حقير خامل يدعى ألكسندر بالاس Alexander Balas ، كان ألعوبة فى أيدى عشيقاته ورومة .

الفصل الرابع

الهلنية واليهود

يدور تاريخ بلاد اليهود فى العصر الهلنستى حول نزاعين : الكفاح الخارجى بين آسية السلوقية ومصر البطالمة للاستيلاء على فلسطين ، والكفاح الداخلى بين أساليب الحياة الهلنية والعبرية . فأما الكفاح الأول فهو تاريخ ميت ، وفى وسعنا أن نفرغ منه فى عبارات موجزة ، وأما الكفاح الثانى فهو فى اعتقاد ماثيوآرنلد Mathew Arnold أحد الانشقاقات الخالدة التى طرأت على الأفكار والمشاعر البشرية . وكانت بلاد اليهود (أى فلسطين الواقعة جنوب السامرة) فى التقسيم الأول لإمبراطورية الإسكندر من نصيب بطليموس ؛ ولكن السلوقيين لم يقبلوا قط هذا التقسيم لأنهم وجدوا أنفسهم بمقتضاه منفصلين عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأنهم كانوا يطمعون فيما قد يعود عليهم من ثراء بسبب التجارة المارة بدمشق وأورشليم . وانتصر بطليموس فى الحروب التى ثارت بسبب هذا النزاع ، واستولى على بلاد اليهود وظلت خاضعة لسلطان البطالمة أكثر من مائة عام (٣١٨ - ١٩٨) ، كانت تؤدى فى خلالها جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف وزنة ، ولكنها ازدهرت وعمها الرخاء رغم هذا العبء الثقيل . وقد ترك البطالمة لبلاد اليهود قسطاً كبيراً من الحكم الذاتى ، تحت سلطان كاهن أورشليم الأكبر والجمعية الوطنية الكبرى . وأضحت الجروسيا أو مجلس الكبار ، التى أنشأها عزرا ونحميا قبل ذلك العهد بمائتى عام ، مجلس شيوخ ومحكمة عليا فى وقت واحد . وكان أعضاؤها السبعون أو الأكثر من السبعين يختارون من بين رؤساء الأسر الشهيرة فى البلاد ، ومن بين أكبر رجال العلم (السفريم Soferim) . وقد ظلت قرارات هذه الجمعية المعروفة

باسم « الدبرسفريم » Dibre Soferim أساس الدين اليهودى العام من العصر الهلنستى إلى العصر الحديث .

وكان أساس اليهودية هو الدين : كما كانت فكرة وجود إله قادر تسيطر على كل ناحية من نواحى الحياة اليهودية وكل لحظة من لحظاتها . وكان مجلس الكبراء يفرض القوانين الأخلاقية والآداب الاجتماعية بجميع دقائقها . ويشرف على تنفيذها إشرافا تاما . وكانت أسباب اللهو والتسلية والألعاب قليلة محدودة ، وكان الزواج بغير اليهود محرما ، وكذلك العزوبة وقتل الأطفال . ومن ثم كان اليهود يلدون كثيراً ويربون جميع أبنائهم ، وظلوا طوال العصور القديمة يتكاثرون رغم الحروب والمجاعات حتى بلغ عددهم فى الإمبراطورية الرومانية أيام قيصر سبعة ملايين . وكان معظم السكان قبل العهد المقدونى يشتغلون بالزراعة ، لأن اليهود لم يكونوا قد أصبحوا بعض أمة من التجار . وقد كتب عنهم يوسفوس Josephus فى ذلك العهد المتأخر ، وهو القرن الأول بعد الميلاد ، يقول : « لسنا شعباً تجاريا[١٣] » . أما الشعوب التجارية العظيمة فى ذلك العصر فهى الفينيقيون والعرب واليونان . وكان الرق موجودا فى بلاد اليهود كما كان فى غيره من الأقطار ، غير أن حرب الطبقات كانت هادئة نسبياً . ولم يكن للفنون عندهم شأن عدا الموسيقى فقد كانت راقية مزدهرة . وكان الناى والطبل ، والصنوج و « قرن الكبش » أو البوق . والقيثارة ، تستخدم مصاحبة للصوت الواحد ، أو للأغانى الشعبية ، أو الترانيم الدينية . وكان الدين اليهودى يعيب على الطقوس اليونانية استرسالها فى الخضوع لخيال الشعب ويزدريها لهذا السبب ؛ وكانت الصلة مقطوعة بينه وبين الصور ، والنبوءات ، ومعرفة الغيب بالنظر فى أحشاء الطير ، وكان أقل تجسيدا ، وتحريفاً ، وأقل بهرجة ومرحا من دين اليونان . وكان الربانيون يواجهون طقوس الشرك الهلنية بإنشاد هذه النغمة التى لاتزال تتردد حتى اليوم فى كل كنيس يهودى : « استمعى يا إسرائيل : الرب إلهنا ، الرب واحد » .

وأدخل الغزاة اليونان فى هذه الحياة البسيطة المتزمتة كل ما فى الحضارة المهذبة الأبيقورية من أسباب اللهو والغواية . وقد كان يحيط ببلاد اليهود حلقة من المستقرات والمدن اليونانية : السامرة ، ونيوبوليس ، وغزة، وعسقلان ، وأزوتس Azotus (أشرود) وجبا Joppa (يافا) ، وأپولونيا Appollonia ؛ ودوريس Dorisa ، وسكمينا Sycamina ، وپوليس Polis (حيفا) وأكو (عكا). وكان على الضفة الأخرى من نهر الأردن عصبة من عشر مدن يونانية : هى دمشق ، وجدارا Gadara ، وجراسا Gerasa ، وديوم Dium ، وفلدلفيا ، وپلا Pella ، ورافيا Raphia ، وهپو Hippo ، واسكيثو پوليس Scythopolis ؛ وكنيثا Canetha. وكانت تقوم فى كل واحدة من هذه المدن نظم ومؤسسات يونانية وهياكل للآلهة والإلهات اليونانية ، ومدارس ، ومجامع علمية ، ومدارس وساحات للألعاب الرياضية ، وألعاب يشترك فيها الناس وهم عراة .وأقبل على أورشليم من هذه المدن ومن الإسكندرية ، وأنطاكية ، وديلوس ، وردوس يونان ويهود يحملون العدوى الهلينية ، عدوى التبحر فى العلم والفلسفة ، والفن ، والأدب ، والاستمتاع بالجمال واللذة ، والغناء ، والرقص ، والشراب ، والطعام ، والألعاب الرياضية ، والعشيقات ، والغلمان ؛ فضلا عن السفسطة المرحة ، التى ترتاب فى جميع القوانين الأخلاقية ، والتشكك الذى قضى على كل عقيدة فى خوارق الطبيعة . وهل يستطيع الشاب اليهودى أن يقاوم هــذه المغريات ، التى تدعوه إلى الاستمتاع باللذة وإلى التحرر من آلاف القيود الضيقة الثقيلة ؟ لقد بدأ الشبان اليهود الفكهون يسخرون من الكهنة ويصفونهم بأنهم طلاب مال ، كما يصفون الأتقياء من أتباعهم بأنهم حمقى ، ينحدرون إلى الشيخوخة من غير أن يعرفوا الملاذ والترف ومباهج الحياة . وانضم إليهم فى هذا أغنياء اليهود ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يستجيبوا لداعى الغواية . وأحس اليهود الذين كانوا يطلبون المناصب من الموظفين اليونان بأن من

حسن السياسة أن يتكلموا اللغة اليونانية ، وأن يعيشوا كما يعيش اليونان ، بل أن يقولوا بضع كلمات طيبة فى حق الآلهة اليونانية .

وكانت ثلاث قوى تحمي اليهود من هذا الهجوم القوى على عقلهم وحواسهم : هى ماوقع عليهم من الاضطهاد أيام أنتيوخوس الرابع ، وحماية رومة ، وسلطان القانون وهيبته لأنه كان فى اعتقاد اليهود وحيا منزلا من عند الله . وتجمع الأتقياء من اليهود ، كما تتجمع الكرات البيضاء فى الدم لحماية الجسم من جراثيم الأمراض ، وألفوا هيئة من الصفوة المختارة أطلقوا عليها اسم « المتقين » . وبدأت هذه الجماعة (حوالى عام ٣٠٠ ق . م) بعهد بسيط . قيدوا به أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب الخمر زمنا معينا ؛ ثم ذهبوا فيما بعد مدفوعين بسيكولوجية الحرب المحتومة إلى أبعد حدود التزمت ، فحرموا جميع الملاذ وعدوها استسلاما للشيطان واليونان . وعجب منهم اليونان أشد العجب وضموهم إلى زمرة الفلاسفة الزاهدين العرايا العجيبين الذين التقت بهم جيوش الإسكندر فى بلاد الهند . وحتى اليهودى العادى نفسه كان يعارض فى تزمت جماعة المتقين الشديد ويبحث لنفسه عن خطة وسطى بين التزمت والإباحية ، ولعله هو وأمثاله كان يستطيع أن يجد هذا الحل الوسط لولا أن أنتيوخوس إيفانيز حاول أن يقحم الهلنية فى بلاد اليهود بالإقناع تارة وبالسيف تارة أخرى .

وظلت بلاد اليهود تابعة لمصر حتى عام ١٩٨ حين هزم أنتيوخوس الثالث بطليموس الخامس وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية . وكان اليهود قد ملوا حكم المصريين فأعانوا أنتيوخوس ورحبوا باستيلائه على أورشليم وتحريرهم من حكامهم ؛ ولكن خلفه أنتيوخوس الرابع لم ير فى بلاد اليهود إلا أنها مصدر للإيراد ؛ وكان وقتئذ يستعد لحروب عوان تتطلب الكثير من الأموال ، فأمر اليهود أن يؤدوا إلى خزانة الدولة ثلث محصولاتهم من الحبوب ، ونصف ما تثمره أشجار الفاكهة(١٤) . ثم عين جيسن المعروف بتذلله وملقه حاخاماً

أكبر ؛ وتجاهل فى هذا التعيين ما جرت به العادة من توارث هذا المنصب الدينى . وكان جيسن هذا يمثل الحزب القائم فى أورشليم والذى ينادى بفرض الثقافة الهلنية على بلاد اليهود ، ويطلب الإذن بإقامة النظم اليونانية فى تلك البلاد . وأصغى أنتيوخوس إلى مطالبه وهو فرح مستبشر لأن اختلاف الطقوس الدينية الشرقية فى بلاد آسية اليونانية وقوة هذه الطقوس كانا يقلقان باله إذ كان يحلم بتوحيد إمبراطوريته المتعددة اللغات والأجناس بإخضاعها كلها لشريعة واحدة وعقيدة واحدة . ولما أن أبطأ جيسن فى العمل للوصول إلى هذه الغاية عين أنتيوخوس بدلا منه منلوس ، بعد أن وعده بأكثر مما وعده به سلفه ونفحه برشوة أكبر[١٥] . وتوحد يهوة وزيوس على يدى منلوس ، وبيعت آنية المعابد للحصول على المال ، وقربت بعض الجماعات اليهودية القرابين إلى الآلهة الهلنية . وافتتحت فى أورشليم مدرسة للرياضة البدنية ، واشترك شباب اليهود والكهنة أنفسهم وهم عراة فى الألعاب الرياضية . وبلغ من تحمس بعض شبان اليهود للهلنية أن تحملوا جراحات فى أجسامهم ليعالجوا بها بعض العيوب التى قد تكشف عن أصلهم[١٦] .

وارتاعت كثرة الشعب اليهودى من هذه التطورات وأحست أن دينها يكاد ينهار من أساسه ، فانحازت إلى آراء المتقين ؛ ولما أن طرد پوپليوس (١٦٥) أنتيوخوس الرابع من مصر ، شاع فى أورشليم أنه قتل ، فاغتبط اليهود بالنبأ ، وخلعوا الموظفين المعينين عليهم من قبله ، وقتلوا زعماء الحزب الذى كان يدعو إلى الثقافة الهلينية ، وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكراً أوكفراً . لكن أنتيوخوس لم يكن قد مات ، بل هزم وذل وأصبح فقيراً معدما ؛ وقد أيقن أن اليهود كانوا سبباً فى هزيمته فى مصر وأنهم كانوا يأتمرون ليعيدوا بلادهم إلى البطالمة[١٧] ، فعاد إلى أورشليم وذبح آلافا من اليهود رجالهم ونساءهم ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر مذبحه الذهبى وآنيته وكنوزه وضمها إلى الخزائن الملكية ، وأعاد إلى منلوس سلطته العليا ، وأمر أن يثقف اليهود كلهم

على الرغم منهم بالثقافة الهلينية (١٦٧) ، وأن يعود الهيكل كما كان ضريحا مقدساً لزيوس ، وأن يقام مذبح يونانى فوق المذبح القديم ، وأن يستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير . ثم حرم تقديس السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودى فى جميع أنحاء بلاد اليهود ، وألزم الأهلون باتباع المراسم اليونانية ، وعوقب من يخالف هذه الأوامر بالإعدام . وكان كل من يأبى من اليهود أن يأكل لحم الخنزير وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يسجن أو يقتل ، وأمر أن يحرق هذا الكتاب أنى وجد[١٨]. وأشعلت النار فى أورشليم نفسها ، وهدمت أسوارها ، وبيع سكانها اليهود فى أسواق الرقيق ، وجئ بالأجانب ليقيموا فى مواضعها ، وشيد حصن جديد على جبل صهيون ، ووضعت فيه حامية من الجند لتحكم المدينة باسم الملك[١٩] . ويبدو أن أنتيوخوس سعى فى بعض الأوقات لأن يجعل نفسه إلها ، وأنه طلب إلى الناس أن يتخذوه إلها يعبدونه[٢٠] .

وزاد الاضطهاد شدة على مر الزمن . ذلك أنه يوجد دائماً فى كل مجتمع أقلية فطرت على الابتهاج إذا أذن لها بالاضطهاد ، لأنها ترى فى هذا الاضطهاد انطلاقا من قيود الحضارة . وكان عملاء أنتيوخوس من هذه الأقلية ، فإنهم بعد أن قضوا على جميع مظاهر اليهودية فى أورشليم انطلقوا انطلاق اللهب يبحثون عن هذه المظاهر فى المدائن والقرى ؛ وكانوا أينما حلوا يخيرون الأهلين بين الموت والاشتراك فى العبادات الهلنية بما تتضمنه من أكل لحم الخنازير المذبوحة على النصب[٢١] . وأغلقت جميع الهياكل والمدارس اليهودية ، وعد جميع من يأبون الاشتغال فى يوم السبت عصاة خارجين على القانون . وأرغم اليهود فى عيد باخوس أن يزينوا باللبلاب كاليونان أنفسهم ، وأن يشتركوا فى المواكب ، وأن ينشدوا الأناشيد الهمجية تكريما لديونيش . وصدع الكثيرون من اليهود بما أمروا به ، وترقبوا أن تمر العاصفة ، وفر كثيرون غيرهم إلى

الكهوف أو المعاقل الجبلية النائية ، وعاشوا على ما يلتقطونه خلسة من الحقول ، وثبتوا على ممارسة أساليب الحياة اليهودية . وأخذ « المتقون » يطوفون بهم يدعونهم إلى الشجاعة والمقاومة . وعثرت شرذمة من جنود الملك على كهوف آوى إليها آلاف من اليهود — رجال ونساء وأطفال — فأمروهم بالخروج ؛ فلما عصوا أمر الجنود وأبوا كذلك أن يزيلوا ماعساه أن يكون فى مداخل الكهوف من الحجارة ، لأن اليوم كان يوم السبت ، أعمل فيهم الجنود النار والسيف ، وقتلوا كثيرين من اللاجئين ، واختنق الباقون بالدخان(٢٢) . وفى المدن قبض على النساء اللائى ختن من ولدن حديثا من الأطفال وألقين هن وأطفالهن من فوق الأسوار (٢٣) . وماكان أشد دهشة اليونان من استمساك الأهلين بدينهم القديم ، ذلك أنهم لم يروا من عدة قرون مثل هذا الإخلاص للرأى والاستمساك بالعقيدة . وكانت قصص الاستشهاد تتناقلها الألسن وتملأ بها الكتب ، فضربت للمسيحين أمثلة صادقة فى الاستشهاد والشهداء . وهكذا أضحت اليهودية دينا وقومية وثبتت قواعدها وتأصلت جذورها وآثرت العزلة لتحتمى بها من أعدائها .

وكان من بين اليهود الذين فروا وقتئذ من أورشليم متاثياس Mattathias من أسرة هزموناى Hasmoni من سبط هارون — وأبناؤه الخمسة يوحنان كاديس ، وسيمون ، ويوداس ، والزر ، ويوناثان . ولما أقبل أپليز عامل أنتيوخوس إلى مدينModin التى لجأ إليها هؤلاء الستة ، أمر أهلها أن يجحدوا « الشريعة » ويقربوا لزيوس . وجاء متاثياس الشيخ ومعه أبناؤه الخمسة وقال : « لو ان جميع سكان المملكة أطاعوا أمركم بالمروق من دين آبائهم لبقيت أنا وأولادى الخمسة مستمسكين بعهد آبائنا الأولين » . ولما ان اقترب أحد اليهود من المذبح ليقرب القربان المطلوب ذبحه متاثياس بيده وذبح أيضا مندوب الملك . ثم نادى فى الشعب قائلا : « من كان يغار على الشريعة ، وأراد

أن يؤيد العهد فليتبعني[٢٤] . فسار وراءه هو وأبنائه كثيرون من القرويين حتى وصلوا إلى جبل إفرايم . حيث انضمت إليهم جماعة صغيرة من الشبان الثائرين ومن كان باقيا على قيد الحياة من « المتقين » .

وبعد قليل من هذا الحادث توفى متاثياس بعد أن أوصى بأن يرأس أتباعه من بعده ابنه يوداس المعروف باسم مكابي[*]. وكان يوداس هذا رجل حرب أوتى من الشجاعة مثل ما أوتى من التقوى . وكان من عادته قبل أن يخوض أية معركة أن يصلى كما يصلى الأولياء المطهرون، حتى إذا خاض غمارها «كان كالأسد فى سورته » . وكان جيشه الصغير « يعيش فى الجبال كما تعيش الوحوش ، ويقتات بالأعشاب » . ثم ينقض من حين إلى حين على إحدى القرى المجاورة ويقتل المارقين ويهدم مذابح الوثنيين ؛ و« إذا وجدوا أطفالا لم يختتنوا أجروا لهم عملية الاختتان بشجاعة[٢٥] » . ونقلت هـــذه الأنباء إلى أنتيوخوس فسير عليهم جيشاً من السوريين اليونان وأمره أن يهدم حصن المكابيين . والتقى بهم يوداس فى ممر إموس Emmaus وانتصر عليهم نصراً مؤزرا (١٦٦) ، مع أن اليونان كانوا من الجنود المرتزقة المدربين أحسن تدريب والمسلحين أتم تسليح . بينا كانت فرقة يوداس يعوزها الكثير من السلاح والثياب . وسير أنتيوخوس عليهم قوة أخرى أكبر من القوة السابقة بلغ من ثقة قائدها بالنصر أن جاء معه بالنخاسين ليبتاعوا من كان ينتظر أسرهم من اليهود ، ووضع فى المدن لوحات بما يطلب فيهم من الأثمان[٢٦] . وهزم يوداس هذا الجيش فى مزپاح ، . وكانت الهزيمة حاسمة سقطت على إثرها أورشليم فى قبضته دون مقاومة ؛ فلما دخلها أخرج ماكان فى الهيكل من مذابح وزينات وثنية وطهره ودشنه من جديد . وأعاد الصلوات القديمة إلى سابق عهدها وسط مظاهر الابتهاج من اليهود العائدين المستمسكين بالدين[**] (١٦٤) .

(*) يفسر هذا اللفظ عادة « بالمطرقة » وإن كان هـــذا التفسير غير موثوق بصحته .

(**) لا تزال ذكرى هذا المولد الجديد من الأعياد التى يحتفل بها فى كل بيت يهودى تقريبا .

ولما تقدم ليسياس Lysias نائب الملك بجيش جديد ليسترد به العاصمة ، شاع بين الجند أن أنتيوخوس قد مات — وكانت هذه الشائعة صادقة فى هذه المرة (١٦٣) . وأراد ليسياس أن يكون حرا فى العمل فى غير هذا الميدان فعرض على اليهود أن يترك لهم حريتهم الدينية الكاملة إذا ما ألقوا السلاح ؛ فرضى بذلك «المتقون» ورفضه المكابيون ، وأعلن يوداس أن بلاد اليهود لا تأمن على نفسها من الاضطهاد إلا إذا نالت استقلالها السياسى والدينى جميعا . وسكر المكابيون بخمرة النصر فبدءوا هم أنفسهم يضطهدون أعداءهم ، وينتقمون من الحزب المشايع لليونان فى أورشليم وفى المدن المجاورة للحدود[٢٧] ، وفى عام ١٦١ هزم يوداس نكانور Nicanor عند أداسا Adasa وقوى نفسه بأن عقد حلفا مع رومة ، ولكنه قتل فى تلك السنة نفسها وهو يحارب جيشاً أقوى من جيشه عند إلاسا Elasa وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة عظيمة ولكنه قتل هو الآخر عند عكا (١٤٣) . ولم يبق بعدئذ من الإخوة الخمسة إلا سيمون ، وقد استطاع بمعونة رومة أن ينال من دمتريوس الثانى فى عام ١٤٢ اعترافا باستقلال بلاد اليهود . وعين سيمون بمرسوم شعبى حاخاما أكبر وقائدا عسكريا ، وإذ كان هذان المنصبان قد أصبحا وراثيين فى هذه الأسرة فقد أضحى هو مؤسس الأسرة المالكة الحزمونية Hasmonean ، وعدت أول سنى حكمه بداية التاريخ الجديد ، وصدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهودية الجديدة

الباب الخامس والعشرون

مصر والغرب

الفصل الأول

سجل الملوك

كانت أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها من نصيب أقدر قواده وأعظمهم حكمة . وقد برهن بطليموس بن لاجوس على ولائه العظيم للملك المتوفى — ولعله أراد أن يدعم سلطانه بهذا الولاء — بأن نقل جثته إلى منفيس وأمر أن تودع تابوتاً من الذهب(*) وجاء معه أيضا بتاييس Thais التي كانت عشيقة الإسكندر فى بعض الأوقات ، وتزوجها ورزق منها بولدين . وقد كان بطليموس هذا جنديا بسيطا ، صريحا ، خشن الطباع ، قادرا على الإحساس الكريم والتفكير الواقعي . وبينا كان غيره من ورثة ملك الإسكندر يقضون نصف حياتهم فى الحروب ، ويحلمون بأن تكون لكل منهم دون غيره السيادة على هذا الملك ، بذل بطليموس جهوده كلها فى تدعيم مركزه فى البلد الأجنبي الذى كان من نصيبه ، وفى ترقية زراعته وتجارته وصناعته . وأنشأ لذلك أسطولا عظيما وأمن مصر من الغزو البحرى كما أمنتها الطبيعة من الغزو البرى ، وجعلتها من هذه الناحية أمنع من عقاب الجو . وساعد رودس وعصب المدن المتحالفة على الاستقلال عن مقدونية ، ومن أجل هذا سمى «سوتر Soter» . ولم يلقب نفسه ملكا إلا بعد ثمانية عشر عاما من العمل الشاق دعم فى خلالها

(*) وقد أمر بطليموس فلدلفس أن ينقل التابوت إلى الإسكندرية ، وأذاب بطليموس هذا الذهب لينتفع به وعرض جثة الإسكندر فى تابوت من الزجاج .

حياة مملكته الجديدة من النواحي السياسية والاقتصادية ، وأقامها على نظام ثابت متين (٣٠٥) . وكانت نتيجة جهود خلفه أن بسطت مصر حكمها على قورينة ، وكريت ، وجزائر سكلديز ، وقبرص ، وعلى سوريا ، وفلسطين ، وفينيقية وساموس ، ولسبوس ، وسمثريس ، والهلسپنت . وقد وجد في شيخوخته متسعاً من الوقت يكتب فيه شروحاً وتعليقات صادقة صدقاً مدهشاً على حروبه ، وأن ينشئ حوالى عام ٢٩٠ دار العاديات والمكتبة اللتين قامت عليهما شهرة الإسكندرية . ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره وأحس بضعف الشيخوخة أجلس ابنه الثاني بطليموس فلدلفس مكانه على العرش وأسلمه زمام الحكم ، واتخذ مكانه كأحد الرعايا في بلاط الملك الشاب . ومات بعد عامين من ذلك الوقت .

وكان وادي النيل الخصيب وداله قد ملأا خزائن الملك بالمال . وحسبنا دليلا على هذا أن بطليموس الأول حين أراد أن يولم وليمة لأصدقائه اضطر إلى أن يقترض آنيتهم الفضية وطنافسهم ، أما بطليموس الثاني فقد أنفق في آخر حفلات تتويجه ما قيمته ٢,٥٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي[٢] . واعتنق الملك المصري الجديد فلسفة قورينة واعتزم أن يستمتع بكل ما تتيحه له الساعة التي هو فيها من لذة . فكان يتخم معدته بشهي الطعام ، وجرب كثيراً من العشيقات ، وأقصى عنه زوجته ، وتزوج آخر الأمر بأخته أرسينوئى[٣] Arsinoë . وحكمت الملكة الجديدة الإمبراطورية وصرفت شئونها الحربية بينا كان بطلميوس الثاني يحكم بين طهاته وعلماء بلاطه . وحذا حذو أبيه وزاد عليه بأن استقدم إلى الإسكندرية مشهوري الشعراء ، والعلماء ، والنقاد ، والمتبحرين في العلوم الطبيعية والفلسفة ، والفنانين ، واستضافهم عنده ؛ وزين عاصمته بالمباني الفخمة على الطراز اليوناني حتى صارت الإسكندرية في أثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الأبيض المتوسط الأدبية والعلمية ، وازدهرت آدابها ازدهاراً لم تر مثله مرة

أخرى . لكن فلدلفس لم يكن مع هذا كله سعيداً فى شيخوخته . فقد اشتد عليه داء النقرس ، وزادت متاعبه بازدياد ثروته وسلطانه . وأطل مرة من نافذة قصره فأبصر متسولا يرقد مستريحاً فى الشمس على كثبان الميناء الرملية ، فحسد الرجل على نعمته ، وقال متحسراً : « وا أسفاه ! ليتنى ولدت واحداً من هؤلاء(٤) ! » . وساوره خوف الموت ، فطلب إلى الكهنة المصريين أن يدلوه على إكسير الخلود السحرى(٥) .

ووسع المتحف والمكتبة وأنفق عليهما من المال ما جعل المؤرخين الذين جاءوا بعده يقولون إنه هو الذى أنشأهما . وكان دمتريوس فليرم قد لجأ إلى مصر فى عام ٣٠٧ بعد أن طرد من أثينة ، فإذا نحن نجده بعد عشر سنين من ذلك الوقت فى بلاط بطليموس الأول ؛ ويلوح أنه هو الذى أوحى إلى بطليموس سوتر أن عاصمة ملكه وأسرته تذيع شهرتهما إذا أنشأ متحفاً (أى بيتاً لربات الفنون والعلوم Muses(*)) يضارع جامعات أثينة . وأكبر الظن أن دمتريوس قد ألهم نشاط أرسطو فى جمع الكتب ، وضروب المعرفة ، وأنواع الحيوان ، والنبات ، ودساتير الحكم ، وتصنيف ما جمعه منها ، فأشار على ما يظهر بأن تقام طائفة من المبانى لا تتسع لإيواء مجموعة عظيمة من الكتب فحسب ، بل تتسع فوق ذلك لإيواء العلماء الذين يقضون حياتهم فى البحث العلمى . واقتنع بطليموس الأول والثانى بهذه الفكرة ، فأمداه بالمال ، وقامت الجامعة الجديدة على مهل بالقرب من القصور الملكية . وكانت تحتوى على ردهة عامة يلوح أن العلماء كانوا يتناولون فيها الطعام ، وقاعة للمحاضرات ، وبهواً ، ورواقاً ، وحديقة ، ومرصداً فلكياً ، والمكتبة الكبرى . وكان رئيس هذا المعهد كله من الناحية الرسمية كاهناً دينياً ، لأنه كان مخصصاً لإلهات الفن بوصفها

(*) هذا هو المعنى الحرفى للفظ Museum . (المترجم)

معبودات بحق . وكان يعيش فى المتحف أربع طوائف من العلماء : فلكيين ، وكتاب ، وعلماء فى الطبيعة ، وأطباء . وكان هؤلاء كلهم من اليونان ، وكانوا جميعاً يتقاضون مرتبات من الخزانة الملكية . ولم تكن مهمتهم أن يعلموا الطلاب ، بل أن يتوفروا على البحوث والدراسات وإجراء التجارب . ولما تضاعف عدد الطلاب فى المتحف فى العقود التالية ، قام أعضاؤه بإلقاء المحاضرات ، ولكنه بقى إلى آخر أيامه معهداً للدراسات الراقية أكثر مما كان جامعة للطلاب . ومبلغ علمنا أنه كان أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم الآداب والعلوم ؛ وكانت أهم ما أفاده تاريخ الحضارة من البطالمة ومن الإسكندرية .

ومات بطليموس فلدلفس عام ٢٤٦ بعد حكم طويل قام فيه بكثير من جلائل الأعمال . وكان بطليموس الثالث أورجيتيس Euergetes (المحسن) ملكا من طراز تحتمس الثالث يبغى فتح بلاد الشرق الأدنى . فبدأ بالاستيلاء على سرديس وبابل ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بلاد الهند ، وزعزع كيان الإمبراطورية السلوقية حتى انهارت حين مستها جيوش رومة . ولسنا نريد أن نتتبع حادثات حروبه ، لأنها ، وإن كانت فى تفاصيلها أشبه الأشياء بالرواية التمثيلية ، كانت فى أسبابها ونتائجها موحشة لا حد لوحشتها ؛ وإن تاريخ الحروب إذا قص أصبح تابعاً ذليلا لتقلبات القوة والسلطان تلغى فيها الانتصارات والهزائم بعضها بعضاً فتجعله تاريخاً أجوف لا قيمة له . وحسبنا أن نقول إن برنيس Berenice زوجة أورجيتيس الشابة عبرت عن شكرها لانتصاراته بأن وهبت خصلة من شعرها للآلهة ؛ وتغنى الشعراء بهذه القصة ، ورفع الفلكيون عقيرتهم بها إلى السماء فسموا إحدى المجموعات النجمية باسم كوما برنيسز Coma Berenices أى شعر برنيس .

وكان بطليموس الرابع فلوپاتر يحب أباه حباً حمله على أن يحذو حذوه فى

- حروبه وانتصاراته . ولكنه أحرز النصر على أنتيوخوس الثالث فى رافيا (٢١٧) باستخدام جيوش مصرية ، وكانت هذه أول مرة استخدم فيها البطالمة هؤلاء الجنود ، فلما أن تسلح المصريون على هذا النحو وشعروا بقوتهم بدأوا يقوضون سلطان اليونان فى وادى النيل . وانغمس ڤلوپاتر فى اللهو ، وقضى كثيراً من الوقت فى قارب نزهته ، وأدخل عيد البكاناليا فى مصر ، وكاد يقنع نفسه بأنه من نسل ديونيشس . وقد حدث فى عام ٢٠٥ أن قتلت عشيقته زوجته ، ولم يلبث ڤلوپاتر نفسه أن اختفى هو الآخر من التاريخ . وأعقبت موته فترة من الفوضى أوشك فيها فليب الخامس المقدونى وأنتيوخوس الثالث السلوقى أن يمزقا أوصال مصر ويضماها إلى بلادهما ، ولكن رومة التى عقد معها بطليموس الثانى معاهدة صداقة — تدخلت فى الأمر وهزمت فليب ، وأرغمت أنتيوخوس على أن يعجل بالعودة إلى بلاده وبسطت حمايتها على مصر (٢٠٥) .

الفصل الثانى

الاشتراكية فى عهد البطالمة

إن أهم ما يعنينا فى مصر البطالمة هو تجربتها الواسعة فى الاشتراكية الدولية . لقد كانت ملكية الأرض من زمن بعيد عادة مقدسة فى مصر ، وكان لفرعون، بوصفه ملكا وإلها ، حق كامل على الأرض وعلى كل ماتنتجه . ولم يكن الفلاح عبدا ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يترك مكانه إلا بإذن الحكومة ، وكان يطلب إليه أن يورد الجزء الأكبر من محصوله إلى الدولة[٦] . وأبقى البطالمة على هذا النظام ووسعوا نطاقه باستيلائهم على الأراضى الواسعة التى كانت فى عهد الأسر الحاكمة السابقة ملكا للأعيان المصريين أو للكهنة . وكانت هيئة بيروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين ، يؤيدها حراس مسلحون ، تدير شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة[٧] . وكان هؤلاء الموظفون يعينون لكل زارع تقريباً قطعة الأرض التى ينبغى له أن يزرعها ، والمحصولات التى يجب أن ينتجها ؛ وكان فى وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل فى المناجم، وإقامة المبانى العامة ، والصيد ، وشق قنوات الرى، وإنشاء الطرق . وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكومية ؛ ويدون الكتبة مقدارها ،وتدرس فى أجران الملك ، ويحملها الفلاحون أنفسهم إلى مخازن الملك[٨] . وكان يستثنى من هذا النظام بعض حالات : فقد كان البطالمة يجيزون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ، ويجيزون الملكية الخاصة فى الحواضر ، ويؤجرون قطعا من الأرض للجنود يكافئونهم بها على ما قدموا للدولة من خدمات . ولكن هذه الأراضى المستأجرة كانت مقصورة فى العادة على المساحات التى يوافق صاحبها على أن يخصصها للكروم ، أو البساتين ، أو أشجار الزيتون ؛ ولم يكن

يسمح له أن يورثها أبناءه أو أن يوصى بها لمن يشاء ؛ وكان للملك أن يلغى حق الإيجار متى أراد . ولما تحسنت حال هذه الأرض التى يشترك فى ملكيتها الفرد والدولة بفضل جهود اليونان ومهارتهم ، بدأ أصحابها يطالبون بأن يكون لهم حق توريثها أبناءهم . وكان العرف لا القانون يجيز هذا التوريث فى القرن الثانى ، ثم اعترف به القانون فى القرن الأول قبل الميلاد(٩) ، وتم بذلك التطور المألوف من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة .

وما من شك فى أن تطور هذا النظام الاشتراكى الحكومى، قد حدث لأن أحوال الزراعة فى مصر كانت تتطلب من التعاون ووحدة العمل فى الزمان والمكان أكثر مما تستطيع أن تهيئه الملكية الفردية ، وأن مقدار ما يزرع من الغلات ونوعها يقفان على مقدار الفيضان السنوى. وكفاية نظام الرى والصرف ، وهذه كلها مسائل تتطلب أن تشرف عليها هيئة مركزية . وقد عمل المهندسون اليونان الذين استخدمتهم الحكومة على تحسين الأساليب القديمة ، واستخدموا فى زراعة الأرض وسائل أكثر انطباقا على العلم وعلى الإنتاج الضيق الوفير ، فاستبدل بالشادوف « الناعورة » أو « الساقية » ، وهى عجلة كبيرة يبلغ طول قطرها أحيانا أربعين قدما تعلق عليها دلاء غير مشدودة على حافتها الخارجية(*) فإذا وصل الدلو إلى أعلى مكان فى العجلة أثناء دورتها مال على قضيب وأفرغ ما فيه من الماء فى حوض . وخير من هذه الآلة « لولب أركميديز(**) » ومضخة تسيبوس(†) وهما يرفعان الماء بسرعة لم تكن معروفة قبل عصر البطالمة ، وبفضل تركيز الإدارة الاقتصادية فى يد الحكومة ونظام السخرة أمكن إقامة المنشآت العامة للتحكم فى فيضان النيل ، وإنشاء الطرق ،

(*) فى الأصل الإنجليزى الداخلية ولكن ما أثبتناه هنا هو الصحيح ولا تزال هذه الآلة مستعملة فى ريف مصر إلى الآن . (المترجم)

(**) هذا هو المعروف عندنا بالطنبور .

(†) انظر الباب السابع والعشرين .

وشق قنوات الرى ، وتشييد المبانى ، وتمهيد السبيل للأعمال الهندسية الكبرى التى تمت فى أيام الحكم الرومانى . وقد جفف بطليموس الثانى بحيرة موريس وحول قاعها إلى مساحة واسعة من الأرض الخصبة وزعها على جنوده ، وشرع فى عام ٢٥٨ يعيد فتح القناة التى تصل النيل بالقرب من عين شمس بالبحر الأحمر قرب السويس(١١) . وكان نخاو ودارا قد حفرا هذه القناة من قبل ، ولكن الرمال فى كلتا الحالين طمرتها ، كما طمرت قناة بطليموس بعد مائة عام من شقها .

وسارت الصناعة وسط ظروف مماثلة لهذه الظروف ، فلم تكن الحكومة تمتلك المناجم فحسب ، بل كانت تديرها بنفسها أوتستولى على مايخرج من المعادن(١٢) . واستغل البطالمة رواسب الذهب الغنية فى بلاد النوبة ، وكانت لهم عملة ذهبية مستقرة ؛ وكانوا يسيطرون على مناجم النحاس فى قبرص وطور سيناء ، ويحتكرون صناعة الزيت — ولم يكونوا يستخرجونه من الأرض ، بل كانوا يعصرونه من النبات كبذور الكتان وحب الملوك (الكروتن) ، والسمسم ؛ وكانت الحكومة تحدد فى كل عام مقدار ما يزرع من الأرض بهذه النباتات ، وتستولى على المحصول بالثمن الذى تحدده له ؛ وتعصر الزيت فى مصانع تمتلكها الدولة بعصّارات من كتل الخشب الضخمة يحركها أقنان الأرض ، ثم تبيع الزيت إلى تجار التجزئة بالثمن الذى تريده هى ، وتمنع المنافسة الأجنبية بالضرائب الجمركية العالية ؛ وكانت أرباحها من هذه العملية تتراوح بين سبعين وثلثمائة فى المائة(١٣) . ويلوح أن الحكومة كانت تجنى أرباحاً مماثلة لهذا الربح من الملح ، والنطرون (كربونات الصودا المستخدمة فى صنع الصابون) ، والبخور ، والبردى ، والمنسوجات. وكانت فى البلاد مصانع للنسيج يمتلكها الأفراد ، ولكنها كانت تضطر إلى بيع كل ما تنتجه إلى الحكومة(١٤) . أما الصناعات الصغرى فقد تركت للأفراد ، وكانت الدولة تكتفى بالتصريح بها

ومراقبتها ، وابتياع جزء كبير من منتجاتها بالثمن الذى تحدده لها ، وفرض ضريبة طيبة على أرباحها تجبي لخزانتها . وكانت الصناعات اليدوية تقوم بها هيئات من العمال يتوارث أعضاؤها صناعاتهم بحكم التقاليد المرعية ، وكانوا بحكم هذه التقاليد نفسها مرتبطين بقراهم وبمنازلهم أيضاً[١٥] . وكانت الصناعة متقدمة ، فكانت العربات ، وقطع الأثاث ، والفخار ، والأبسطة ، ومواد التجميل تصنع بكميات كبيرة ؛ وكان صنع الزجاج ونسج التيل من الصناعات التى اختصت بها الإسكندرية . وكانت الاختراعات أكثر تقدماً فى مصر فى عصر البطالمة منها فى أى عصر آخر قبل رومة الإمبراطورية . وكانت الأدوات اللولبية والتروس ، وطارات السيور ، والضاغطات اللولبية ، كانت هذه كلها معروفة مستعملة[١٦] ؛ وتقدمت كيمياء الصباغة إلى حد استطاعوا معه أن يعالجوا الأقمشة بالقواعد الكيميائية المختلفة بحيث إذا غمر القماش فى صبغة واحدة نتج عن ذلك عدد من الألوان الثابتة[١٧] . وكانت مصانع الإسكندرية يديرها العبيد عادة ، وكانت نفقاتهم القليلة تمكن البطالمة من أن يبيعوا منتجاتها فى الأسواق الأجنبية بأقل مما تباع به المصنوعات اليدوية اليونانية[١٨] .

وكانت الحكومة تشرف على التجارة بأجمعها وتنظم شئونها . فكان بائعو الأشتات عادة وكلاء معينين من قبـــل الدولة لتوزيع بضائع الدولة[١٩] ، وكانت الدولة تمتلك جميع طرق القوافل والطرق المائية . وقد أدخل بطليموس الثانى الجمل فى مصر وأقام مخفراً من راكبي الجمال فى جنوب القطر ؛ يتولى نقل المخابرات الحكومية دون غيرها ؛ ولكن هذه المخابرات كانت تشمل الرسائل التجارية كلها تقريباً . وكان نهر النيل غاصاً بسفن الركاب والبضائع ، ويبدو أن هذه السفن كانت ملكا للأفراد وخاضعة لأنظمة الدولة[٢٠] . وقد أنشأ البطالمة لتجارة البحر الأبيض المتوسط أعظم أسطول تجارى فى ذلك الوقت ، وكانت حمولة السفينة الواحدة من سفنه تبلغ ثلثمائة طن[٢١] . وكانت مخازن

الإسكندرية تستهوى التجارة العالمية ، وكان مرفأها المزدوج مما تحسدها عليه سائر المدن ، كما كانت منارتها من عجائب الدنيا السبع (*) . وكانت حقول مصر ومصانعها كبيرة وصغيرة تنتج قدراً كبيراً من الغلات الزائدة على حاجة البلاد تباع فى الأسواق النائية التى تصل إلى الصين شرقاً ، وإلى أواسط إفريقية جنوباً ، وإلى الروسيا والجزائر البريطانية شمالا . وقد سار الروادا لمصريون جنوباً حتى بلغوا زنجبار وبلاد السومال ونقلوا إلى العالم أخبار سكان الكهوف الذين يعيشون على سواحل إفريقية الشرقية ويقتاتون بالأطعمة البحرية ، والنعام ، والجزر ، وجذور النبات[٢٤] . واستطاعت السفن المصرية أن تقضى على سيطرة العرب على تجارة الهند مع بلاد الشرق الأدنى بسيرها من النيل إلى الهند مباشرة ، وأضحت الإسكندرية بتشجيع البطالمة وحكمتهم أهم الثغور التى يعاد منها شحن البضائع المرسلة إلى أسواق بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وكان مما زاد فى سرعة نماء التجارة والصناعة وازدهارهما ماقدمته المصارف المالية من تسهيلات عظيمة . لقد بقى فى مصر حتى ذلك الوقت قدر من المقايضة ورثته البلاد من العهود القديمة : وكانت الحبوب المحفوظة فى المخازن الملكية بمثابة رصيد احتياطى للمصارف ؛ ولكن إيداع الحبوب وسحبها ، وتحويلها من يد إلى يد كان فى الاستطالة إتمامها على الورق بدل إجراء هذه العمليات

(*) ويقول ستراتس النيدى Sostratus of Cnidus إن الذى أقامها هو بطليموس الثانى وإنه أنفق فى تشييدها ثمانمائة وزنة (نحو ٠٠٠ر٤٠٠ر٢ ريال أمريكى[٢٢]) . وكانت تعلو بدرج متراجعة إلى ارتفاع أربعمائة قدم ، ويغطيها الرخام الأبيض وتزينها تماثيل من الرخام والبرنز . وقد وضع فوق القبة المقامة على الأعمدة والتى كانت تحمل الضوء تمثال لپسيدن يبلغ ارتفاعه إحدى وعشرين قدما . وكان هذا الضوء ينبعث من نار وقودها خشب راتنجى ؛ والراجح أن مرايا محدبة كانت تعكسه بحيث يرى على بعد ثمانية وثلاثين ميلا[٢٣] وقد تم بناء المنارة فى عام ٢٧٩ ق . م وهدمت فى القرن الثالث عشر الميلادى . ومحل جزيرة فاروس التى كانت مقامة عليها هو الآن حى رأس التين بالإسكندرية . أما موضع المنارة نفسه فقد غمره ماء البحر .

بالفعل[٢٥] . وقد قام إلى جانب هذه المقايضة المعدلة نظام اقتصادى نقدى معقد . وكانت الحكومة تحتكر لنفسها إنشاء المصارف ، ولكن كان فى وسعها أن تنيب عنها فى أعمالها شركات خاصة[٢٦] . وكانت الحسابات تدفع بتحاويل مما لأصحابها فى المصارف من أرصدة ؛ وكانت المصارف تقرض المال بالربا ، وتسدد حسابات الخزائن الملكية . وقصارى القول أننا لانعرف فى التاريخ كله عهداً بلغت فيه الزراعة ، والصناعة والتجارة ، والمالية ، ما بلغته كلها فى هذا العهد من ثراء ، ووحدة ، ونماء خال من العاطفة الإنسانية .

وكان المشرفون على هذا النظام ومنفذوه هم اليونان الأحرار المقيمون فى العاصمة . وكان على رأسهم كلهم فرعون — الملك — الإله . وكان بطليموس فى نظر سكان بلاد اليونان منقذاً Soter ، أو محسناً Euergetes بحق ، فقد وهبهم مائة ألف منصب حكومى وأتاح لهم فرصا اقتصادية لا حد لها ، ويسر لهم سبل الحياة العقلية تيسيراً لا عهد لهم به من قبل ، وأوجد لهم بلاطا كان مصدر الحياة الاجتماعية المترفة ومركزها . ولم يكن الملك نفسه ملكا مستبداً لا يسأل عما يفعل ؛ فقد اجتمعت التقاليد المصرية والشرائع اليونانية على إقامة نظام تشريعى أخذت بعضه عن القانون الأثينى وحسنت فيه من جميع نواحيه ما عدا ناحية الحرية . وكان لأوامر الملك قوة القانون بأكملها ؛ ولكن المدن كانت تستمتع بقسط كبير من الحكم الذاتى . وكانت الجماعات المصرية ، واليونانية ، واليهودية ، تخضع كل منها لشرائعها الخاصة ، وتختار قضاتها . وتحاكم أمام محاكمها[٢٧] . وفى تورين بردية سجلت فيها إحدى قضايا الإسكندرية . وقد حدد فيها موضوع النزاع تحديداً دقيقاً ، وعرضت فيها الأدلة بعناية فائقة ، ولخصت السوابق ، ثم صدر الحكم بالنزاهة المطلوبة من القضاة . وثمة برديات أخرى سجلت فيها وصايا أهل الإسكندرية ، وهى تزيح الستار عن قدم الصيغ

والعبارات القانونية : « هذه هي وصية بيزياس Peisias اللوشياني ابن س ، الكامل العقل ، الحر الاختيار[٢٨] » .

وكانت حكومة البطالمة أقدر الحكومات وأحسنها نظاما فى العالم الهلنستى . وقد أخذت شكلها القومى المركزى عن مصر وفارس، واستقلال مدنها بشئونها الخاصة عن بلاد اليونان ، ثم أخذتهما عنها رومة . وقد قسمت البلاد إلى أقاليم، يدير كلاً منها موظفون يعينهم الملك، وكانوا كلهم تقريبا من اليونان . وقد أغفل البطالمة ما كان يعتزمه الإسكندر من جعل اليونان والشرقيين أو المصريين يعيشون ويختلطون على قدم المساواة بعد أن تبين لهم أن هذه الفكرة غير اقتصادية ، وأصبح وادى النيل فى ظاهر الأمر وباطنه يحكم كما تحكم البلاد المفتوحة ، فقد أدخل المشرفون اليونان على حياة مصر الاقتصادية كثيراً من الرقى فى النواحى الفنية والإدارية ، وزادوا ثروة البلاد من الناحية الاقتصادية ، ولكنهم استولوا على ما زاد من هذه الثروة . ورفعت الدولة أثمان الغلات التى كانت تسيطر عليها ، ومنعت المنافسة الأجنبية بفرض الضرائب الجمركية العالية ، فكان ما يباع من زيت الزيتون بإحدى وعشرين درخمة فى ديلوس يباع باثنتين وخمسين فى الإسكندرية . وكانت الحكومة فى كل مكان فى البلاد تجبى الضرائب وإيجار الأرض ، والرسوم الجمركية ، وعوائد المرور على الطرق ، وتستولى من الناس أحيانا على جهودهم وحياتهم نفسها . وكان الفلاح يؤدى للدولة أجرا على امتلاك الماشية ، وعلى ما يقدمه لها من علف ، وعلى الإذن له برعيها فى أرض الكلأ العامة . وكان ملاك الحدائق ، والكروم ، والبساتين ، من الأفراد يؤدون للدولة سدس منتجاتها (وفى أيام بطليموس الثانى نصف هذه المنتجات)[٢٩] . وكان الأهلون كلهم ، ما عدا الجنود ، ورجال الدين ، وموظفى الحكومة ، يؤدون فرضة الرؤوس. وكانت الضرائب مفروضة على الملح ، والمحررات الرسمية ، والمواريث . وكانت تفرض على الإيجارات ضريبة قدرها خمسة فى المائة منها ، وعلى المبيعات عشرة

فى المائة من أثمانها ، وخمسة وعشرون فى المائة على الأسماك المصيدة فى المياه المصرية ، وعوائد على البضائع التى تنقل من القرى أو المدن أو تنقل بطريق النيل . وكانت رسوم عالية تفرض فى الثغور المصرية على جميع الصادرات والواردات ؛ وكانت ضرائب خاصة تفرض للإنفاق على الأسطول والمنارة البحرية ، وللترفيه عن أطباء البلديات ورجال الشرطة ، ولشراء تاج من الذهب لكل ملك جديد[٣٠] . وقصارى القول أن الدولة لم تكن تترك شيئاً يسمنها إلا فرضت عليه ضريبة . وقد احتفظت الدولة بجيش من الكتبة، وبنظام واسع من التسجيل للأشخاص والأملاك ، لتستطيع بهما إحصاء جميع الحاصلات والإيرادات والعمليات المالية والتجارية التى يصح فرض الضرائب عليها . أما جباية هذه الضرائب فقد كانت تعهد إلى جماعة من الإخصائيين ، تراقب هى أعمالهم ، وتجعل أملاكهم ضمانا تحت يدها حتى يؤدوا لها حقها . والراجح أن مجموع إيرادات البطالمة نقدا وعينا كان أكبر ما جمعته دولة من الدول فى الفترة المحصورة بين سقوط دولة الفرس وعظمة رومة .

الفصل الثالث

الإسكندرية

وكان الجزء الأكبر من هذه الثروة يرد إلى الإسكندرية ، وكانت عواصم الأقاليم وقلة من المدن الأخرى تستمتع أيضا بالرخاء ، فكانت أرضها مرصوفة وشوارعها مضاءة ، وكانت لها شرطة تحمى أهلها ، وكانت تمد بالماء النقى ؛ ولكن الإسكندرية بنوع خاص كانت تستمتع بنظام « حديث » لم يعهد له مثيل من قبل ، ويصفها استرابون فى القرن الأول بعد الميلاد فيقول إنها كانت تبلغ أكثر من ثلاثة أميال فى الطول وميلا فى العرض ؛ ويقدر بلنى طول أسوارها بخمسة عشر ميلا(٢١). وقد اختط المدينة دنقراطس المهندس الرودسى ، وستراتس النيدى على شكل مستطيل فى وسطه شارع رئيسى يبلغ عرضه مائة قدم يخترقها من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه شارع آخر فى مثل عرضه من الجنوب إلى الشمال . وكان هذان الشارعان الرئيسيان ، وأكبر الظن أن شوارع غيرهما ، يضاءان ليلا وتظللهما أثناء النهار أميال من العمد . وكان الشريانان الرئيسيان السابق ذكرهما يقسمان المدينة أربعة أحياء ، أبعدها نحو الغرب حى ركوتس Rhacotis وكانت كثرة سكانه من المصريين ؛ وكان الحى الشمالى الشرقى حى اليهود ، والجنوبى الشرقى أو البركيوم Brucheum يحتوى على القصر الملكى ، والمتحف والمكتبة ، ومقابر البطالمة ، وضريح الإسكندر ، ودار الصنعة البحرية ، وأهم الهياكل اليونانية ، وكثير من الحدائق الفسيحة . وكان لإحدى هذه الحدائق مدخل تبلغ مساحته ستمائة ق. م. وكانت حديقة أخرى تحتوى على مجموعة الحيوانات الملكية . وكان فى وسط المدينة مبانى الإدارات والمخازن الحكومية ، والمحكمة ، ومدرسة الألعاب الرياضية ، وألف حانوت وسوق .

وكان فى خارج الأبواب الكبرى ملعب رياضى ، وميدان للسباق ، ومدرج ، ومقبرة عظيمة تعرف بمدينة الموتى (Necropolis)[٢٣] . وكانت تمتد على طول شاطئ البحر مقاصير للاستحمام والاصطياف . وكان يصل المدينة بجزيرة فاروس جسر أو حاجز يسمى الهپتستديوم Heptastadium لأن طوله كان يبلغ سبعة استديومات(*)، وكان المرفأ مرفأين . وكانت تقع خلف المدينة بحيرة مريوط ، وتستخدم مرافئ ومخارج للسفن النيلية . وفى هذه البحيرة كان البطالمة يحتفظون بقوارب التنزه ، ويقضون ساعات الراحة من عناء الأعمال(**) .

وكان سكان الإسكندرية فى عام ٢٠٠ ق . م خليطا من أجناس مختلفة كما هى حال سكان العواصم فى هذه الأيام . وكانت عدتهم تتراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف من المقدونيين ، واليونان ، والمصريين ، واليهود ، والفرس ، وأهل الأناضول ، والعرب ، والزنوج (+)[٢٣] . وزاد انتشار التجارة عدد أفراد الطبقة الوسطى — الدنيا وملأ العاصمة المختلطة السكان بطائفة نشيطة ، وثرثارة ، متشاحنة من أصحاب الحوانيت والتجار ، لا تغفل لهم عين عن اقتناص أية فرصة لعقد الصفقات التجارية غير مراعين فى ذلك شرفا أو أمانة . وكان على رأس هذه الطوائف السالفة الذكر المقدونيون واليونان ، يعيشون عيشة بلغت من الترف حدا أدهش السفراء الرومان الذين عينوا فى بلاط ملوك مصر عام ٢٧٣ . ويذكر أثنيوس أصناف الأطعمة الشهية التى كانت تثقل موائد هؤلاء السادة ومعداتهم[٢٤] ،

(*) الاستديوم مقياس يونانى يبلغ طوله ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدم إنجليزية .

(**) ولا يكاد يوجد الآن من الإسكندرية القديمة إلا عدد قليل من سراديب الموتى والأعمدة . وإذا كانت آثار هذه المدينة تحت الإسكندرية الحالية مباشرة ، فإن أعمال الحفر للكشف عنها تكون عظيمة النفقة . وأكبر الظن أن هـذه الآثار قد هبطت إلى ما تحت مستوى ماء البحر ، ولا شك أن البحر الأبيض المتوسط قد غمر أجزاء من المدينة القديمة .

(+) وكان عدد سكان الإسكندرية فى عام ١٩٢٧ هو ٥٧٠،٠٠٠ .

ويقول عنهم هروداس Herodas إن « الإسكندرية هي بيت أفروديتي ، وإن الإنسان ليجد فيها كل شيء — ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة ، ومعادن ثمينة ، وشبانا ظرفاء ، وبيتا ملكيا طيبا ، ومجمعا للعلوم ، وخمرا لذيذة ، ونساء حسانا »[٣٥] . وكان شعراء الإسكندرية قد أخذوا يكشفون ما للعذارى من قيمة أدبية ، وسرعان ما جعلهن كتابها القصصيون موضوعا لكثير من قصصهم ، كما جعلوا سقوطهن خاتمة تنتهي بها هذه القصص . غير أن المدينة قد اشتهرت في ذلك الوقت بسماحة نسائها وبكثرة ما فيها من فتيات المتعة ، حتى لقد شكا پوليبوس من أن أجمل البيوت الخاصة في الإسكندرية تمتلكها العاهرات[٣٦] . وكانت النساء من مختلف الطبقات يسرن بكامل حريتهن في الشوارع ، ويبتعن حوائجهن من الحوانيت ، ويختلطن بالرجال . وكان منهن أديبات وعالمات مشهورات[٣٧] . وكانت الملكات المقدونيات وسيدات بلاطهن من أرسينوي زوجة بطليموس الثاني إلى كليوبطرة يقمن بدور هام في الشئون السياسية ، ويقترفن جرائمهن خدمة للأغراض السياسية لا للحب ، ولكنهن قد احتفظن بما يكفي من الجمال والفتنة لإثارة الرجال لأعمال من الشهامة والبطولة لا مثيل لها من قبل ، في عالم الشعر والنثر على الأقل إن لم يكن في واقع الأمر ، وقد أدخلن في مجتمعات الإسكندرية عنصراً من الظرف والرشاقة النسوية لم يكن معروفاً في بلاد اليونان أيام مجدها .

والراجح أن نحو خمس سكان الإسكندرية كان وقتئذ من اليهود . ولقد كان في مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد مواطن للعبرانيين ، ثم قدم إليها كثيرون من تجار اليهود في أعقاب الفتح الفارسي . وكان الإسكندر قد حثهم على الهجرة إليها وعرض عليهم ، كما يقول يوسفوس ، أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية[٣٨] . وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على أورشليم بآلاف من الأسرى اليهود الذين أطلق خلفه سراحهم[٣٩] ، ثم دعا

فى الوقت نفسه كثيراً من أثرياء العبرانيين إلى الإقامة فيها ومزاولة الأعمال التجارية والمالية(٤٠) . ولم يكد يستهل القرن الأول الميلادى حتى بلغ عدد اليهود فى مصر مليوناً من الأنفس(٤١) ، يعيش عدد كبير منهم فى الحى اليهودى من العاصمة . لكنهم لم يكونوا مرغمين على الإقامة فى هذا الحى ، بل كان لهم مطلق الحرية فى الإقامة فى أى حى من أحيائها عدا البروكيوم Brucheum الذى كان مقصوراً على أسر الموظفين ومن يخدمونهم . وكانوا يختارون لأنفسهم مجالس كبرائهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، وقد أقام أنياس Anias حاخامهم الأكبر فى عام ١٦٩ هيكلا عظيما فى لبونتپوليس Leontopolis إحدى ضواحى الإسكندرية ، وخصص صديقه بطليموس السادس إيراد عين شمس للإنفاق على هذا الهيكل . وكان هذا الهيكل وأمثاله مدارس وأمكنة اجتماع كما كانت معابد دينية ، ومن ثم أطلق عليها من يتكلمون اللغة اليونانية من اليهود اسم سيناجوجاى أى أمكنة الاجتماع . وإذ لم يكن فى مصر من بين اليهود المصريين بعد الجيل الثانى أو الثالث إلا أقلية ضئيلة تعرف اللغة العبرية ، فإن قراءة الشريعة كان يتلوها شرح لها باللغة اليونانية ، ومن هذه الشروح والتطبيقات نشأت عادة قراءة المواعظ من نصوص مكتوبة ، كما نشأت من هذه الشعيرة الدينية أولى أشكال القداس الكاثوليكى(٤٢) .

ونشأت من هذه الفوارق الدينية والعنصرية مضافة إلى المنافسات الاقتصادية حركة مناهضة للسامية فى أواخر ذلك العصر . ذلك أن المصريين واليونان قد اعتادوا جميعا وحدة الدين والدولة ، ولم يكن يرضيهم استقلال اليهود الثقافى عن سائر أهل البلاد . يضاف إلى هذا أن منافسة الصانع ورجل الأعمال اليهودى كانت ثقيلة الوطأة عليهم ، ولم يكونوا يطيقون نشاطه وصبره وحذقه ؛ ولما أن أخذت رومة تستورد الحبوب من مصر كان تجار الإسكندرية اليهود هم الذين ينقلون هذه البضاعة فى أساطيلهم(٤٣) . وأدرك اليونان عجزهم عن صبغ

اليهود بالصبغة الإغريقية ، فأوجسوا خيفة على مستقبلهم فى دولة تستمسك الكثرة الغالبة من أهلها بشرقيتها وتتكاثر بسرعة كبيرة . ونسى اليونان تشريع پركليز ، فأخذوا يشكون من أن الشريعة اليهودية تحرم التزاوج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، ومن أن معظم اليهود لايختلطون بغيرهم . وكثرت الكتب والرسائل المناهضة للسامية ، ونشر مانيثون المؤرخ المصرى القصة القائلة بأن اليهود قد أخرجوا من مصر من عدة قرون لأنهم أصيبوا بداء الخنازير أو الجذام[٤٣] ، واشتدت الأحقاد من كلا الجانبين حتى أدت فى القرن الأول الميلادى إلى أعمال العنف المخربة .

وبذل اليهود غاية جهدهم لتخفيف حدة الغضب من عزلتهم الاجتماعية ونجاحهم فى أعمالهم المالية والتجارية ، فأخذوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وإن ظلوا متمسكين بدينهم ، كما أخذوا يدرسون الآداب اليونانية ويكتبون فيها ، ويترجمون كتبهم المقدسة وتواريخهم إلى اللغة اليونانية . ثم سعوا إلى تعريف اليونان بالتقاليد الدينية اليهودية وتمكين اليهودى الذى لايعرف العبرية من قراءة كتبه المقدسة ، فقامت طائفة من علماء اليهود بالإسكندرية فى عهد بطليموس الثانى على الأرجح ، تترجم التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية . وسر الملوك من ذلك العمل لأنهم كانوا يرجون أن تؤدى هذه الحركة إلى جعل يهود مصر أكثر استقلالا عن أورشليم مما كانوا حتى ذلك الوقت ، وأن يقل تسرب الأموال اليهوديه — المصرية إلى فلسطين . وتقص إحدى القصص الخرافية كيف دعا بطليموس فلدلفس ، عملا بمشورة دمتريوس الفاليرى ، سبعين عالما من علماء اليهود إلى المجىء من بلادهم فى فلسطين فى سنة ٢٥٠ ، وكلفهم بترجمة كتبهم المقدسة ، وكيف أسكن الملك كل واحد من هؤلاء العلماء فى حجرة خاصة بجزيرة فاروس ، ولم يسمح له بالاتصال بأحد من الناس حتى فرغ كل منهم من ترجمة أسفار موسى الخمسة ؛ فلما فرغ السبعون من ترجماتهم وجدها تتفق

بعضها مع بعض فى كل كلمة ، فدل ذلك على أن هذه النصوص موحى بها من عند الله ، وأن المترجمين أنفسهم قد أوحيت الترجمة إليهم ، وكيف نفح الملك هؤلاء العلماء بعطايا قيمة من الذهب . وتروى القصة فى نهايتها أن الترجمة اليونانية للتوراة العبرية قد عرفت لهذا السبب باسم — الشروح عن السبعين hermeneia keata tous hebdomebkonta وباللاتينية (seniorum) Interpretaio Selpuaginta أو فى كلمة واحدة Septuagint[*] » [44] وأياً كانت طريقة الترجمة فيبدو أن أسفار موسى الخمسة قد ظهرت باللغة اليونانية قبل نهاية القرن الثالث ، وأن كتب الأنبياء قد ظهرت بهذه اللغة فى القرن الثانى ؛ وهذا هو الكتاب المقدس الذى استعان به فيلو وبولس الرسول .

وأخفقت عملية الأغرقة فى مصر إخفاقا تاما مع المصريين واليهود على السواء ؛ وكان سبب هذا الإخفاق أن المصريين فى خارج الإسكندرية عضوا بالنواجذ على دينهم ، وعلى لباسهم أوعريهم ، وعلى أساليبهم التى ورثوها من أقدم الأزمنة . يضاف إلى هذا أن اليونان كانوا يرون أنهم فاتحون وليسوا كغيرهم من الخلق ؛ ولم يهتموا بإقامة مدن يونانية جنوب الوجه البحرى أو يتعلم لغة المصريين ، كما أن قوانينهم لم تكن تعترف بالزواج بين المصريين واليونان . وقد حاول بطليموس الأول أن يوحد الدينين اليونانى والمصرى بقوله إن سرابس وزيوس إله واحد ؛ وشجع من جاء بعده من البطالمة أهل البلاد على أن يتخذوهم آلهة يعبدونها لكى يقدموا بذلك للأهلين المختلفى الأجناس معبودا مشتركا لايلقون صعوبة فى عبادته . ولكن المصريين الذين لم تكن لهم مطامع فى المناصب العامة لم يلقوا بالا لهذه العبادات المصطنعة . وأما الكهنة

(*) وهذه القصة مرجعها خطاب يقال إنه بخط كاتب يدعى أرستياس Aristeas عاش فى القرن الأول الميلادى . وقد أثبت هودى الأكسفردى Hody of Oxford فى ١٦٨٤ أن هذا الخطاب مزور[45] .

المصريون الذين جردوا من ثروتهم وسلطتهم ، والذين كانوا يعيشون من الأموال التى تمنحهم إياها الدولة ، فقد ظلوا صابرين ينتظرون انحسار هذه الموجة اليونانية . ولم تكن الغلبة فى الإسكندرية آخر الأمر للصبغة اليونانية ، بل كانت للنزعة الصوفية . ووضعت فى ذلك الوقت أسس الأفلاطونية الحديدة وذلك الخليط من الطقوس المليئة بالأمانى ، والتى كانت تتنازع فيما بينها للاستحواذ على نفوس أهل الإسكندرية فى القرون التى أحاطت بميلاد المسيح . وأضحى أوزريس فى صورة سرابس الإله المحبب للمصريين فى ذلك العهد المتأخر من تاريخهم ، وللكثيرين من اليونان المصريين ، واستعادت إيزيس مكانتها بوصفها إلهة النساء والأمومة ؛ ولما دخلت المسيحية البلاد لم يجد الكهنة أو الشعب ما يحول بينهم وبين استبدال مريم بإيزيس أو المسيح بسرابيس .

الفصل الرابع

الفتنـــة

إن الدرس الذى نستفيده من نظام البطالمة الاشتراكى هو أن الحكومة نفسها قد تستغل الناس . ثم إن هذا النظام قد سار مستقيما إلى حد معقول فى أيام بطليموس الأول والثانى ، فقد تمت فى عهدهما مشروعات هندسية عظيمة ، وتقدمت الزراعة ، ونظمت عمليات البيع والشراء ، ولم يفرط مفتشو الحكومة فى الظلم والمحاباة ؛ ومع أن استغلال الحكومة للمواد والرجال كان استغلالا كاملا لا هوادة فيه فإن الجزء الأكبر مما عاد عليها من هذا الاستغلال قد استخدم فى تزيين البلاد وفى إمداد الحياة الثقافية بما يلزمها من المال . ولكن البطالمة شنوا الحروب وأنفقوا مقدارا متزايدا من مكاسب الشعب على الجيوش والأساطيل والوقائع الحربية ، وتدهورت طباع الملوك تدهوراً سريعاً بعد فلدلفس ؛ فقد انهمكوا فى ملاذ الأكل والطعام والنساء وتركوا أزمة الحكم فى أيدى السفلة الذين ابتزوا كل درهم من الفقراء ، ولم ينس المصريون قط أن هؤلاء المستغلين كانوا من الأجانب ، ولم يغب ذلك عن عقول الكهنة الذين كانوا يحلمون بالحياة المترفة التى كانوا يستمتعون بها قبل سيادة الفرس واليونان .

وكان أهم ما يفهمه البطالمة من الاشتراكية أنها نظام للإنتاج الكثير لا للتوزيع الواسع النطاق . فقد كان الفلاح ينال من محصوله ما يكفى لحفظ حياته ، ولكنه لايكفى لتشجيعه على عمله أو إعانته على تربية أسرته . وزاد مقدار ما تنزعه الحكومة منه جيلا بعد جيل . ولم يعد الناس يطيقون سيطرة الدولة على كل صغيرة وكبيرة كما لايطيق الأبناء متى كبروا الرقابة الدائمة التى يفرضها الأب المستبد عليهم . وكانت الدولة تقرض الفلاح البذور ليزرع بها

أرضه ولكنها كانت تقيده بالبقاء فى الأرض حتى يجنى المحصول ، ولم يكن فى وسع أى فلاح أن ينتفع بأى قدر من محصوله إلا بعد أن يؤدى ما عليه للدولة من التزامات وديون . ولقد كان هذا الفلاح صبورا بطبعه . ولكنه رغم طبعه هذا بدأ يتذمر ، فلم يكد يستهل القرن الثانى حتى بارت مساحات واسعه من الأرض لعدم وجود من يزرعها ، ولم يجد مستأجرو أراضى الملك من يؤجرونها لهم ليزرعوها ، فحاولوا أن يقوموا هم أنفسهم بزرعها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك العمل ، فأخذت الصحراء تزحف شيئاً فشيئاً على الحضارة . وكان العبيد يعملون فى مناجم الذهب ببلاد النوبة وهم عراة ، فى سراديب مظلمة ضيقة ، وأجسامهم ملتوية ، وهم مثقلون بالأغلال ، يسوقهم الملاحظون إلى العمل بالسياط ، طعامهم حقير لايكاد يسد الرمق ، وقد هلك آلاف منهم من سوء التغذية ومن فرط التعب ،وكانت سلواهم الوحيدة فى هذه الحياة هى الموت(٤٧) . وكان العامل العادى فى المصانع يتقاضى أبلة واحدة ($\frac{1}{6}$ من الريال الأمريكى) فى اليوم ، أما الصانع الماهر فكان يتقاضى أبلتين أو ثلاث أبلات ، ويستريح من العمل يوماً فى كل عشرة أيام .

وعم الاستياء ، وازدادت الشكاوى ، وكثر الإضراب : إضراب بين عمال المناجم ، والمحاجر ، ورجال القوارب ، والفلاحين ، والصناع ، والتجار ، ثم تعداهم إلى الملاحظين ورجال الشرطة أنفسهم . ولم يكن الغرض من الإضراب زيادة الأجور ، فإن الكادحين قد يئسوا من هذه الزيادة من زمن بعيد ، بل كان الدافع إليه هو الإعياء واليأس . وتقول بردية تسجل إضراباً من هذا النوع : « لقد خارت قوانا ، وسنفر من العمل » أى أنهم سيعتصمون بأحد الهياكل(٤٨) . وكان كل المستغلين تقريبا من اليونان ، وكل الكادحين المستغلين تقريبا من المصريين أو اليهود . وكان الكهنة يثيرون مشاعر الأهلين خفية باسم الدين ، على حين كان اليهود يعارضون فى كل عمل تقوم به الحكومة لتخفيف الضغط عليهم أو على المصريين . ولجأت الحكومة فى العاصمة إلى العطايا

وأساليب التسلية لترشو بها الجماهير ، ولكنها لم تكن تسمح لهم بدخول الأحياء الملكية ، وكانت تسلط عليهم قوة عسكرية كبيرة تراقبهم وتتجسس عليهم ، ولم تكن تسمح لهم بنصيب ما فى إدارة شئونهم . وما لبثت هذه الجماهير أن أضحت فى آخر الأمر جماعات من الغوغاء عنيفــة لا تحس بأية تبعة[49] . وثار المصريون فى عام ٢١٦ ولكن الثورة أخمدت ، ثم ثاروا مرة أخرى فى عام ١٨٩ ودامت ثورتهم خمس سنين . وسيطر البطالمة على الموقف وقتاً ما بقوة جيشهم وبزيادة هباتهم للكهنة ، ولكن الموقف كان قد تحرج إلى أقصى حدود التحرج ، لأن موارد البلاد نضبت عن آخرها ، حتى لقد أحس المستغلون أنفسهم أنه لم يبق فيها شيء يستغلونه .

وبدأ الانحلال يدب فى كل شيء ، فانتقل البطالمة من الرذائل الطبيعية إلى الرذائل غير الطبيعية ، ومن الذكاء إلى الغباوة ، وانطلقوا يتزوجون بلا قيد وبسرعة أفقدتهم احترام الشعب ، وانغمسوا فى الترف انغماسا أعجزهم عن إدارة دفة الحرب أو الحكم ، وأفقدهم آخر الأمر القدرة على التفكير . وضعفت قدرة الأرض على الإنتاج عاما بعد عام لخروج الناس على القانون ، وقلة أمانتهم وعجزهم ويأسهم ، ولانعدام المنافسة بينهم ، ولضعف الهمم والدوافع التى تبعثها الملكية فى النفوس . وذوى غصن الآداب ، وقضى على الفن المبدع الخلاق ، فلم تكد تضيف الإسكندرية إليهما شيئاً بعد القرن الثالث ؛ وفقد المصريون احترامهم لليونان ، وفقد اليونان احترامهم لأنفسهم ، إذا صح أن الإنسان قد يفقد احترامه لنفسه ، فنسوا على مر السنين لغتهم ، وأخذوا يتكلمون خليطا فاسداً من اللغتين اليونانية والمصرية ؛ وازداد عدد من يتزوجون منهم بأخواتهم زيادة مطردة ، كما كان يفعل أهل البلاد ، ومن يتزوجون من أسر مصرية ، فامتصتهم البلاد واندمجوا فى أهلها ، وعبد الآلاف منهم الآلهة المصرية . وما وافى القرن الثانى حتى لم يعد اليونان هم الشعب المسيطر حتى من الوجهة السياسية ؛ ذلك أن البطالمة اعتنقوا دين المصريين

واتبعوا طقوسهم ليحافظوا بهذا على سلطانهم ، وزادوا لهذا السبب عينه من سلطة الكهنة . ولما انغمس الملوك فى الترف والملاذ بدأ الكهنة يستعيدون سلطانهم ويثبتون قواعد زعامتهم ، واستعادوا عاما بعد عام الأراضى والمزايا التى سلبها منهم البطالمة الأولون(٥٠) . ويصف حجر رشيد الذى يرجع إلى عام ١٩٦ق . م الاحتفال بتتويج بطليموس الخامس وصفا لايكاد يختلف فى شىء عن المراسم المصرية القديمة ؛ وفى عهد بطليموس الخامس (٢٠٣— ١٨١) وبطليموس السادس (١٨١ — ١٤٥) أنهكت المنازعات القائمة بين أفراد الأسرة المالكة قوة البيت المالك ، واضمحلت الزراعة والصناعة لحاية الاضمحلال ، ولم يعد الأمن والسلام إلى ربوع البلاد حتى جاء قيصر فاستولى على مصر من غير عناء ، ولم يكن استيلاؤه عليها إلا حادثا عاديا من حوادث حياته . وفى عام ٣٠ ق. م . جعلها قيصر ولاية رومانية .

الفصل الخامس

شمس الحضارة اليونانية تغرب فى صقلية

كانت قبلة العهد الهلنستى هى الشرق والجنوب وكاد يغفل الغرب إغفالاً تاما ، وازدهرت قورينى كالعادة وعمها الرخاء لأنها أدركت أن التجارة خير لها من الحرب . ونبغ فيها فى ذلك العهد كلمخوس الشاعر ، وإرتسثنيز وكرنيلز الفيلسوفان . أما إيطاليا اليونانية فقد أضعفها وأقض مضجعهاازدياد سكانها وقوة رومة الناشئة ، وعاشت صقلية تتوجس خيفة من قوة قرطاجة ، وقام أغنياؤها بثورة بعد ثلاثة وعشرين عاما من مجىء تمليون Timoleon فقضوا على حكومة سرقوسة الدمقراطية ووضعوا زمام الحكم فى أيدى ستمائة من الأسر الأرستقراطية (٣٢٠) . ولكن هذه الأسر ما لبثت أن تفرقت وكانت شيعاً ، وقضت عليها ثورة من المتطرفين قتل فيها أربعة آلاف نفس ، ونفى من البلاد ستة آلاف آخرون . ونصب أجثكليز Agathocles نفسه طاغية واستعان على ذلك بأن وعد بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى(٥١) . وهكذا يصل تركيز الثروة من آن إلى آن إلى أقصى حد ، ولاتصلح الحال إلا بالضرائب أو الثورات .

ودامت الفوضى فى سرقوسة أربعين عاما غزا فيها القرطاجيون الجزيرة مراراً وتكراراً ، وجاءها پيرس ، وانتصر ، وهُزِم ، وخرج منها ، ثم سقطت لحسن حظها التى كانت غير جديرة به فى يد هيرون الثانى Hieron خير الطغاة الكثيرين الذين أنتجتهم عواطف أهل صقلية اليونان واضطراب نفوسهم . وحكم هيرون البلاد أربعة وأربعين عاما « لم يقتل فيها مواطناً واحداً أو ينفيه أو يمسسه بأذى ، وذلك بلا جدال أعجب ماسمع به الإنسان » كما يقول پولبيوس(٥٢) . وكان هيرون يعيش عيشة متواضعة معتدلة رغم ما يحيط به من

أسباب الترف ، وقد عمر حتى بلغ سن التسعين . وأراد فى مناسبات عدة أن ينزل عن سلطته ، ولكن الشعب توسل إليه أن يحتفظ بها(٥٣) . وقد هدته حكمته إلى أن يعقد حلفاً مع رومة ، وبذلك حمى البلاد من غزو القرطاجيين نحو نصف قرن من الزمان ؛ واستمتعت المدينة فى أيامه بالسلم والنظام وبقسط كبير من الحرية ، وأقام منشآت عامة عظيمة ، وترك عند موته خزائنها عامرة بالمال دون أن يرهق الأهلين بالضرائب . وبفضل حمايته أومناصرته رفع أركميديز العلم القديم إلى أعلى ذروته ، وتغنى ثاوفريطوس ، باللغة اليونانية الفصيحة فى أواخر أيامها ، بجمال صقلية وبعطايا مليكها المرتقبه . وأضحت سرقوسة وقتئذ أكثر بلاد هلاس سكاناً وأعظمها رخاء(٥٤).

وكان هيرون يسلى نفسه وقت فراغه بمراقبة صناعه وهم يعملون بإشراف أركميديز فى بناء سفينة لنزهته ، تتمثل فيها جميع فنون بناء السفن وجميع العلوم التى عرفها الأقدمون . وكان طولها يبلغ نصف استديوم (٤٠٧ قدم) ، ولها سطح واسع للألعاب الرياضية ، ومدرسة للتدريب الرياضى ، وحمام من الرخام ، وحديقة مظللة ، جمع فيها كثيراً من أنواع النبات المختلفة . وكان فيها ستمائة من الفلاحين يدفعونها بعشرين مجموعة من المجاديف ، وكان فى مقدورها أن تحمل فوق هذا العدد ستمائة من البحارة أو المسافرين . وكانت تحتوى على مقصورة ، صنعت أرض بعضها من الفسيفساء ، وأبوابها من العاج والأخشاب الثمينة . وكان أثاثها فخماً ظريفاً ، وزينت جدرانها وسقفها بالرسوم الجميلة والتماثيل ، وكان يحميها من الهجوم دروع وأبراج ؛ وكانت تمتد من أبراجها الثمانية كتل ضخمة من الخشب بكل منها ثقب فى نهايتها تسقط منه الحجارة على السفن المعادية . وأنشأ أركميديز بطول هذه السفينة منجنيقا عظيما يستطيع قذف حجارة زنة الواحد منها ثلاث وزنات (١٧٤ رطلا) أو سهام طول الواحد منها ثمان عشرة قدماً . وكانت هذه السفينة تتسع لحمل ٣٩٠٠ طن

من البضاعة ، وكانت زنتها وحدها ألف طن . وكان هيرون يأمل أن يستخدمها في الأسفار المنتظمة بين سرقوسة والإسكندرية ، ولكنه وجد أن أحواضها لا تتسع لها لضخامتها ، وأن نفقاتها كثيرة ، فملأها بالحب والسمك من حقول صقلية وبحارها الغنية ، وأرسلها هي وحمولتها هدية منه لمصر ، وكانت وقتئذ تعانى نقصاً في الحبوب غير عادى (٥٥).

ومات هيرون في عام ٢١٦ ؛ وكان يرغب أن يضع قبل موته دستوراً دمقراطياً للمدينة ، ولكنه استمع في شيخوخته لرأى بناته فأوصى بالملك إلى حفيده (٥٦). وتبين أن هيرونموس Hieronymus هذا نذل ضعيف ، نبذ حلف رومة واستقبل وفوداً من قرطاجة ، وسمح لهم أن يكونوا من الوجهة العملية حكام سرقوسة ، وكانت رومة لا تجد كفايتها من الحبوب فأخذت تستعد لقتال قرطاجة لتنتزع منها ثروة الجزيرة التي لم تتعلم في يوم من الأيام كيف تحكم نفسها . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط وقتئذ أشبه بالفاكهة العفنة على استعداد لأن يسقط في يدى فاتح أشد بأساً وأقسى قلباً من كل من عرفهم تاريخ اليونان من الفاتحين .

الباب السادس والعشرون

الكتب

الفصل الأول

دور الكتب والعلماء

فى كل ميدان من ميادين الحياة الهلنستية ، عدا ميدان التمثيل ، نجد ظاهرة بعينها – نجد الحضارة اليونانية تنتشر ولا تتقدم . فقد كانت أثينة تحتضر ، وكانت المحلات اليونانية فى الغرب ، عدا سرقوسة ، آخذة فى الانهيار والزوال ؛ ولكن المدن اليونانية فى مصر وفى الشرق كانت فى ذروة مجدها المادى والثقافى . وقد كتب بوليبيوس ، وهو رجل واسع التجارب ، غزير العلم بالتاريخ ، حصيف الرأى ، صادق الحكم ، كتب فى عام ١٤٨ ق. م عن هذه الأيام « التى تتقدم فيها العلوم والفنون بخطى سريعة[1] » ؛ وهى نغمة ألفنا سماعها من غيره من الكتاب . وبفضل انتشار اللغة اليونانية واتخاذها لغة عامة وجدت وحدة ثقافية دامت فى بلاد البحر الأبيض المتوسط مايقرب من ألف عام . فكان جميع المتعلمين فى الإمبراطوريات الجديدة يتعلمون اللغة اليونانية ويتخذونها وسيلة للصلات الدبلوماسية ، ولنشر الآداب والعلوم ؛ وكان الكتاب المؤلف باليونانية يفهمه كل متعلم تقريبا من غير أبناء اليونان فى مصر والشرق الأدنى . وكان الناس إذا تحدثوا عن العالم المعمور (الأيكوميني oikoumene) تحدثوا عنه بوصفه عالما ذا حضارة واحدة . قد أصبحت

له نظرة عالية للحياة أقل بعثا للهمم من النظرة القومية الضيقة المتغطرسة التى كانت تسود دول المدن ولكنها قد تكون أكثر منها مطابقة لمقتضيات العقل.

ولهذه الدائرة الواسعة من القراء كتب آلاف الكتاب مئات الآلاف من الكتب، ولدينا أسماء ألف ومائة مؤلف هلنستى ؛ وما من شك فى أن من لاتعرف أسماءهم يخطئهم الحصر ؛ ونشأ خط سريع دارج لتسهيل الكتابة ، بل إننا لنسمع فى واقع الأمر منذ القرن الرابع عن طرق للاختزال يستطاع بها «التعبير عن بعض الحروف والحركات بشروط مختلفة الأوضاع» . وظلت الكتب تكتب على أوراق البردى المصرى حتى حرم بطليموس الرابع تصدير هذه المادة من مصر لعله يمنع بذلك نمو مكتبة برجموم . ورد يومنيز الثانى على هذا العمل بأن شجع صناعة معالجة جلود الضأن والعجول على نطاق واسع ، وكانت هذه الجلود تستعمل للكتابة فى بلاد الشرق من زمن بعيد ، وسرعان ما أصبح الرق المصنوع فى برجموم والمشتق اسمه الأوربى parchment من اسمها ينافس الورق بوصفه أداة للتخاطب ونقل الآداب .

وبعد أن تضاعف عدد الكتب إلى هذا الحد أصبح إنشاء دور الكتب ضرورة محتومة . كانت هذه الدور قد قامت فى مصر وبلاد النهرين قبل ذلك الوقت ، غير أنها كانت فيهما من وسائل الترف التى يختص بها الملوك ؛ ولكن يبدو أن مكتبة أرسطو كانت أولى مجموعات الكتب الخاصة الكبيرة . وفى وسعنا أن نقدر حجم هذه المكتبة وقيمتها إذا عرفنا أنه دفع ماقيمته ١٨,٠٠٠ ريال أمريكى ثمنا لجزئها الذى اشتراه من اسپيوسپوس خليفة أفلاطون .وأوصى أرسطو بكتبه إلى ثاوفراسطوس ، ثم أوصى بها هذا (فى عام ٢٨٧) إلى نليوس Neleus ، ونقلها هذا إلى اسكپسيس فى Scepsis فى آسية الصغرى ، حيث دفنت فى باطن الأرض ، كما تقول بعض الروايات ، لتنجو من شره ملوك برجموم العلمى . وبعد أن ظلت هذه الكتب مدفونة على هذا النحو البالغ

الضرر ، يبعث حوالى عام ١٠٠ ق . م. إلى أبلكون Apellicon التيوسى of Teos الفيلسوف الأثيني . ووجد أبلكون أن فقرات كثيرة فى الكتب قد أتلفتها رطوبة الأرض ، فكتب منها نسخاً جديدة ، وملأ الثغرات المفقودة بقدر ما هداه إليه تفكيره[٣] ؛ وقد يكون هذا هو السبب فى أن أرسطو أكثر الفلاسفة جاذبية فى التاريخ القديم . ولما استولى سلا Sylla على أثينة عام ٨٦ أخذ مكتبة أبلكون ونقلها إلى رومة ، حيث سجل أندرنكوس Andronicus العالم الرودسى نصوص مؤلفات أرسطو[٤] . ونشر هذه النصوص المسجلة — وكان لهذه الحادثة فى تاريخ التفكير الرومانى أثر لايقل عن أثر يقظة الفلسفة فى العصور الوسطى .

وإن قصة هذه المجموعة وتنقلها من مكان إلى مكان ليدلاننا على ما يدين به الأدب للملوك البطالمة لإنشائهم مكتبة الإسكندرية العظيمة وجعلها جزءاً من متحفها . لقد بدأ هذه المكتبة بطلميوس الأول وأتمها بطليموس الثانى ، ثم أضاف إليها مكتبة أصغر منها فى معبد سرابيس بإحدى ضواحى المدينة . وقد بلغ عدد ما فيها من الملفات قبل نهاية حكم فلدلفس ٥٣٢,٠٠٠ ملف يتكون منها فى أكبر الظن مائة ألف كتاب بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ فى هذه الأيام[٥] . وظل تكبير هذه المجموعة حيناً من الدهر ينافس فى قلوب ملوك مصر حبهم لتقوية سلطانهم . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن بطليموس الثالث أمر أن كل كتاب يصل إلى الإسكندرية يجب أن يودع فى المكتبة ، وأن تنسخ منه صور تعطى واحدة منها لصاحبه وتحتفظ المكتبة بأصل الكتاب . وطلب هذا الملك صاحب السلطان المطلق إلى أثينة أن تعيره مخطوطات إيسكلس ، وسفكليز ، ويوربديز ، وأودع لديها ماقيمته ٩٠,٠٠٠ ريال أمريكى ضماناً لعودتها سالمة ، فلما أرسلت إليه احتفظ بأصولها ورد إليها نسخاً منها ، وأبلغ الأثينيين أن يحتفظوا بالمال جزاء له على عمله[٦] . وانتشرت رغبة

الناس فى اقتناء الكتب انتشاراً بلغ من اتساعه أن نشأت طائفة من الناس تخصصت فى صبغ المخطوطات الجديدة وإتلافها ليبيعوها لجامعى النسخ الأولى على أنها كتب قديمة(٧) .

وما لبثت المكتبة أن زادت على المتحف فى أهميتها وتعلق الناس بها وأصبح منصب أمين المكتبة أكبر المناصب مرتباً عند الملك ، وصار من اختصاصاته أن يكون المعلم الخاص لولى العهد . وقد بقيت لنا أسماء هؤلاء الأمناء وإن اختلف بعضها عن بعض فى المخطوطات المختلفة .ويذكر أحدث ثبت لها أسماء الستة الأمناء الأولين وهم : زنودوتس الإفسوسى ، وأبلونيوس الرودسى ، وأرتستنيز القوريني ، وأبلونيوس الإسكندرى ، وأرسطوفان البيزنطى ، وأرستارخوس السمثراسى ؛ وإن اختلاف أصولهم ليوحى مرة أخرى بوحدة الثقافة الهلينية . ولايكاد يقل عن هذه الأسماء أهمية كلمخوس الشاعر والعالم الذى صنف هذه المجموعة ونظمها فى فهرس عام بلغ عدد ملفاته مائة وعشرين ملفاً . وإنا لتطوف بخيالنا صورة طائفة كبيرة من النساخين ، نظن أنهم من العبيد ، ينسخون صوراً ثانية من أصول الكتب القيمة ،ومعهم عدد لايحصى من العلماء يقسمون هذه الكتب مجموعات . وكان بعض هؤلاء الرجال يكتبون تواريخ مختلف الآداب والعلوم ، وبعضهم يخرجون للناس « طبعات » من الروائع القيمة ، ومنهم من كانوا يكتبون تعليقات وشروحاً للنصوص ليستنير بها غير الإخصائيين وقراء الأجيال التالية . وقد أحدث أرسطوفان Aristophanes البيزنطى انقلاباً عظيماً فى الأدب بفصل الجمل المستقلة والتبعية فى المخطوطات القديمة بعضها عن بعض بالحروف الكبيرة (Capitals)، وبعلامات الترقيم ، وكان هو الذى اخترع النبرات التى تضايقنا أشد المضايقة فى قراءة الكتابات اليونانية . وقد بدأ زنودوتس تهذيب الإلياذة والأوديسة ، وواصل أرسطوفان عمله ، وأتمه أرستارخوس ، وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالى لهاتين الملحمتين ، وهم الذين شرحوا ما غمض فيهما شرحاً يدل على غزارة الاطلاع . ولم ينقض القرن الثالث حتى

حتى أضحت الإسكندرية بفضل متحفها ومكتبتها وعلمائها العاصمة الذهنية للعالم اليونانى فى كل نوع من فروع العلم والأدب عدا الفلسفة .

وما من شك فى أن مدناً هلنستية أخرى كانت بها دور كتب ، يدل على ذلك أن علماء الآثار النمساويين قد كشفوا عن بقايا مكتبة جميلة الشكل تابعة لبلدية إفسوس ، ونسمع أن مكتبة عظيمة قد احترقت حين خرب سيبو Scipio مدينة قرطاجة . ولكن المكتبة الوحيدة التى يمكن موازنتها بمكتبة الإسكندرية هى مكتبة برجموم : ذلك أن ملوك هذه الدولة القصيرة الأجل كانوا يحسدون حسد المستنيرين ملوك البطالمة على جهودهم الثقافية ، وقام يومنيز الثانى بإنشاء مكتبة برجموم ، واستقدم لابهائها طائفة من أعظم علماء اليونان . وأخذت مجموعة الكتب التى بها تنمو نمواً سريعاً ، حتى بلغ عددها ، حين أهداها أنطونيوس لكليوبطرة ليعوض بها ذلك الجزء من مكتبة الإسكندرية الذى احترق أثناء الثورة على قيصر عام ٤٨ ق .م . مائتى ألف ملف . وبفضل هذه المكتبة ، وما كان لملوك برجموم من ذوق أتيكى حسن أضحت هذه المدينة فى أواخر العصر الهلنستى مركزاً لأنقى مدرسة من مدارس النثر اليونانى ، وهى مدرسة لم تكن ترى أن لفظا ما يونانيا نقيا إلا إذا كان قد ورد فى كتابات العصر القديم . ونحن مدينون إلى حماسة هؤلاء الأدباء بما بقى من روائع النثر الأتيكى .

ولقد كان هذا العصر أولا وقبل كل شىء عصر النابهين والعلماء ، عصرا أصبحت الكتابة فيه مهنة لا هواية ، ونشأت فيه جماعات وحلقات يتناسب تقدير بعضها مواهب البعض الآخر تناسبا عكسياً مع مربع المسافة بينها . وبدأ الشعراء يكتبون للشعراء . وأضحت كتاباتهم لذلك متكلفة مصطنعة ، وأخذ العلماء يكتبون للعلماء ، فكانت كتاباتهم خالية من البهجة والروعة ، وشعر المفكرون أن إلهام اليونان المبدع كاد ينضب معينه ، وأن أبقى خدمة يستطيعون أداءها هى أن يجمعوا ، ويحفظوا ، ويدونوا ، ويشرحوا الأعمال الأدبية التى أنشأها

عصر أسمى وأعظم جرأة من عصرهم . لذلك أوجدوا طرق نقد النصوص والآداب بجميع أشكاله تقريباً ، وحاولوا أن يستخرجوا خلاصة المخطوطات الكثيرة التي كانت بين أيديهم ، وأن يرشدوا الناس إلى ما يجب أن يقرؤوه منها ، فوضعوا قوائم « بأحسن الكتب » و« شعراء البطولة الأربعة » والتسعة المؤرخين » و« العشرة الشعراء الغنائيين » و« العشرة الخطباء » وما إلى هذا(٩) .

وألفوا سيرا لكبار الكتاب والعلماء ، وجمعوا وأنجوا من الدمار المعلومات المشتتة التي لانعرف الآن غيرها عن هؤلاء الرجال . وكتبوا خلاصات في التاريخ ، والآداب ، والتمثيل ، والعلم والفلسفة(١٠) ؛ وقد ساعدت بعض هذه الخلاصات التي كانت أشبه « بالطرق المختصرة للمعرفة » على حفظ المؤلفات الأصلية التي لخصتها ، وإن كان بعضها قد حل محلها وقضى بغير علم واضعيها على هذه المؤلفات . وأقض مضاجع العلماء الهلنستيين تدهور اللغة اليونانية الأتكية الفصحى وحلول الرطانة اليونانية الشرقية المنتشرة في ذلك الوقت محلها ، فأخذوا يضعون المعاجم وكتب النحو ؛ وأصدرت مكتبة الإسكندرية ، كما يفعل المجمع العلمي الفرنسي في هذه الأيام ، قرارات تبين الاستعمال الصحيح للألفاظ والعبارات اليونانية القديمة . ولولا جد هؤلاء العلماء وصبرهم لقضت الحروب ، والثورات ، والكوارث التي توالت على هذا الجزء من العالم مدى ألفي عام ، على هذه « الشذرات الثمينة » التي انتقلت إلينا من حطام التراث اليوناني القديم .

الفصل الثانى

كتب اليهود

لقد احتفظ اليهود وسط هذا الجو المضطرب الذى لف ذلك العصر بحبهم التقليدى للبحث العلمى ، وأخرجوا أكثر من نصيبهم من الأدب الخالد الذى أخرج فى ذلك العصر . وإلى ذلك العصر تنتمى طائفة من أجمل أجزاء التوراة فقد ألف شاعر يهودى (أو ألفت شاعرة يهودية) قبيل اختتام القرن الثالث نشيد الإنشاد الجميل : فى هذا النشيد كل ماحواه السفر اليونانى من سافو إلى ثاوفريطوس من روعة فنية ، ولكن فيه فوق هذا مالايمكن العثور عليه عند أى مؤلف من مؤلفى ذلك العصر — فيه قوة الخيال ، وعمق فى الشعور ، وإخلاص مثالى ، حوى من القوة ما يكفى للترحيب بجسم الحب وروحه ، وأن يبدل الجسم نفسه روحاً . وقد كتب اليهود الهلنستيون وقتئذ — بالعبرية أو الآرامية أو اليونانية — روائع خالدة كأسفار الجامعة ، ودانيال ، وأجزاء من الأمثال ، والمزامير ، والجزء الأكبر من الأسفار الإبوكريفية ، كتبوا بعضها فى أورشليم ، ومعظمها فى الإسكندرية ، وبعضها الآخر فى غيرهما من مدائن شرق البحر الأبيض المتوسط . وكتبوا تواريخ كسفر الأخبار وقصصاً صغيرة كاستر ويهوديت ، وأناشيد للأسر كسفر طوبيت . وحول كبار العلماء الكتابة العبرية من النمط الأشورى القديم إلى النمط السورى المربع احتفظت به إلى اليوم[11] . وإذ كان معظم اليهود فى بلاد الشرق الأدنى يتكلمون وقتئذ الآرامية بدل العبرية ، فقد أخذ علماؤهم يفسرون لهم الكتاب المقدس بترجمته إلى الآرامية ، وافتتحت المدارس لدراسة أسفار موسى ، والشريعة ، وتفسير القوانين الأخلاقية للشبان الناشئين . وانتقلت هذه الشروح

والتعليقات ، والإيضاحات من المعلم إلى الطالب جيلا بعد جيل ، فكان منها في العصور التالية معظم المادة التي احتواها التلمود .

وقبل أن يختتم القرن الثالث كان علماء المجمع العظيم قد فرغوا من نشر الأدب القديم كله وانتهوا من كتب العهد القديم(١٢) . وقد حكموا في ذلك الوقت أن عصر الأنبياء قد انقضى وأن الوحي اللفظي قد انتهى زمنه ، وكانت نتيجة هذا الحكم أن كثيراً مما كتب في ذلك العصر وإن كان مليئاً بالحكمة والجمال لم تتح له فرصة السند الإلهي ، فكان نصيبه أن يصبح جزءاً من أسفار الأپكريفا المنكودة(*) . ولعل بعض أسفارها مدينة بروعتها الأدبية إلى براعة المترجمين في عهد الملك جيمس ، ولكن هؤلاء المترجمين لا يمكن أن يكونوا أصحاب الفضل في تلك العبارات المؤثرة التي تصف سؤالا للملك أوريل أن يفسر كيف يفلح الخبيثون ويعذب الصالحون ؟ وكيف تكون إسرائيل أسيرة ذليلة ؟ فيجيب الملك ، بتشبيهات ومجازات قوية ولكن في عبارات سهلة بسيطة أن ليس من حق الجزء أن يفهم الكل أو يحكم عليه .

وتقول مقدمة سفر الحكمة إن هذا السفر ترجمة يونانية تمت في عام ١٣٢ لأحاديث باللغة العبرية كتبها يسوع بن سيراك جد المترجم قبل ذلك الوقت

(*) أسفار الأپكريفا (ومعناها الحرفي الخفية) في العهد القديم هي الأسفار التي ستبعدت من النص اليهودي للعهد القديم الموحى به ؛ ولكنها اشتملت عليها النسخة الكاثوليكية للكتاب المقدس ، أي الترجمة اللاتينية التي قام بها القديس چيروم للنصوص العبرية واليونانية . وأهم أسفار الأپكريفا في العهد القديم هي سفر الحكمة ، وسفر المكابيين الأول والثاني . أما أسفار الرؤيا (أي الوحي) فهي التي يقولون إنها تحتوي على الوحي والتنبؤات الإلهيــة ؛ وقد بدأ ظهور هذه الكتابات الأخيرة حوالي عام ٢٥٠ ق . م . واستمرت إلى العهد المسيحي . وتعد بعض أسفار الرؤيا كسفر أخنوخ أپكريفية غير معترف بصحتها ، ويعد بعضها الآخر كسفر الرؤيا صحيحاً معترفاً بصحته .

بجيلين. وكان يسوع بن سيراك هذا عالما ورجلا من رجال الأعمال ، رأى بعض أحوال العالم فى خلال أسفاره ثم استقر فى بلده واتخذ منزله مدرسة للطلاب ، وألقى عليهم هذه الأحاديث يبين لهم فيها حكمة الحياة[١٣] . وهو يندد فيها بأغنياء اليهود الذين خرجوا عل دينهم ليكون لهم شأن فى عالم الكفار ؛ ويحذر الشباب من العاهرات الواقفات لهم بالمرصاد فى كل مكان ، ويعرض عليهم شريعة موسى ويصفها بأنها لاتزال خير هاد لهم وسط شرور العالم ومزالقه - ولكنه ليس بالرجل المتزمت فى دينه فلا ينحو نحو « المتقين » بل يجد كلمة طيبة يقولها ليدخل بها السرور البرىء على قلب محدثه ، وهو يندد بالمتصوفين الذين يرفضون الدواء بحجة أن المرض مرسل من عند الله ، وأنه لذلك لايشفيه إلا الله وحده . والكتاب ملىء بالحكم أشهرها كلها الحكمة التى تجمع بين الطفل والعصا . ويقول رينان Renan إن « السياط التى يبررها ضاربوها بهذه الحكمة ليخطئها الحصر بلا ريب[١٤] » . والحق أن هذا السفر عظيم وأنه أكثر حكمة ورأفة من سفر الجامعة .

وقد ورد فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الحكمة أن « الحكمة أول ما أوجده الله ، فقد خلقها من بداية العالم » . وفى هذا الإصحاح وفى الإصحاح الأول من سفر الأمثال نجد أقدم صورة من صور نظرية « الكلمة » أى الحكمة - بوصفها خالقا وسطا » عهد إليها الله تنظيم العالم . وتشخيص الحكمة بهذه الصورة أى جعلها ذكاء مجسداً يصبح من المبادئ الرئيسية ذات الشأن فى الدين اليهودى خلال القرون السابقة لظهور المسيح مباشرة . وإلى جانب هذا ترى فكرة الخلود الشخصى تزداد وضوحا شيئاً فشيئاً . وفى كتاب أخنوخ الذى كتبه على ما يظهر عدد من الكتاب المختلفين فى فلسطين بين عامى ١٧٠ ، ٦٦ قبل الميلاد يصبح الأمل فى ملكوت السموات حاجة أساسية ؛ وسبب ذلك أن ما يناله الأشرار من خير وفلاح وما يلقاه الأتقياء والصالحون والأوفياء من سوء المصير لم يعد يستطاع تحمله إلا إذا عمرت صدور الناس

بهذا الأمل . وقد بدا للناس أن الحياة والتاريخ إذا تجردا من هذا الأمل كانا من عمل الشيطان لا من فعل الله . وسينزل مسيح يقيم مملكة السماء فى الأرض ويجزى المتقين بالسعادة السرمدية بعد الموت »

ويعبر سفر دانيال عما كان يسود عهد أنتيوخوس الرابع من هول ورعب. فقد حدث حوالى عام ١٦٦ حينما كان المؤمنون يعذبون ويقتلون لتمسكهم بدينهم ، وكان الأعداء المتزايدون يهاجمون المكابيين ، أن أخذ أحد «المتقين» على الأرجح على نفسه أن يستثير شجاعة الشعب بأن يصف له ما لاقاه دانيال من العذاب ، وما نطق به من التنبؤات فى بابل أيام نبوخذنصر . وتداولت أيدى اليهود فى السر نسخاً من هذا الكتاب ، وقيل عنه إنه من وضع نبى من الأنبياء عاش قبل ذلك العهد بثلثمائة وسبعين عاما ، وإنه لاقى ألواناً من العذاب أشد مما لاقاه أى يهودى فى عهد أنتيوخوس ، وإنه خرج منها ظافراً ، وتنبأ بأن شعبه سينال من النصر مثل ما ناله هو ، وقال إنه إذا كان الصالحون والمؤمنون لم يلقوا ما هم خليقون به من السعادة فى هذا العالم ، فسوف يتألون جزاءهم الأوفى يوم الحساب ، حين يدخلهم الله فى ملكوت السموات ليعموا فيها بالسعادة السرمدية ويلقى بمن عذبوهم فى الجحيم الأبدى .

وجملة القول أن ما بقى من كتابات اليهود فى ذلك العهد يمكن وصفه بأنه أدب صوفى خيالى يهدف إلى تعليمهم وتقوية روحهم ومواساتهم . لقد كانت الحياة نفسها كافية لليهود الذين عاشوا قبل ذلك العهد ، ولم يكن الدين وقتئذ طريقاً للفرار من العالم ، بل كان تمثيلا مسرحياً للأخلاق يشبعر الإيمان ، يصور لهم إلها قديراً يحكم كل شىء ويرى كل شىء ، يثيب على الفضيلة ويعاقب على الرذيلة فى هذه الحياة الدنيا . ثم زعزع « الأسر » هذه العقيدة ، وجددتها إعادة بناء الهيكل ، ثم حطمتها ضربات أنتيوخوس . ووجد التشاؤم الآن الميدان فسيحاً أمامه ، ورأى اليهود فى كتابات اليونان أفصح تعبير عن

مظالم الحياة ومآسيها . وكان اتصال اليهود فى هذه الأثناء بأفكار الفرس عن الجنة والنار ، وعن الكفاح بين الخير والشر ، وانتصار الخير فى آخر الأمر ، كان هذا كله مما يسر لهم الفرار من فلسفة اليأس ؛ ولعل أفكار الخلود التى انتقلت من مصر إلى الإسكندرية ، والأفكار التى قامت عليها طقوس اليونان الخفية ، لعل هذه وتلك قد تعاونت على أن تبعث فى قلوب اليهود فى العصرين اليونانى والرومانى ذلك الأمل الذى أبقى على كيانهم خلال الحادثات التى مرت بالهيكل والدولة . ومن هؤلاء اليهود ، ومن المصريين ، والفرس، واليونان ، سرت فكرة الثواب والعقاب الأبديين إلى دين جديد أقوى من دين اليهود ، وأعانت هذا الدين على أن يضم تحت لوائه عالما كان سائراً فى طريق الانحلال .

الفصل الثالث

مناندر

بلغ التمثيل فى ذلك العهد ، كما بلغ غيره من الفنون، ذروته من حيث كمية الإنتاج ، ولقد كان لكل مدينة بل كاد يكون لكل بلدة فى المرتبة الثالثة دار للتمثيل . وكان الممثلون أحسن تنظيماً مما كانوا فى أى عصر سابق ، وكان الطلب عليهم كثيراً ، وكانوا ينالون أجوراً عالية ، ويعيشون من الناحية الخلقية عيشة أرقى من أهل زمانهم . وظل كتاب المسرحيات يكتبون المآسى ،ولكن الدهر أسبل عليهم ثوب النسيان ، سواء كان ذلك من قبيل المصادفات أوكان سببه ارتقاء أذواق الناس . لكن مزاج أثينة الهلنستية ، كمزاج هذه الأيام ،كان يفضل قصص المسلاة الجديثة ، الخفيفة الروح ، النزقة،العاطفية ، ذات الخاتمة المفرحة . ولم يبق من هذه أيضاً إلا قطع متفرقة ولكن لدينا نماذج منها غير مشجعة فى مختلسات پلوتس Plautus وترنس Terence اللذين ألفا مسرحياتهما بترجمة المسالى الهلنستية وتحويرها . وقد أغفلت فى المسالى الجديدة شئون الدولة وشئون الروح العليا التى ألهمت أرسطوفان لأن كتابة هذه المسالى كانت أكثر مما تتحمله طاقة الكتاب الأدبية ؛ وكان موضوعها فى العادة مأخوذاً من المنزل أو الحياة الخاصة ، يتعقب الطرق الملتوية التى ترفع بها النساء إلى منزلة الكرامة وتؤدى بالرجال مع ذلك إلى الزواج . وترى فيها الحب يسير فى طريق النصر لكى يصبح أهم شىء على المسرح ؛ وترى مئات الفتيات حائرات بائسات على المسرح ولكنهن ينلن الشرف ويحصلن على الأزواج فى آخر المسرحية . ولم يبق وجود للملابس القديمة التى كانت تمثل فيها أعضاء الذكور ، ولا للخلاعة والفجور الأولين ؛ بل كانت تدور القصة فى مجال ضيق حول عذرة السيدة

المهمة فيها ، ولم يكن للفضيلة فيها شأن كبير كشأنها فى الصحف اليومية فى هذه الأيام . وإذ كان الممثلون يلبسون أقنعة ، وكان عدد الأقنعة محدوداً ، فإن كاتب المسلاة كان يحيك حبكته وما فيها من دسائس وخطأ فى هوية أشخاص المسرحية حول عدد قليل من الأشخاص البلهاء كان يسر النظارة على الدوام أن يميزوهم بعضهم من بعض . وكانت الشخصيات التى تتكرر باستمرار هى شخصية الأب القاسى ، والشيخ الهرم ، الخير ، والابن المتلاف ، والوارثة التى يخطئ الناس فيظنونها فقيرة ، والجندى الصخاب ، والعبد الحاذق ، والمتملق ، والطفيلى ، والطبيب ، والقس ، والفيلسوف ، والطاهى ، والعشيقة ، والقواد .

وكان رافعا علم هذه المسلاة الأخلاقية فى أثينة فى القرن الثالث هما فلمون Philemon ومناندر Menander . فأما فلمون فلا يكاد يبقى لنا من آثاره شيء سوى صدى شهرته ، وكان الأثينيون يحبونه أكثر مما يحبون مناندر ، وقد منحوا أولهما من الجوائز أكثر مما منحوا الآخر ؛ ولكن فلمون ارتفع بفن تنظيم المصفقين المأجورين فى دار التمثيل إلى ذروته ؛ وإذ كانت الأجيال المقبلة قد أغفل أمرها ولم يحسب لها حساب فى تلك الأجور ، فإنها لم تأخذ بحكم هؤلاء المصفقين وقلبته ظهراً لبطن ، ووضعت التاج على عظام مناندر . وكان هذا المؤلف المسرحى الذى يماثل كجريف Cogreve فى العصر الحديث ابن أخ كاتب مسرحى آخر غزير الإنتاج هو ألكسيس الثوريائى Alexis of Thurii تلميذ ثاوفراسطوس وصديق أبيقور . وقد تعلم من أستاذه وصديقه أسرار المسرحيات ، والفلسفة ، وهدوء النفس ، وكاد أن يحقق مثل أرسطو الأعلى ؛ فقد كان جميلا ، ثرياً ، يفكر فى الحياة فى هدوء وحسن إدراك ، ويستمتع بملاذها استمتاع الرجل المهذب . وكان عاشقاً متقلباً ، قنع بأن يجزى جلسرا Olycera على حبها وإخلاصها له بأن يمس اسمها بعصا الخلود السحرية . ولما دعاه بطليموس الأول إلى الإسكندرية بعث فلمون بدلا منه وقال : « إن فلمون

ليست له جلسرا » . وسرت جلسرا بذلك أيما سرور ، وكانت قد قاست كثيراً بانتصارها على ملك من الملوك[١٥] . ويؤكد لنا رواة أخباره أنه عاش معها بعد ذلك الوقت وأخلص لها حتى مات فى الثانية والخمسين من عمره باعتقال العضلات بينما كان يستحم فى پيرية (٢٩٢)[١٦] .

وظهرت مسرحيته الأولى فى السنة التى أعقبت وفاة الإسكندر ، كأنها بظهورها فى تلك السنة تعلن بداءة عهد جديد . وكتب بعد ذلك العام مائة مسلاة وأربعاً ، نالت ثمان منها الجائزة الأولى . وقد بقى من هذه المسرحيات نحو أربعة آلاف سطر كلها قطع منها قصيرة متفرقة ماعدا بردية عثر عليها فى مصر عام ١٩٠٥ . وتحتوى هذه البردية على نصف مسلاة المحكمين Epitrepontes وقد هبطت بسمعة مناندر . ولو أننا شكونا من أن موضوعات هذه المسالى مسئمة كموضوعات فنون النحت ، والعمارة ، والخزف اليونانية ، لذهبت شكوانا هذه مع الريح ؛ بل ينبغى لنا أن نذكر أن اليونان لم يكونوا يحكمون على المسرحية بالقصة التى تقصها — وهو معيار خليق بالأطفال — بل بالطريقة التى تقصها بها . ومن أجل هذا كان ما يعجب به العقل اليونانى فى مناندر هو أسلوبه الأنيق المصقول ، والفسلفة المركزة فى فكاهته ، وتصوير المناظر العادية تصويراً بلغ من واقعيته أن صاح أرسطوفان البيزنطى متسائلا: أى مناندر، وأنت أيتها الحياة ، ترى أيكما يقلد الآخر »[١٧] وكان مناندر يرى أنه لم يبق للإنسان شىء فى هذا العالم الذى ضاع تحت أقدام الجنود إلا أن يفكر فى شئون البشر تفكير الناظر إليها وهو خارج عنها ، يعطف عليها من غير أن يتورط فيها . وهو يلاحظ غرور النساء وتقلبهن ، ولكنه يسلم بأن الزوجة العادية نعمة من أجل النهم . وتدور فكرة المحكمين فى بعض أجزائها على رفض المعيار المزدوج[١٨] ؛ ويدور موضوع إحدى المسرحيات بطبيعة الحال حول عاهر مخلصة ترفض كما ترفض ذات الكميليا دوماس ، الرجل الذى تحبه ، لكى تمكنه من أن يتزوج زواجاً محترماً بسيدة يجنى من وراء

زواجه بها نفعاً[١٩] . وفى بعض القطع الباقية من المسرحيات سطور جرت مجرى الأمثال ، منها قوله : « إن أخبار السوء تفسد الخلق الطيب» (وقد نقلها القديس بولس)[٢٠] ، و« الضمير الحر يخلق من الجبناء رجالا بواسل »[٢١] . ومن الناس من يعزو إلى مناندز أصل قول ترنس الشهير : « إنى رجل ، ولا أرى شيئاً من مستلزمات الرجولة غريباً عنى » . وتعثر فى كتاباته أحياناً على لآلىء من الفطنة والفراسة كقوله : «كل شىء يموت إنما يموت بما يعتريه من فساد ، وكل ما يفسد يفسد من الداخل » وكهذه الأبيات التى تعد أنموذجاً صادقاً لشعر مناندر ، والتى يتنبأ فيها بموته المبكر:

إن الذين تحبهم الآلهة يموتون صغاراً ؛ طوبى للرجل
الذى يرى فى اطمئنان هذا الموكب الرهيب
موكب الشمس ، والنجوم ، والبحر ، والنار ، ثم يعود بعد ذلك
مسرعاً إلى بيته وقلبه مطمئن لم يمسسه سوء .
وسواء كانت الحياة قصيرة أو طويلة فإنك بلا ريب
يا پرمينو لن ترى شيئاً أحسن
من هذه الأشياء ، إذن فاتخذ مقامك هنا كما
لو كنت ممن يترددون على دور التمثيل أو الأعراس .
كلما أسرعت كان ذلك أضمن لراحتك .
سوف تعود مزوداً بأحسن زاد ، لا عدولك ، قوياً عند الحاجة ؛
أما من يبطئ فسيقضى فى الطريق منهوك القوى ، تثقله السنون ،
ويلاحقه الأعداء الذين تؤلبهم عليه متاعب الحياة النكدة ؛
وهكذا يموت أسوأ ميتة من يبطئ عليه الموت .

الفصل الرابع

ثاوقريطوس

ماتت المسلاة اليونانية ، ومات الأدب الأثيني إلى حد كبير ، بموت فليمون عام ٢٦٢ . نعم إن المسرح قد ازدهر ولكنه لم ينتج من الروائع ما رأي الزمان أو العلماء أنه خليق بالبقاء ، وأخذ تكرار المسالى القديمة – وخاصة مسالى فليمون ومناندر – يطرد من هذه المسارح التمثيليات المبتكرة . ولما انقضى القرن الثالث خفتت معه روح المجتمع المرح التى أوجدت المسلاة الجديدة وحلت محلها فى أثينة النزعة الجدية التى كانت من خصائص المدرسة الفلسفية . وحاولت مدن أخرى وخاصة مدينة الإسكندرية أن تنقل إليها غروس فن التمثيل ولكنها لم توفق .

وجددت المكتبة الكبرى والعلماء الذين اجتذبتهم إليها نفحة الأدب الإسكندرى . فكان لابد للكتب أن تتفق مع أذواق القراء المتعلمين الناقدين التى « سفسطها » العلم والتاريخ . وحتى الشعر نفسه أضحى شعرا علميا وحاول أن يستر ما فيه من ضعف الخيال بالإشارات الغامضة والتلاعب الدقيق بالألفاظ . وأخذ كلمكس يكتب تراتيل ميتة لآلهة ميتة ، ونكات شعرية طريفة تلتمع يوما واحدا ، ومدائح تنم عن فطنة وروية مثل خصلة برنيس The Lock of Bernice وقصيدة إرشادية عن **الأسباب** (Aitia) وهى قصيدة تحتوى على كثير من المعارف العلمية فى الجغرافية ، والأساطير ، والتاريخ ، وعلى قصة من أقدم قصص الحب فى الأدب . ومضمون هذه القصة أن بطلها أكنتيوس Acontius فتى بارع الجمال إلى درجة لايصدقها العقل ، وأن سيدبى Cydippe ذات جمال مفرط ؛ ويلتقى الفتى والفتاة فيتحابان من أول نظرة ، ويقف فى سبيل هذا الحب أبواهما الشرهان المحبان للمال ، فيهددانهما .

تلك هي القصة التي رواها ملايين من الشعراء والقصصيين منذ ذلك العهد ، والتي سيظل يرويها ملايين آخرون من هؤلاء وأولئك في مستقبل الإيام . غير أننا يجدر بنا أن نضيف إلى هذا أن كلمكس يعود في إحدى مقطوعاته إلى الأذواق اليونانية المألوفة :

اشرب الآن وأحب يا دمقراطيس Democrates ؛ لأنا
لن نجد بعد خمراً أو غلمانا إلى أبد الآبدين[٢٩] .

وكان منافسه الوحيد في القرن الذي عاش فيه هو تلميذه أپلونيوس الروديسي . ولما أن سطا هذا التلميذ على أشعار أستاذه ونافسه عند البطالمة ، أخذ الرجلان يتنازعان بالعمل وبالكتابة تنازعا أدى إلى عودة أپلونيوس إلى رودس ، حيث برهن على شجاعته بأن كتب في عصر يفضل الإيجاز على الإطناب ملحمة متوسطة القيمة هي ملحمة الأرجو نوتكا Argonautica . ولم تنل هذه الملحمة من عناية كلمكس أكثر من نكتة شعرية قصيرة هي قوله : « إن الكتاب الكبير شر مستطير » — وهو قول يستطيع القارئ أن يجد شاهدا عليه في الكتاب الذي بين يديه . ووفق أپلونيوس على عمله في آخر الأمر فنال المنصب الذي كان يطمع فيه وهو منصب أمين مكتبة الإسكندرية ، وأفلح فوق هذا في إقناع بعض معاصريه أن يقرؤوا ملحمته . ولا تزال هذه الملحمة باقية إلى الآن ، وفيها دراسة فلسفية ممتازة لحب ميديا ، ولكنها ليست من الملاحم التي لا غنى عنها لطالب العلم الحديث(*) .

وتنم نشأة شعر الرعاة عن قيام حضارة مدنية غير ريفية ، ويكاد هذا الشعر أن يجاري تلك الحضارة خطوة فخطوة . ذلك أن لليونان في القرون الأولى من تاريخهم لم يقولوا إلا النزر اليسير عن جمال الريف لأن معظمهم كانوا يعيشون من قبل إما في الضياع نفسها أو قريبين منها ، وكانوا يعرفون ما في الحياة

(*) وقد نسج فرچيل في الإلياذة على منوالها في شكلها ، وفي مادتها أحياناً ، وحاكاها أحياناً سطراً سطرا .

الريفية وعزلتها من صعاب ، كما يعرفون ما فيها من هدوء وجمال . وما من شك فى أن إسكندرية البطالمة كانت حارة متربة كإسكندرية هذه الأيام ، ولهذا فإن من كان يقيم فيها من اليونان كانوا يعودون بذاكرتهم إلى تلال بلادهم الأصيلة وحقولها ، ويتخيلون هذه التلال والحقول المثل الأعلى فى جمال المنظر ؛ فكانت المدينة العظيمة والحالة هذه هى المكان الموحى بالشعر الرعوى .

وأقبل عليها حوالى عام ٢٧٦ شاب جرىء يحمل ذلك الاسم الظريف وهو ثاوقريطوس . وكان قد بدأ حياته فى صقيلة ، وقضى بعدئذ جزءا منها فى كوس ، ثم عاد إلى سرقوسة يسعى إلى رفد هيرون الثانى ، ولكنه لم يوفق ؛ غير أنه لم ينس قط جمال صقلية ، وجبالها وأزهارها ، وسواحلها وخلجانها ، فلما انتقل بعدئذ إلى الإسكندرية أنشأ قصيدة فى مدح بطليموس الثانى نال عليها رضاء البلاط وهو رضاء قصير الأجل . ويبدو أنه ظل بضع سنين يعيش بين رجال البلاط والعلماء ، بينا كانت الصور الجميلة التى يرسمها لحياة الجبال تحببه إلى سوفسطائيى العاصمة . وتصف قصيدته بركسنووا **Praxinoa** ما يلقاه الإنسان فى شوارع الإسكندرية المزدحمة من هول وفزع :

ربّاه : ما أكثر أولئك الغوغاء ! ليس فى وسعى أن أتصور
كيف نستطيع أن نشق طريقنا ، أو كم من الزمن يلزمنا لكى نشقه فيها ؛
إن عش النمل لا يعد شيئاً إلى جانب هذا الهرج والمرج . . .
أى جرجون **Gorgon** ، ياعزيزى ؛ أنظر ! — ماذا فى مقدورنا أن نفعل ؟
أولئك هم فرسان الملك ! لا تطؤونا بسنابك خيولكم !
أونوا **Eunoa** ، تنحى عن طريقهم(٣٦) !

وكيف يستطيع رجل له نفس شاعر وذكريات صقلية أن يكون سعيداً فى هذه البيئة ؟ لقد كان يمدح الملك لكى يستطيع العيش ، ولكنه كان يغذى روحه بما فى مخيلته من صور جزيرته الأصلية ، ولعله كان يغذيها أيضاً بصور جزيرة كوس ؛ وكان يجسد الراعى على حياته البسيطة ويتخيله وهو يخطو وراء قطعانه

الهادئة الوديعة فوق منحدرات التلال المعشوشبة المطلة على البحار المشمسة . وقد أتم وهو فى هذه الحالة نشيد الرعاة — الإيدليون eidyllion أو الصورة الصغيرة — ووصفه ذلك الوصف الذى لايزال محتفظاً به إلى الآن ، وهو نقش ريفى أو قصة شعرية . وليس فى الاثنتين والثلاثين مقطوعة التى وصلت إلينا من أشعار ثاوقريطوس إلا عشرة أناشيد رعوية ، ولكن هذه الأناشيد العشرة قد طبعت ذلك الاسم الذى يشملها جميعاً بطابع نصف ريفى . وبهذه الأناشيد يدخل وصف الطبيعة آخر الأمر فى الأدب اليونانى ، وهو لايدخله دخول الإلهة فحسب ، بل يدخله كذلك دخول معالم الأرض الحية المحببة إلى النفوس . ولم ينقل الأدب اليونانى قبل ذلك العهد ، بمثل هذا الشعور الحى ، الإحساس الخلقى بالصلة التى تبعث فى النفس حب الصخور والجداول ، والماء والأرض والسماء ، والاعتراف بفضلها على بنى الإنسان .

بيد أن موضوعاً آخر ينفذ فى قلب ثاوقريطوس إلى أعماق أبعد من التى ينفذ إليها الشعر الرعوى — ذلك هو موضوع الحب . ولكنه وهو لايزال يونانياً رغم بعده عن بلاد اليونان ، ينشئ أغنيتين شعريتين (الثانية عشرة والتاسعة والعشرين) فى الصداقة الجنسية بين الغلمان ، ويقص قصصاً واضحاً جياشاً بالعاطفة قصة هرقل وهيلاس Hylas (الأغنية الثالثة عشرة) ، وكيف « قاوم الجبار وحشية الأسد ، وأحب شاباً ، وعلمه ، كما يعلم الأب ابنه ، كل ما يستطيع به أن يكون رجلا طيباً ذائع الصيت ؛ ولم يكن يفارق الغلام فى مطلع الفجر ، أو وقت الظهيرة أو فى المساء ، ولكنه كان يعمل دائباً على أن يشكله بالصورة التى يحب من صميم قلبه أن يكون عليها ، وأن يجعله رفيقه الحقيقى ، يماثله فى أعماله العظيمة » . وثمة أنشودة أشهر من الأنشودة السابقة (الأنشودة رقم ١) وهى التى تعيد على مسامعنا قصة دفنيس Daphnis لاسنكسورس الراعى الصقلى الذى زمر وغنى زميراً وأغانى بلغ من جمالها أن جعلته الأقاصيص

الخرافية مخترع شعر رعاة البقر . وخلاصة القصة أن دفنيس ظل وقتاً ما يراقب قطعانه ، ويحسدها على مرحها وحبها ، حتى إذا ما نبتت الشعرة الأولى على شفته هامت بحبه إحدى حور الغاب المقدسات ، وتزوجت به . ولكنها تقاضت منه ثمن حبها بأن جعلته يقسم ألا يحب قط امرأة غيرها . وحاول جهده أن يبر بقسمه وأفلح فى هذا إلى أن افتتنت ابنة أحد الملوك بشبابه وأسلمت نفسها له فى الحقول . وأبصرت هذا أفروديتى ، وانتقمت لزميلتها الإلهة بأن جعلت دفنيس يذوب قلبه وجسمه من الحب غير المستجاب . فلما مات أوصى بمزماره إلى پان pan فى أغنية يضيف إليها صاحب القصة قراراً موسيقياً يردده بعد كل مقطوعة فى الأغنية :

« أقبل يا سيدي ؛ وخذ هذا المزمار الجميل
المغمور فى الشمع الذى لاتزال تفوح منه رائحة الشهد
والمربوط عند الشفتين بالخيط . ذلك أن حبي قد أقبل
ليناديني إلى بيت الأموات » .
يا ربات الشعر أقلعى ، أقلعى عن نشيد الرعاة
« والآن فليخرج العوسج والحسك أزهار ،
البنفسج ؛ وليزهر النرجس ،
فوق العرعر ؛ ولتنكب كل الأشياء طريقها السوى .
وليثمر الصنوبر الكمثرى ، لأن دفنيس سوف يموت .
ولتطارد الوعول كلاب الصيد ، وليطرد البوم الناعق
العندليب من التلال »
يا ربات الشعر أقلعى ، أقلعى عن نشيد الرعاة
« قال هذا — ثم لم يقل شيئاً . وكان يود أفروديتى
أن ترفعه ؛ ولكن ربات الأقدار
قطعت حبل حياته ، فهوى دفنيس

في نهر الموت وجرفه التيار ، وانقفل الدردور على رأسه
رأس من كانت تحبه ربات الشعر بأجمعها
رأس من لم تغضب منه حور الغاب »
يا ربات الشعر ، أقلعى ، أقلعى عن نشيد الرعاة(٢٧) .

وتواصل الأنشودة الثانية موضوع الحب ، ولكنها تواصله فى نغمة أعنف من هذه النغمة . وتقص كيف أغوى دلفيس Delphis سميثا Simaetha عذراء سرقوسة ثم هجرها فأخذت تستثير حبه بالتعاويذ، ورحيق العشاق، وتقول إنها اعتزمت أن تتجرع السم إذا عجزت عن كسب حبه . وتقف تحت النجوم وتصف لسيليني Selene إلهة القمر ما دب فى قلبها من الغيرة حين رأت دلفيس يسير مع رفيقته :

وما كدنا نصل إلى منتصف الطريق عند مسكن ليكون Lycon
حتى شاهدت دلفيس مقبلا مع أودانبوس Eudanippus
وكانت وجنات الفتى والفتاة وذقناهما
أنصع بياضا من القسوس حين يكمل نماؤه
نعم ، وصدراهما أكثر تلألؤا منك يا سيليني ،
يدلان على أنهما قد أقبلا توا من كدح المصارعين النبيل .
فكرى فى حبى ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني .
فلما رأيتهما ، استشطت غضبا ، واتقدت نار الغيرة فى صدرى
فاكتوى بنار الحب الضائع قلبى . وذبل جمالى ولم أعد
أرقب المراكب حين تمر ، ولم أدر كيف عدت إلى دارى
لأن آفة كريهة ، أو مرضاً لافحا ، قد قضى على ،
وظللت أربعة أيام مسجى على فراشى وعشر ليال قضيتها فى ألم ممض .
فكرى فى حبى ، وفكرى من أين جاء ، أنت يا سيدة سيليني

وكثيراً ما جفت نضرة جسمي واصفرت كالهشيم الجاف،
أجل وتساقط شعر رأسي ، وكل ما كنته قبلا
لم يبق منه إلا جلد وعظم ، وما من إنسان إلا لجأت إليه ،
وما من طريق قامت فيه عجوز شمطاء تتلو فيه رقية حب إلا سلكته .
لكنني لم أجد عزاء ، ومرت الأيام سراعا .
فكرى فى حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني

والأنشودة الثانية تصل بنا إلى الحورية أمرلس Amaryllis ومفاتنها البعيدة المنال ، وتصل بنا الرابعة إلى الراعى كريدون Corydon والسابعة إلى لسداس Lycidas راعى المعز الشعرى– وتلك كلها أسماء قد تغنى بها آلاف الشعراء من فرجيل إلى تنيسن Tennyson . ولقد أصبح أولئك الشعراء الريفيون مثلا عليا ينطقون بأجمل الأشعار اليونانية ، وفى وسع كل منهم أن يقرض أبياتا سداسية الأوتاد أجمل من أبيات هومر ؛ ولكننا قد علمنا أن تراثهم ، الذى لا يكاد يدرك العقل جماله كأنه تقليد مألوف ، متوسط القدر حين نستسلم إلى ما فى أغانيهم من نغمة حزينة . بيد أن ثاوقريطوس بعيدهم إلينا أشخاصا واقعيين يحدثنا عن ثيابهم التى تفوح منها رائحة أجسامهم ، وحين يذكر لنا فحش أفكارهم ؛ ذلك أن فى فكاهاتهم من الفجور ما يحط بعض الشىء من رقيق عواطفهم فيجعلهم أناسا حقيقيين . وجملة القول أن هذا الشعر أكمل شعر يونانى كتب بعد يوريپديز ، وهو دون غيره من الشعر الهلنستى الباقى إلى يومنا هذا الشعرُ الذى تسرى فيه أنفاس الحياة .

الفصل الخامس

پوليبيوس

إذا كان العصر الهلنستى لم يلهم إلا شاعراً واحداً ، فإنه قد أخرج مقداراً من النثر مختلف الأنواع لم يخرج مثله عصر آخر قبله . ففيه ابتدع التحدث الخيالى وابتدعت المقالة ، ودائرة المعارف ، وواصل فيه الكتاب إخراج التراجم القصيرة الواضحة ، وأضاف الأدب اليونانى فى العهد الرومانى الذى تلا هذا العهد الذى نتحدث عنه الموعظة والرواية القصصية . أما الخطابة فكانت فى دور الاحتضار لأنها كانت تعتمد على النزاع السياسى ، والتقاضى أمام المحاكم الشعبية ، وعلى حق الناس الدمقراطى فى أن يتكلموا ، وأصبحت الرسالة الأداة المحبوبة لنقل الأفكار سواء فى التخاطب أو فى الأدب ، ففى هذا العصر تقررت صور الرسائل وعباراتها التى نجدها فى أقوال شيشرون ، بل تقررت أيضاً الديباجة الشهيرة التى كان يستمسك بها أجدادنا ويجلونها : « أرجو أن يصلك هذا وأنت بخير كما تركتنى »(٢٨) .

وازدهرت كتابة التاريخ ، فقد كتب بطليموس الأول ، وأراتوس الآخى وبيرس الإپيروسى مذكرات عن حروبهم ، فوضعوا بذلك تقليداً بلغ غايته فى قيصر . وكتب مانيثون الكاهن المصرى الأكبر باللغة اليونانية حوليات مصر Aigyptaka التى جمعت الفراعنة بطريقة تعسفية إلى حد ما فى أسر مالكة لا تزال هى التقسيم المتبع حتى اليوم . وأهدى بروسس كبير الكهنة الكلدان إلى أنتيوخوس الأول تاريخاً لبابل معتمداً على السجلات المسمارية . وأدهش مجستنيز Megasthenes سفير سلوقس الأول لدى شندراجوبتا موريا Chandragupta Mourya العالم اليونانى بكتاب عن الهند أخرجه حوالى عام ٣٠٠ . وجاء فى فقرة موحية من هذا الكتاب : « إن بين البراهمة طائفة من الفلاسفة . . .

تعتقد أن الله هو الكلمة ، وهم لايقصدون بها الكلام المنطوق بل يقصدون حديث العقل(٢٩) . وهنا أيضاً نجد عقيدة الكلمة التي قدر لها أن تكون ذات أثر عميق في الدين المسيحي . وقام تيماوس التر ومنيومى **Timoeus of Tauromenium** بعد أن نفاه أجثكليز **Agathocles** من صقلية (٣١٧) برحلات واسعة في أسبانيا وغالة ، ثم ألقى عصا التسيار في أثينة وكتب فيها كتابا عن صقلية وعن الغرب. وكان طالباً مجداً ، بلغ من حرصه على أن يدون في كتابه هذا كل شيء أن لقبه بعض منافسيه « جامع الأسمال العجوز » (٣٠) . وقد بذل غاية جهده في أن يصل إلى تواريخ صحيحة للحوادث التي رواها ، حتى عثر على طريقة تأريخ هذه الحوادث بدورات الألعاب الأولمبية . وكان شديد النقد لمن سبقه من المؤرخين ، وكان من حسن حظه أن مات قبل أن يشهد هجوم پوليبيوس الوحشي على كتابه(٣١) .

وأعظم المؤرخين في العصر الهلنستي واليوناني ، والمؤرخ الوحيد الخليق بأن يوضع إلى جانب هيرودوت وتوكيديدس ، هو پرلبيوس . وكان مولده في أركاديا عام ٢٠٨ . وكان والده ليكورتاس **Lycortas** أحد زعماء العصبة الآخية ، لقد اختير في مهمة سياسية في رومة عام ١٨٩ ، وعين استرتيموس في عام ١٨٤ . ونشأ ابنه في الجو السياسي ، ودرب للجندية بإشراف فيلوبيمين ، واشترك في حروب الرومان ضد الغاليين في آسية الصغرى ، وسافر مع والده في بعثة سياسية إلى مصر (٢٨٠) ، واختير ليكون قائد فرسان العصبة الآخية (هپاركوس **Hipparchos**) في عام ١٦٩(٣٢) ، لكن تفوقه هذا قد جر عليه كثيراً من المتاعب : ذلك أنه حين أراد الرومان أن يعاقبوا العصبة الآخية لتأييدها برسوس ضدهم أخذوا ألفاً من زعماء الآخيين رهائن إلى رومة ، وكان منهم پوليبيوس (١٦٧) . وظل في المنفى ستة عشر عاما يعاني فيها آلام النفي ، ومنها كما يقول هو نفسه « ضياع الروح المعنوية والشلل العقلي الذي بلغ أقصى حد »(٣٣) . ولكن سپيو الأصغر بذل له مودته ، وضمه إلى الدائرة السبيونية التي كانت تشمل الرومان المتعلمين ، وأقنع مجلس الشيوخ:

حين كان يشتت غيره من المنفيين فى أنحاء إيطاليا ، أن يسمح بأن يعيش پولبيوس معه فى رومة . ورافق سپيو فى كثير من الوقائع الحربية ، وأسدى إليه نصائح عسكرية قيمة ، وارتاد له سواحل أسپانيا وأفريقية ، ووقف إلى جانبه حين أحرق رومة (١٤٦) . وكان قبل ذلك قد نال حريته فى عام ١٥١ ، واختير فى عام ١٤٩ ليمثل رومة فى تنظيم الوفاق الذى تم بين المدن اليونانية وبين مجلس الشيوخ الرومانى ، سيدها البعيد عنها ، وما من شك فى أنه قد قام بهذا الواجب البغيض على خير وجه ، لأن كثيراً من المدن قد كرمته بإقامة أنصاب تذكارية له ، وإن لم يكن فى وسع الإنسان أن يعرف متى يشعر الناس بفضل أحد عليهم . وبعد أن عاش پولبيوس ستين عاما فى جد متواصل اعتزل هذا النوع من العمل ليكتب كتبه الثلاثة : رسالة فى الفنون العسكرية ، وحياة فيلوپيمين ، وكتاب التواريخ الضخم . ومات كما يموت السادة الأشراف ، فقد سقط عن ظهر جواده وهو عائد من رحلة صيد ، بعد أن بلغ الثانية والثمانين من العمر.

ولسنا نعرف قط رجلا كتب التاريخ مستنداً إلى أوسع مما استند إليه پولبيوس من علم ، وأسفار ، وتجارب . وكانت الخطة التى وضعها لكتابه خطة واسعة النطاق ، فلم يكن يقصد أن يكتب تاريخ بلاد اليونان فحسب ، بل كان يبغى كتابة تاريخ « العالم كله » (أى أمم البحر الأبيض المتوسط) من عام ٢٢١ إلى ١٤٦ ق. م . « تلك هى الخطة التى وضعتها ، ولكن كل شىء يتوقف على ما تحبونى به الأقدار من حياة تطول حتى أخرجها إلى حيز الوجود »[٣٤] . وكان يشعر بحق أن رومة هى مركز دائرة التاريخ السياسى فى الفترة التى يريد أن يؤرخها ، ولهذا أسبغ على كتابه وحدة جامعة إذ جعل رومة محور حوادثه ، ودرس بتشوف الرجل الدبلوماسى الوسائل التى استخدمتها رومة ، والتى تدعى كما يدعى البريطانيون أن الظروف هى التى ساقتها لها على غير قصد منها ، للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط[٣٥] . وكان شديد الإعجاب

بالرومان ، لأنه شاهدهم فى عصر مجدهم ؛ ولأن أكثر من عرفهم منهم هم خيرهم فى جماعة سپيو . وكان يشعر أنهم يتصفون بتلك الصفات التى لا توجد فى الخُلُق ولا فى الحكم اليونانى ، والتى كان عدم وجودها فى اليونان سبباً فى القضاء عليهم . وإذ كان هو من أبناء الأشراف وكان صديقاً للأشراف ، فإنه لم يكن يعطف قط على المراحل المتأخرة من الدمقراطية اليونانية التى لم تكن فى رأيه غير حكم الغوغاء . وكان التاريخ السياسى يبدو له دورة متكررة من الملكية المطلقة (أو الدكتاتورية)، والأرستقراطية ، والأُلِجركية، والدمقراطية، ثم الملكية المطلقة مرة أخرى . وكانت خير طريقة فى رأيه للنجاة من هذه الدورة هى طريق « الدستور المختلط » الشبيه بدستور ليقورغ أو دستور رومة — وهو الذى يقضى بوجود مواطنين يستمتعون بحقوق سياسية ولكنها حقوق محدودة ، ويختارون كبار الموظفين ، ولكن سلطانهم يحدد سلطان مجلس الشيوخ الأرستقراطى الدائم(٣٦) . وكانت هذه النظرة هى التى اهتدى بها فى كتابة تاريخ عصره .

وپولبيوس هو « مؤرخ المؤرخين » لأنه يهتم بطريقته كما يهتم بموضوعه . وهو يميل إلى التحدث عن الخطة التى يسير عليها ، ويعمد إلى التفلسف فى كل فرصة تتاح له . وهو يصور مؤهلاته على أنها خير المؤهلات ومثلها الأعلى ، ويصر على أن التاريخ ينبغى أن يكتبه أولئك الذين رأوا بأعينهم — أو استشاروا غيرهم ممن رأوا بأعينهم — مايصفونه من الحوادث . ينددد بتيماوس لأنه اعتمد على أذنيه بدل اعتماده على عينيه ، ويتحدث بفخر وإعجاب عن أسفاره فى البحث عن المعلومات ، والوثائق ، والحقائق الجغرافية ، ويذكر لنا كيف اخترق جبال الألب وهو عائد من أسبانيا إلى إيطاليا من نفس الممر الذى اخترقه هنيبال ، وكيف نزل إلى نهاية إصبع قدم إيطاليا ليحل رموز نقش تركه هنيبال فى بروتيوم(٣٧) . ويقول إنه يعتزم أن يجعل تاريخه دقيقاً بقدر ما تسمح به « ضخامة عمله ، والطريقة الشاملة التى عالجه بها »(٣٨) . وهو فى تاريخه رجل عقلى النزعة واقعيها ؛ ينفذ فكره فى ألفاظ الدبلوماسيين

الأخلاقية ليعرف ما تهدف إليه خططهم من اعتراضات حقيقية ، ويسره أن يدرك كيف يخدع الناس بسهولة أفرادا كانوا أو جماعات ، ويخدعون أكثر من مرة ، بنفس الحيل والأساليب التى خدعوا بها من قبل[٤٠] . ويقول فى عبارة شائقة استبق بها مبادئ مكيڤلى : « قلما يتفق العمل الخير مع العمل النافع ، وما أقل من يستطيعون الجمع بين العملين والتوفيق بينهما »[٤١] . وهو يقبل عقيدة الرواقيين الدينية التى تقول بوجود قوة إلهية مدبرة ولكنه يعطف مجرد عطف على الطقوس الدينية السائدة فى عصره ، ويسخر ضاحكا من عقيدة تدخل القوى غير الطبيعية فى شئون العالم[٤٢] . ويعترف بما للمصادفات من شأن فى التاريخ ، وما لعظماء الرجال من أثر فعال فى بعض الأحيان ، ولكنه لايتردد فى أن يكشف عن تسلسل العلل والمعلولات تسلسلا حقيقياً خارجا فى كثير من الأحيان عن إرادة الآدميين ، وبذلك يكون التاريخ مصباحا مضيئاً للعقول فى الحاضر والماضى[٤٤] . « ليس شىء أسرع تصحيحا لسلوك الناس من معرفة الماضى » و« خير تعليم وإعداد للحياة السياسية النشيطة هو دراسة التاريخ »[٤٥] ، « والتاريخ ، والتاريخ وحده ، هو الذى ينضج عقولنا ، ويهيئنا للنظر إلى الأشياء نظرة صحيحة مهما تكن الأزمات أو سير الحوادث »[٤٦] . وهو يرى أن خير طريقة لفهم التاريخ هى أن ينظر إلى حياة الأمة على أنها وحدة عضوية ، ثم تضم قصة كل جزء من أجزائها إلى تاريخ حياة الأمة بأجمعه . والذى يعتقد أنه إذا درس التواريخ منفصلة بعضها عن بعض يستطيع أن ينظر نظرة صحيحة إلى التاريخ بأجمعه ليشبه فى رأيى ذلك الرجل الذى نظر إلى أطراف حيوان كان من قبل حيا وجميلا ، ثم يتصور أنه كمن شاهد بعينيه الحيوان نفسه فى جميع حركاته وأدرك ما فيها من رشاقة وجمال »[٤٧] .

وقد أبقى الدهر على خمسة من الكتب التى قسم إليها پوليبيوس تواريخه ، وأبقى المختصرون قطعا متفرقة قيمة من الكتب الباقية . ومما يؤسف له أشد

الأسف أن إخراج هذه الفكرة العظيمة إلى حيز الوجود قد أفسدته لغة ذلك الوقت اليونانية الفاسدة ، ونقده المر لغيره من المؤرخين ، واقتصاره تقريباً على شئون الحرب والسياسة ، وتقسيمه قصته تقسيما سخيفاً إلى دورات أولمبية ،وكتابة تاريخ جميع أمم البحر الأبيض المتوسط فى كل دورة.مقدارها أربع سنوات ، وما أدى إليه ذلك من استطرادات مملة ومن انعدام التسلسل إلى حد يحير القارئ ويضله . ويسمو پولبيوس فى قصته أحيانا إلى البلاغة المسرحية ، ولكنه يتجنب بشدة الأسلوب الخطابى المزخرف الذى كان شائعا بين من سبقوه مباشرة من الكتاب ، حتى أنه ليفخر بثقل أسلوبه وخلوه من البهجة(٤٨) . وفى ذلك يقول أحد النقاد الأقدمين . « لا أعرف قط رجلا قرأ كتابه من أوله إلى آخره »(٤٩). ولقد كاد العالم أن ينساه ، ولكن المؤرخين سيظلون دهراً طويلا يدرسون كتابه لأنه كان من أعظم أصحاب النظريات فى كتابة التاريخ وأعظم من طبقوها فى كتاباتهم ، ولأنه جرؤ على أن يكون واسع الأفق فى كتابه ، وأن يكتب « تاريخا عاما »؛ولأنه فوق هذا وذاك أدرك أن الحقائق وحدها لاقيمة لها إلا مع شرحها وتفسيرها ، وأن الماضى لاقيمة له إلا من حيث هو جذورنا المتأصلة والضوء الذى ينير لنا حاضرنا ومستقبلنا .

الباب السابع والعشرون

الفن في عهد التشتت

الفصل الأول

موضوعات أشتات

لقد تأخر اضمحلال الحضارة اليونانية من ناحية الفن زمنا طويلا . ففي هذه الناحية لا يقل ازدهار العصر الهلنستي ، في خصوبة الإنتاج وفي الابتكار ، عن ازدهار أي عصر آخر في التاريخ . وما من شك في أن الفنون الصغرى لم يطرأ عليها شيء من الاضمحلال ، وأن مهرة الصناع في الخشب والعاج والفضة والذهب انتشروا في جميع أنحاء العالم اليوناني الذي اتسعت رقعته . وفيه بلغ الحفر على الجواهر والنقود أعلى درجاته ، وكان الملوك الهلنستيون في البلاد الممتدة إلى بكتريا يحلون نقودهم بالكثير من النقوش ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن القطعة ذات العشر الدرخمات من نقود هيرون الثاني كانت أجمل ما رأته العين في فن المسكوكات الذي سجله التاريخ . واشتهرت الإسكندرية بمن فيها من صائغي الذهب والفضة ، الذين لم يكن فنهم يقل جمالا عن أسلوب شعرائها الذي لا تشوبه قط شائبة ، كما اشتهرت بأحجارها الثمينة وأصدافها ذات النقوش البارزة الملونة ، وبخزفها الأخضر والأزرق ، وبفخارها المغطى بطبقة زجاجية بديعة ، وبزجاجها الكثير الألوان ذي النقش الدقيق الجميل . ويتجلى هذا الفن بأجلى مظاهره في مزهرية پورتلاند portland وهي في أغلب الظن من صنع الإسكندرية ، فقد نقشت عليها صور رشيقة محفورة في طبقة زجاجية ناصعة البياض في لون اللبن الصافي فوق جسم من الزجاج الأزرق . وما أشبه هذه

التحفة فى الزمن القديم بتحف چوسيا ودچود فى الزمن الحديث(*) .

وظلت الموسيقى شائعة بين جميع طبقات السكان ، وتبدلت فيها السلالم والأنغام فى اتجاه الرقة والحدة[١] ؛ وأدخلت الأنغام الناشزة القصيرة فى النغمات المتوافقة ؛ وازدادت الآلات والتآليف الموسيقية تعقيداً[٢] . وكبرت « زمارات پان » القديمة حوالى عام ٤٢٠ فى الإسكندرية حتى صارت مجموعة من الزمارات البرنزية ، وحسن تسبيوس حوالى عام ١٧٥ هذه الآلة فجعلها أرغناً يدار بالماء والهواء مجتمعين ويجعل فى مقدور العازف أن يحدث به نغمات من الصوت جد طويلة . ولسنا نعرف عن تركيب هذه الآلة أكثر مما ذكرنا ، ولكننا سنرى كيف تطورت تطوراً سريعاً فى أيام الرومان حتى صارت هى أرغن المسيحية وأرغن هذه الأيام[٣] . وكانت الآلات تجتمع فيتكون منها جوقة العازفين ؛ وكانت ألحان من الموسيقى الآلية الخالصة مكونة فى بعض الأحيان من خمس حركات تعزف فى ملاهى الإسكندرية وأثينة وسرقوسة[٤]. ونال عدد من مهرة الموسيقيين شهرة واسعة وأصبحت لهم مكانة اجتماعية تتناسب مع أجورهم العالية . وفى عام ٣١٨ كتب أرستكسنوس Aristoxenus التاراسى ، تلميذ أرسطو ، رسالة صغيرة تدعى قواعد الألحان صارت هى النص القديم الذى يرجع إليه فى النظريات الموسيقية . وكان أرستكسنوس هذا رجلا جادا ، لم يستسغ كما لم يستسغ معظم الفلاسفة موسيقى زمانه . ويروى عنه أثينيوس قوله فى عبارات سمعتها أجيال كثيرة من بعده : « بعد أن طغت البربرية على دور التمثيل ، وبعد أن فسدت الموسيقى وقضى عليها القضاء الأخير ، وأصبحنا نحن أقلية صغرى فى هذا الزمان ، نستعيد فى عقولنا ، ونحن جالسون بمفردنا ، ما كانت عليه الموسيقى فى الأيام الخالية »[٥] .

أما عمارة العصر الهلنستى فليس لها وقع فى نفوسنا لأن الدهر قد عدا عليها

(*) وقد سميت كذلك نسبة إلى دوق پورتلاند الذى جاء بها إلى رومة . وهى الآن فى المتحف البريطانى .

فسواها بالأرض وناصبها العداء بلا تفريق بين بعضها والبعض الآخر . غير أننا نستدل من الأدب ومن آثارها ، على أن فن العمارة اليونانى انتشر فى هذا العصر من بكتريا إلى أسبانيا . ولقد نشأ من التأثير المتبادل بين بلاد اليونان والشرق خليط من الأنماط : فغزت الأروقة المعمدة والعارضة الراكزة داخل آسية ، ودخلت الأقواس والعقود والقباء بلاد الغرب . ففى ديلوس نفسها ،وهى المركز اليونانى القديم،قامت تيجان العمد المصرية والفارسية . وقد بدا الطراز الدورى جامداً كئيباً فى عصر أولع بالرقة والزينة ، ولهذا أخذ يختفى من مدينة إثر مدينة ، فى الوقت الذى أخذ فيه الطراز الكورنثى المزخرف يرقى حتى بلغ ذروته . وكانت النزعة الدنيوية فى الفن تجارى فى سرعة تقدمها النزعة الدنيوية فى نظام الحكم ، وفى الشرائع والأخلاق ، والآداب ، والفلسفة ؛ وأخذت العمد المقامة حول البيوت ، والمداخل الواسعة ، والأسواق ، ودور القضاء ، وقاعات الجمعيات الوطنية ، ودور الكتب والتمثيل ، ومدارس التدريب الرياضى ، والحمامات ، أخذت هذه العمد تحل محل المعابد ؛ وكانت قصور الملوك أو الأفراد ميدانا جديداً ظهر فيه فن التخطيط والزخرف اليونانى . وصارت مداخل البيوت تزدان بالرسوم ، والتماثيل ، والنقوش على الجدران ، كما أخذت الحدائق الخاصة تحيط بالبيوت الواسعة الفخمة . وأنشئت للملوك بساتين وحدائق ، وبحيرات ، وسرادقات فى حواضر البلاد ، وكانت تفتح عادة للجماهير . وتطور فن تخطيط المدن ليجارى فن العمارة ، فخططت الشوارع على طراز هبودامس Hippodamus الرباعى ، وكان منها شوارع رئيسية لا يقل عرضها عن ثلاثين قدما — وهو عرض يتناسب مع الخيل والمركبات التى كانت وسائل النقل فى تلك الأيام . وكانت مدينة أزمير تزهو بشوارعها المرصوفة(٦) ، ولكن أكبر الظن أن معظم شوارع المدن الهلنستية كانت أرضا معبدة تعرف مساوئ التراب والطين .

وكثرت المبانى الجميلة كثرة لم يكن لها مثيل من قبل ؛ ففى أثينة شيدت فى

القرن الثانى العمد الكورنثية المقامة فى الأولمپيوم ووضع المهندس الرومانى كوسوتيوس Cossotius الخطة العامة للصرح الرحب العظيم الذى كان أفخم بناء فى أثينة — وكان قيام كوسوتيوس بهذا العمل قلباً للوضع المألوف وهو اعتماد رومة على الفنانين اليونان . ويصف ليڤى هيكل زيوس الأولمبى بأنه لم ير بناء غيره يليق لأن يكون مسكنا لإله الآلهة[٧] . ولا تزال ستة عشر عموداً من أعمدته قائمة وهى أجمل النماذج الباقية من الطراز الكورنثى . وفى إلوسيس أتم صلاح أثينة فى دور احتضاره ، وأتمت عبقرية فيلون ، هيكل الطقوس الخفية الفخم الذى بدأه پركليز فى موضع كان مكانا مقدساً منذ العصور الميسينية . ولم يبق من هذا الهيكل إلا قطع متفرقة ، ولكن بعضها يدل على أن التخطيط والنحت اليونانيين كانا لايزالان وقتئذ فى أوجهما . وقد كشف الفرنسيون فى ديلوس عن قواعد هيكل أپلو كما كشفوا عن مدينة كانت فى أيامها مزدحمة بالمبانى الفخمة المخصصة للأعمال التجارية أو لإيواء مائة من الآلهة اليونانية أوالأجنبية . وأقام هيرون الثانى فى سرقوسة كثيراً من المبانى الضخمة ذات الروعة والجلال ، وجدد دار التمثيل التابعة للبلدية وزاد فى مساحتها ، ولا نزال فى هذه الأيام نقرأ اسمه منقوشاً على حجارتها . وزين البطالمة مدينة الإسكندرية بالمبانى الشاهقة التى أذاعت اشتهارها بالجمال ، ولكن شيئاً من هذه المبانى لم يبق حتى الآن . وشاد بطليموس الثالث عند إدفو معبداً هو أفخم ما بقى من العمائر من عصر الاحتلال اليونانى ، وشاد خلفاؤه معبد أيزيس فى جزيرة فيلى وجددوا بناءه . وفى أيونيا أقيمت بيوت جديدة للآلهة فى ميليطس ، وپرينى Priene ، ومجنيزيا ،وغيرها من المدن ؛ وتم فى عام ٣٠٠ ق . م بناء المعبد الثالث لأرتميس فى إفسوس ، وشاد المهندسان بيونيوس Paeonius ، ودفنيس فى ديديا بالقرب من ميليطس معبداً أوسع من هذا تكريما لأپلو (٣٣٢ ق . م . — ٤١ م) ؛ ولاتزال صفحات الأعمدة الأيونية الفخمة التى كانت قائمة فى هذا المعبد باقية إلى اليوم . وفى برجموم أذاع

أومنيز الثانى شهرة عاصمته فى طول بلاد اليونان وعرضها بما أنشاه فيها من المبانى وخاصة مذبح زيوس الذائع الصيت الذى كشفه الألمان فى عام ١٨٧٨ ، وأعادوا بناءه بحذق عظيم فى متحف برجموم القائم فى برلين . وكانت مجموعتان فخمتان من الدرج حول بابين عظيمين لهذا المذبح تؤديان إلى بهو رحب ذى عمد ؛ وكان حول مائة وثلاثين قدما من القاعدة إفريز يبلغ فى أيامه من الفخامة ما بلغه ضريح الإسكندر فى القرن الرابع أو البارثنون فى القرن الخامس . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تزدن فى وقت من الأوقات بمثل ما ازدانت به فى تلك الأيام ، وأن حماسة مواطنيها ومهارة فنانيها لم تفعلا مثل ما فعلتاه فى ذلك الوقت من تحويل الكثير من مساكن أهلها إلى قصور فخمة ذات روعة وجمال .

الفصل الثانى

التصوير

التصوير فى العادة آخر فن عظيم ينضج فى الحضارة ؛ فهو فى المراحل الأولى من مراحل الثقافة يخضع للعمارة الدينية ولعمل التماثيل الدينية ، ولا يصبح فنا مستقلا إلا حين تدعوه الحياة والثروة الخاصة إلى زخرفة المنازل أو لتخليد ذكرى اسم من الأسماء . ولما أن أضعف موت الدمقراطية من معنى الدولة فى عقول الناس ، عاد الفرد إلى طلب السلوى فى منزله ، فشاد الأغنياء قصوراً يسكنون فيها ، وأدوا أجوراً عالية للفنانين الذين يستطيعون أن يزينوا فسقية أو يجملوا جداراً . فكانت الإسكندرية تتخذ التصوير على الزجاج وسيلة من الوسائل التى تزين بها الجدران ؛ وكانت جميع المدن الهلنستية تستخدم لهذا الغرض إطارات متحركة من الخشب ؛ وكان الأمراء والكبراء يفضلون عن هذه الإطارات الصور الضخمة المرسومة على ألواح من الرخام يمكن فصلها ووضعها فى أى مكان شاءوا . ويصف پوسنياس عدداً لا يحصى من الصور رآه فى تجواله ببلاد اليونان ، ولكن الدهر لم يبق منها إلا على رسوم حائلة من الخشب أو الحجارة ، ولهذا لا نجد سبيلا لمعرفة حقيقة هذه الصور إلا الحدس والتخمين والاعتماد على الصور الحائلة المتوسطة القدر المنقولة عنها والتى عثر عليها فى پمپاى ، وهركولانيم Hercolaneum وروما .

وظلت بلاد اليونان تضع مصوريها فى المستوى العالى الذى تضع فيه مثاليها ومهندسيها ، بل لعلها كانت تضع الأولين فى مستوى أعلى من مستوى الآخرين . وكانت تؤدى إليهم من الأجور مثل ما يؤديه الأمريكيون للمصورين فى هذه الأيام ، وتروى عن حياتهم قصصاً تدل على حبها وتكريمها لهم . منها أن تسكليز الإفسوسى ، حين لم ينل من الملكة استرتنيس Stratonice ما كان يرجو من

عطاء صورها وهى تعبث مع صائد سمك ، وعرض الصورة على الجماهير . ثم ركب البحر لينجو من القتل . ورأت استرتنيس « أن الصورتين قد عبرتا عن ملامحها وملامح الصياد تعبيراً يدعو إلى الإعجاب » فعفت عنه وسمحت له بالعودة(٨) . ولما استولى أراتس على سكيون أمر بإتلاف جميع صور طغاتها السابقين . وكان ملانثوس Milanthus (وهو مصور من رجال القرن الرابع)قدصور أحدهؤلاء الطغاة واسمه أركستراتوس Archestratus إلىجانب مركبته الحربية تصويراً حياً واضحاً تأثر به الفنان نيكلبز Neacles فتوسل إلى أراتس أن يبقى على الصورة ، وقبل أراتس رجاءه على شريطة أن يستبدل بصورة أراتس صورة أخرى لاتثير من البغض ما تثيره صورة هذا الرجل(٩). ويقول استرابون إن بروتجنيز Protogenes صور ساتيرة Satyrة(*)، وإلىجانبها صورة حجل وقد بلغت صورة الحجل من الإتقان درجة جعلت أخواتهالحية تناديه ، ثم محا المصور بعدئذ صورة الطائر حتى يقدر الناس جمال صورة الساتيرة(١٠) . ويقول بلنى إن هذا المصور نفسه وضع أربع طبقات من اللون على صورته الذائعة الصيت صورة ياليسوس Ialylsus (الذى يزعم الناس أنه مؤسس المدينة المسماة بهذا الاسم فى رودس) ، حتى تبقى الألوان ناضرة زاهية إذا ما أزال الدهر الطبقة العليا منها . ويقال إن بروتجنيز قد غضب من عجزه عن أن يصور الزبد الذى يتساقط من فم كلب ياليسوس تصويراً صادقا ، فلم يتمالك نفسه ورمى الصورة بإسفنجة يريد أن يتلفها . ووقعت الإسفنجة بطبيعة الحال على المكان المطلوب ، وتركت فى ذلك المكان بقعة من اللون شبيهة كل الشبه بالزبد الخارج من فم كلب يلهث . ولما أن حاصر دمتريوس پليورسيتيز جزيرة رودس أبى أن يشعل النار فى تلك المدينة لئلا تتلف هذه الصورة . ولم ينقطع بروتجنيز عن العمل أثناء الحصار فى مرسمه ، وكان هذا المرسم أمام خط زحف المقدونيين مباشرة . واستدعاه دمتريوس إليه وسأله :

(*) حيوان خرافى نصفه الأعلى آدمى ونصفه الأسفل ماعز . (المترجم)

لِمَ لَمْ يحتمِ داخل أسوار المدينة كما فعل غيره من المقدونيين ؟ فأجابه بروتجنيز بقوله : « ذلك بأنى أعرف أنك إنما تشن الحرب على أهل رودس لا على الفن » . فما كان من الملك إلا أن عين له حرساً يحميه ، وترك الحصار ليشاهد أعمال الفنان العظيم[11] .

وكان المصورون الهلنستيون يعرفون خداع المنظور ، وتمثيل الأشخاص بارزين فى عين الناظر ، وسقوط الضوء ، وتجمع الأشكال . ومع أنهم لم يستخدموا المناظر الطبيعية إلا لتكون مؤخرة للصورة لتجميلها ، وأنهم صوروها حين استخدموها بطريقة خالية من الحياة جارية على العرف (إذا حكمنا عليها مما نقل عنها من الصور فى بمبياى) ، فإنهم أدركوا على الأقل أن الطبيعة موجودة ، وجعلوا لها مكاناً فى الفن فى الوقت الذي كان ثيوقريطس يجعل لها مكاناً فى الشعر . ولكنهم كانوا شديدى الولع بالإنسان وبأعماله كلها إلى حد غفلوا معه عن الأشجار والأزهار . لقد اقتصر أسلافهم على رسم الآلهة والأغنياء من الآدميين أما الفنانون الهلنستيون فقد افتتنوا بكل ما هو آدمى وتبينوا أن الموضوع القبيح المنظر قد يصور تصويراً جميلا أو على الأقل يأتى بأجر كبير ، فانقلبوا يصورون الحياة البشرية بحماسة كحماسة الهولنديين ، وسرهم أن يصوروا الحلاقين والأساكفة والعاهرات ، والخياطات ، والحمير ، والرجال المشوهين ، والحيوانات الغريبة . ثم أضافوا إلى هذه الصور المأخوذة من الحياة المألوفة أو الريفية ، صوراً من الحياة الساكنة الجامدة — كالكعك ، والبيض ، والفاكهة ، والخضر ، والسمك ، والطير ، والحيوان المصيد ، والخمر ، وكل ما يتصل بها من الطقوس القديمة . وكان سوسوس **Sosus** البرجومى يسلى معاصريه بأن يمثل لهم أرضاً من الفسيفساء الخادعة لا تزال منتشرة عليها بقايا وليمة[12] . لكن المصورين المحافظين قد ساءهم هذا فأخذوا يندون بهؤلاء الذين يرفعون من شأن الأشياء العادية ويصفونهم بأنهم

يصورون الفحش والأقذار Pornographoi and rhparographoi وحرم القانون فى طيبة تصوير الأشياء القبيحة(١٣) .

وقد أنقذت حمم بركان فيزوف بعض روائع ذلك العصر الكبيرة من النسيان وإن لم تحفظ لنا هذه الحمم أسماء أصحابها . وقد وجد فى أستيا مظلم يبدو أنه صورة ضعيفة منقولة عن أصل هلنستى ، وهى معروفة لدينا باسم عرس الألدر برنادينى The Aldorbrandini Wedding نسبة إلى الأسرة الإيطالية التى كانت تمتلكها قبل أن تجد لها مكاناً فى متحف الفاتيكان . وفى هذه الصورة تظهر أفرديتى ممتلئة الجسم شبيهة بصور الرسام الهولندى روبنز Rubens تبعث الشجاعة فى قلب العروس الخائفة ، على حين ينتظر العريس ، وهو فى غير حاجة إلى من يستحثه ، على أحر من الجمر إلى جانب الفراش . وأجمل هاتين الشخصيتين الرئيسيتين صورة امرأة رشيقة توقع نشيدا على مزهر حائل اللون . وثمة صورة جدار من بمبياى يقول بعض الخبراء ، وإن لم يرق قولهم إلى مرتبة اليقين ، إنها منقولة عن أصل يونانى رسم فى القرن الثالث . وهى تصور أخيل وإلى جانبه بترَكلوس ، يسلم ، وهو غاضب ، بريسيس لعجوز أجممنون . ويبدو لأذواقنا ومألوف عاداتنا أن فى صور الآدميين فى هذا الرسم من الحجم أكثر مما فيها من الجمال ، ذلك أننا قد ألفنا أن نرى أجساماً أقل من هذه الأجسام وسيقاناً أطول من تلك السيقان ، ولكننا يجب أن نسلم أن الفنانين الأقدمين كانوا يعرفون الرجال اليونانيين والنساء اليونانيات ، أحسن مما نعرفهم نحن أو يعرفهم من سيأتون بعدنا . وقد ذهب الزمان بنضرة هذه الصور ؛ وما من شىء يستطيع أن يعيد لها ما كان لها من بهاء ونضارة ، كانا بلا ريب موضع إعجاب جمهرة الشعب وملوكه ، إلا الخيال القوى القادر على تصوير ما كانت عليه فى الأيام الخوالى.

وأوقع من هذه فى النفس قطع من الفسيفساء(*) الرومانية منقولة على

(*) وهذه الفسيفساء وصورة أخيل وبريسيس محفوظتان فى متحف نابلى .

ما يظهر عن رسوم هلنستية . لقد كانت الفسيفساء من الفنون القديمة فى مصر وأرض الجزيرة، ثم أخذها عنهما اليونان وسموا بها إلى أعلى الدرجات، فكانت الصورة تقسم بالخطوط إلى مربعات صغيرة ، وكانت المكعبات الرخامية الدقيقة تلون بحيث إذا وضع بعضها إلى جانب البعض الآخر مثلت الصورة تمثيلا لايبليه الزمان ؛ ولاتزال قطع من الفسيفساء محتفظة بألوانها تقص علينا القصة القديمة وإن كانت قد وطأتها أرجل لاُيحصى عديدها . وقد عثر فى پمپياى على صورة تمثل واقعة إسوس ، يرى بعضهم أنها ذات صلة بصورة يونانية من تصوير فلكسينوس (وإن كان هذا مشكوكا فيه) . وتتكون هذه الصورة من نحو ١,٥٠٠,٠٠٠ حجر ، لا تزيد مساحة كل منها على مليمترين مربعين أو ثلاثة مليمترات ، ويبلغ طول هذه الفسيفساء كلها ست عشرة قدما ، ويبلغ عرضها ثمانى أقدام . وقد ألحق بها الزلزال وثوران البركان اللذان نكبت بهما پمپياى فى عام ٧٩ م . ضرراً بليغاً ، ولكن ما بقى منها يكفى للدلالة على ما كانت تمتاز به هذه الصورة من براعة وقوة . ففيها يرى الإسكندر وقد اسود جسمه وانتفش شعره من وهج الشمس وقذارة الماء ، يوجه الهجوم وهو على ظهر جواده بوسفلسوس Bucephalus ، ولا يبعد إلا بضع أقدام عن مركبة دارا الحربية . وقد ألقى عظيم من عظماء الفرس نفسه بين الملكين ، وتلقى فى جسمه طعنة من رمح الإسكندر . وينحنى دارا من مركبته نحو صديقه المجندل ، غير عابئ بما يتعرض له من الخطر (لأن الإسكندر يوجه إليه طعنته الثانية) ووجهه ملىء بالقلق والحزن . ويهجم فرسان الفرس لينقذوا مليكهم ، ويظل رمح الإسكندر متزناً فى الهواء . وأهم ما فى هذه الصورة وأبدعه هو تمثيل العواطف الكثيرة المعقدة فى وجه الإسكندر ؛ ولكن أجمل رأس فى هذه المجموعة كلها هو رأس جواده . وليس فى الفسيفساء كلها ما هو أعظم من هذه القطعة .

الفصل الثالث

النحت

لم تبلغ التماثيل من الكثرة فى عصر من العصور مثل ما بلغته فى العصر الهلنستى ، فقد كانت الهياكل والقصور ، والدور والشوارع ، والحدائق والبساتين كلها غاصة بالتماثيل التى تصور كل ناحية من نواحى الحياة البشرية وكثيراً من مظاهر العالم النباتى والحيوانى . وكانت تماثيل نصفية تخلد إلى وقت ما الموتى من الأبطال والمشهورين من الأحياء ، وانتهى الأمر بأن نحتت من الحجارة تماثيل للمعانى المجردة كالحظ ، والسلام ، والنميمة ، والفرصة السانحة .

وقد صنع يوتكيديز السكيونى Eutychides of Sicyon تلميذ ليسبوس Lysippus لمدينة أنطاكية أنموذجاً ذائع الصيت لتمثال الحظ ليمثل فيه روح المدينة وآمالها . وواصل تماخوس Timachus وسفسودوتسوس Cephisodotus ابنا پركستليز تقاليد النحت الأثينى الظريفة . وفى البلوپونيز طبقت شهرة دمفون المسينى Damphon of Messene الخافقين حين نحت مجموعته الضخمة المكونة من دمتر ، وپرسفونى ، وأرتميس . غير أن الكثرة الغالبة من المثالين الجدد كانت تتبع أقرب طريق ينقذها من الموت جوعا ألا وهو تزيين قصور الملوك والعظماء اليونان الشرقيين .

ونشأت فى جزيرة رودس فى القرن الثالث مدرسة فى النحت ذات طابع خاص لا مثيل له فى غيرها من المدارس . فلقد كان فى الجزيرة مائة تمثال ضخم يكفى الواحد منها على حد قول پلنى ، لأن ينشر فى الآفاق شهرة مدينة . وكان أعظمها كلها تمثال ضخم من البرنز لهليوس Helios إله الشمس صنعه كاريز

اللندوسي Chares of Lindus حوالى عام ٢٨٠ . وتقول رواية ضعيفة إن كاريز هذا قد انتحر حين رأى أن نفقة التمثال قد زادت كثيراً على ما كان مقدراً لها ، وإن لاكيز اللندوسي Laches of Lindus أتم التمثال . ولم يكن هذا التمثال مقاماً فوق المرفأ بل كان مقاماً إلى جانبه ويعلو إلى ارتفاع مائة قدم وخمس أقدام ؛ ويوحى هذا الحجم بأن ذوق أهل رودس كان يتجه نحو المظاهر الفخمة والضخامة ، ولكن لعل الروديسين كانوا يستخدمونه منارة للسفن ورمزاً للجزيرة . وإذا جاز لنا أن نصدق ما جاء فى قصيدة فى ديوان الشعر اليونانى(١٥) فإن هذا التمثال كان يرفع بيده ضوءاً وأنه كان يرمز إلى الحرية التى تستمتع بها رودس — وتلك سابقة عجيبة لتمثال شهير فى أحد الثغور الحديثة(*) . وكان هذا التمثال بلا ريب يعد إحدى عجائب الدنيا السبع ؛ ويقول بلنى إنه :

« قد ألقاه على الأرض زلزال بعد ست وخمسين عاما من إقامته : وإنه قلما يوجد من الرجال من يستطيع تطويق إبهامه بذراعيه ، وإن أصابع يديه أكبر من أجسام معظم التماثيل ، وإنه إذا ما كسرت أطرافه شوهدت فى داخل الجسم كهوف واسعة مفتوحة . ويرى فى داخله أيضا صخور ضخمة أراد المثال أن يثبت بها التمثال فى موضعه أثناء اشتغاله بإقامته . ويقال إنه قضى فى نحته اثنتى عشرة سنة ، وإن نفقاته بلغت ثلثمائة وزنة — وقد حصلت الجزيرة على هذا المبلغ من آلات الحرب التى تركها دمتريوس وراءه بعد حصاره الفاشل للجزيرة(**)(١٦) » .

وكان يضارع هذا التمثال فى شهرته التاريخية مجموعة أخرى من صنع المدرسة الرودسية تعرف باسم اللاوكوئن Laocoön. وقد شاهد بلنى هذه المجموعة فى قصر الإمبراطور تيتس ، وعثر عليها عام ١٥٠٦ م فى حمامات هذا

(*) يبلغ ارتفاع تمثال الحرية مائة وإحدى وخمسين قدما من القاعدة إلى طرف الشعلة .

(**) وقد بقى فى المكان الذى سقط فيه حتى بيعت مواده فى عام ٦٥٣ . وقد استخدمت فى نقلها تسعمائة بعير(١٧) .

الإمبر طو ؛ ولا يكاد يخامرنا أدنى شك فى أنها هى المجموعة الأصلية التى نحتها أجسندر Agesandar ، وپليدوروس Polydorus ، وأثينودوروس Athenodorus من قطعتين كبيرتين من الرخام فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد[١٨]. وقد هز كشفها مشاعر إيطاليا فى عهد النهضة وكان لها أعمق الأثر فى ميكل أنجلو الذى حاول عبثاً أن يعيد إلى التمثال الأوسط فيها ذراعه اليمنى الضائعة(*). وكان لاوكوون الذى تسمى المجموعة باسمه كاهنا طرواديا نصح الطرواديين بألا يقبلوا الحصان الخشبى حين بعث به اليونان إليهم وقال لهم ، كما يروى ڤرچيل ، « إنى أخشى اليونان حتى وهم يحملون إلينا الهدايا Timeo Danaos et dona ferentes [١٩] » وأرادت أثينا التى تحب اليونان أن تعاقبه على حكمته فأرسلت إليه حيتين لتقتلاه . فقبضتا أولا على ولديه ، وأبصرهما لاوكوون فهجم عليهما لينقذهما ، فوقع بين طيات الحيتين ، وانتهى الأمر بأن طحنت أجسامهم جميعاً وماتوا من سم أنياب الحيتين . ولقد أجاز المثالون لأنفسهم ما أجازه ڤرچيل لنفسه (وما أجازه لنفسه سفكليز فى فلكتيتس) فعبروا عن الألم بقوة ، ولكن النتيجة لاتتفق وما فى طبيعة الحجر من دوام . إن الألم فى الأدب وفى الحياة عادة لايدوم ؛ إما فى اللاوكوون فإن صرخة الألم قد دامت دواما غير طبيعى ، والناظر إليها لا يتأثر كما يتأثر بحزن دمتر الصامت (**) . على أن الذى يثير إعجابنا هو براعة الفكرة وإتقان التنفيذ . نعم إن العضلات قد بولغ فيها ، ولكن أطراف الكاهن الشيخ ، وجسمى ولديه قد صيغا صياغة مثلث فى كثير من الهيبة والتحفظ . ولعلنا لو عرفنا

(*) والذراع المعادة التى فى الفاتيكان من صنع برنينى Bernini وهى متقنة الصنع فى تفاصيلها ، غير أنها تفسد على المجموعة وحدتها المركزية . لكن ونكلمان رغم هذا قد أعجب بالمجموعة إعجابا حمل لسنج Lessing حين قرأ وصفه إياها على أن يؤلف كتابا فى نقد حاسة الجمال ، يشير إليها تارة من طرف خفى ويدور حولها تارة أخرى فى صراحة واضحة .

(**) البادى فى تمثال دمتر المحفوظ بالمتحف البريطانى .

القصة قبل أن نشاهد المجموعة لتأثرنا بها كما تأثر پلنى ، الذى ظنها أعظم عمل من أعمال الفن اللدن [٢٠] .

وقامت فى مراكز يونانية أخرى مدارس زاهرة للنحت فى هذا العصر الذى لم يقدره الناس حق قدره ؛ غير أن الإسكندرية قد انقلبت أرضها وتبدلت مبانيها مراراً كثيرة فى أثناء تاريخها الطويل ، فلم تحتفظ بما أقامه الفنانون اليونان للبطالمة من أعمال ؛ وكل ما بقى من الأعمال الجليلة الشأن هو تمثال النيل الوقور المحفوظ فى متحف الفاتيكان والذى يسنده ستة عشر طفلا ترمز إلى ستة عشر قيراطا التى يعلوها النهر فى فيضانه . وقد نحت مثال يونانى من صيدا عدداً من التوابيت لطائفة غير معروفة من الكبراء أحسنها كلها التابوت المسمى خطأ بتابوت الإسكندر والمحفوظ فى متحف اسطنبول . ويضارع ما فيه من الحفر ما فى إفريز البارثنون وإن قل عنه فى الكم ؛ فالصور جميلة متقنة التناسب ، والنحت قوى ولكنه واضح ، والألوان الهادئة التى لاتزال عالقة بالحجارة تدل على العون الذى كان يلقاه النحت اليونانى من فن التصوير . وصب أپلونيوس وتورسكس فى ترالس Trallas من أعمال كاريا Caria حوالى ١٥٠ ق. م. مجموعة ضخمة من البرنز لرودس تعرف الآن باسم ثور فارنيز . وتتألف هذه المجموعة من غلامين وسيمين يسيطان درسى Dirce الجميلة ويدفعانها إلى قرنى ثور وحشى ، لأنها أساءت معاملة أمهما أنتيوبى Antiope التى تنظر إليهما راضية مطمئنة اطمئناناً تعافه النفس(*) . وفى برجموم صب المثالون اليونان من البرنز عدة مجموعات حربية أقامها أتلس أول الأمر فى عاصمة ملكه ليخلد بها ذكرى صد غازات الغاليين . وأراد أتلس أن يعبر عما تشعر به الثقافة اليونانية بأجمعها من فضل أثينة عليها ، ولعله أراد أيضاً أن

(*) وأصل هذه المجموعة ضائع . وقد عثر فى القرن السادس عشر وفى حمامات كركلا Cararcalla على نسخة رخامية رومانية منقولة عنها فى القرن الثالث الميلادى ، وأصلحها ميكل أنجلو ، واحتفظ بها وقتا ما فى قصر فارنيز وهى الآن فى متحف نابلى .

يذيع شهرته ، فأهدى صوراً من هذه المجموعة لتقام على الأكبر پوليس بأثينة . وقد بقيت قطع صغيرة منها فى صورة الغالى المحتضر المحفوظة فى متحف الكپتولين ، وفى الصورة المسماة خطأ پيتس وأريا(*) — وهى صورة غالى يؤثر الموت على الأسر فيقتل زوجته أولا ثم يثنى بنفسه — وفى قطع أخرى أصغر منها منتشرة الآن فى مصر وأوربا . ولعل من هذه المجموعة أيضاً صورة الأمزونة الميتة(**) التى لا عيب فى تفاصيلها كلها عدا ثدييها اللذين بلغا من الكمال حداً لايتصوره العقل . وتكشف هذه الصور عن تحفظ فى التعبير عن الانفعالات شبيه بما كان فى عصر اليونان الزاهر . فالرجال المغلوبون يقاسون الآلام والأحزان المبرحة ، ولكنهم يموتون وهم صابرون ؛ وقد أجاز المنتصرون للفنانين أن يمثلوا فضائل أعدائهم كما يمثلون هزيمتهم . ولسنا نتبين هنا أى دليل على نقص القدرة على التفكير أو دقة ملاحظة أجزاء الجسم ، أومهارة التنفيذ أو الصبر عليه . ولايكاد يقل عن هذه المجموعة كمالا النقش العظيم الذى كان يمتد على طول قاعدة مذبح زيوس وأكرپوليس برجموم ، والذى يقص مرة أخرى قصة الحرب التى نشبت بين الآلهة والجبابرة — ويبدو أن هذا النقش تمثيل متواضع للحرب بين أهل برجموم والغاليين . والنقش هنا شديد الازدحام ، ويبدو أحياناً عنيفاً عنفاً مسرحياً ، ولكن بعض رسومه تضارع خير ما أنتجه الفن اليونانى . فصورة زيوس التى لا رأس لها منحوتة بقوة لا تقل عن قوة اسكوپاس Scopas ، والإلهة هكتى Hecate مثال فى الرشاقة والجمال بين أهوال الحرب وفظائعها .

وكان هذا العصر غنياً بما فيه من روائع الفن التى لايعرف أصحابها والتى تكاد تشمل صوراً لجميع الآلهة الكبار ، ونذكر منها رأس زيوس الفخم الذى

(*) فى متحف ترمى Museo delle Terme فى رومة .

(**) فى متحف نابلى .

عثر عليه فى أتركولى Atricoli وتمثال لودوفيزى هيرا Lodovisi Hera المحفوظ فى متحف ترمى ، وقد أعجب بهما جيته فى شبابه إعجاباً حمله على أن ينقل معه قالبين لهما إلى ألمانيا كأنهما تذكاران حقيقيان أهداهما إليه چوف ويونو . أما أبلو بلفدير الذى كان من قبل موضع الإعجاب فهو فاتر متكلف خال من دلائل الحياة ، ولكنه مع ذلك أزكى نار الحماسة فى قلب ونكلمان منذ قرنين من الزمان(٣١) . ويختلف أشد الاختلاف عن هذا التمثال الأملس الضعيف تمثال هرقل الفارنيزى الذى نقله جليكون Olycon الأثينى عن أصل له يعزى إلى ليسبوس — وجسمه الضخم كله عضلات ، وكله ملل ، وكله حنو ، ووجهه كله عجب ودهشة — كأن القوة كانت تسأل نفسها ذلك السؤال الذى لم يجب عنه أحد قط : ماذا يجب أن يكون هدفها ؟ أما أفروديتى فقد أخرج لها ذلك العصر تماثيل لا يقل عنها فى عددها إلا عبادها وحدهم ؛ وقد بقى عدد من هذه التماثيل معظمها مما نقله الرومان عن أصولها اليونانية . غير أن تمثال أفروديتى ميلوس المحفوظ فى متحف اللوفر والمعروف فيه باسم زهرة ميلوبيدو أنه تمثال يونانى أصيل نحت فى القرن الثانى قبل الميلاد . وقد عثر على هذا التمثال فى ميلوس عام ١٨٢٠ بالقرب من قطعة من القاعدة نقشت عليها الحروف ساندوس Sandos ، وربما كان أجسندر الأنطاكى واسمه مأخوذ من سرادق الفاتيكان الذى وضع فيه التمثال أولا ، هو الذى نحت هذا التمثال العادى المتواضع .

وليس لوجه التمثال ذلك الجمال الرقيق الذى يزدان به وجه التمثال الموضوعة صورته فى الصفحة الأولى من هذا المجلد ، ولكن الجسم نفسه ممتلئ بالصحة التى يكون الجمال ثمرتها الطبيعية . ولسنا نرى فيه ذلك الخصر النحيل الذى لا يتفق مع الجسم الملئ والوركين المكتنزتين . ولم يبلغ هذا الكمال كله تمثالا ڤينوس الكپتولينية ، وڤينوس الميديشية(*) . وتمثال ڤينوس كلپيجى

(*) والتمثال الأول محفوظ فى متحف الكپتولين فى رومة والثانى فى متحف أفيزى بفلورنس .

Veuns Callpyge أو ڤينوس ذات الإليتين الجميلتين (*) يثير الغريزة الجنسية قوية ، وقد غطيت فيه مفاتنها لكي تكشف عنها ، وتلتفت لتبدى إعجابها بردفيها فى البحيرة . وأوقع من هذه التماثيل كلها فى النفس تمثال نيكى Nike أو نصر سموثريس الذى وجد فى ذلك المكان عام ١٨٦٣ ، وهو الآن أروع آيات النحت فى متحف اللوڤر (**) . وقد مثلت إلهة النصر كأنها تحط وهى طائرة بأقصى سرعتها على مقدم سفينة مسرعة ، وتقودها إلى الهجوم . ويخيل إلى الرائى أن جناحيها العظيمين يجذبان السفينة ضد النسيم الذى يعبث بأثوابها . وهنا أيضاً تسيطر على التمثال فكرة اليونان عن المرأة ، وهى أنها ليست متعة حلوة فحسب ، بل إنها فوق ذلك أم قوية . فليس جمالها هو جمال الشباب الضعيف الزائل بل هو نداء المرأة الذى يدوم طول الحياة للرجل لكى يسمو بنفسه إلى الأعمال الجليلة ؛ وكأنما أراد الفنان أن يمثل هنا السطور الأخيرة من فوست Faust للشاعر جيته . لعمرى إن حضارة تستطيع أن تفكر فى هذا التمثال وأن تنحته لحضارة أبعد ماتكون عن الموت .

ولم تكن الآلهة أهم ما يعنى به المثالون الذين ازدان بهم خريف الفن اليونانى ؛ لقد كان هؤلاء الفنانون ينظرون إلى أولمپس نظرتهم إلى معين من الموضوعات لا أقل من ذلك ولا أكثر . ولما أن نضب هذا المعين من كثرة ما أخذ منه انتقلوا إلى الأرض نفسها وسرهم أن يمثلوا ما فى الحياة البشرية من حكمة وجمال ، وغرابة وسخافات . فنحتوا أو صبوا رؤوساً ذات

(*) فى متحف نابل .

(**) وكان يعتقد أولا أن دمتريوس بليوكريتز قد أقامه فى عام ٣٠٥ ليخلد به ذكرى انتصاره البحرى على بطليموس الأول قرب سلاميس القبرصية عام ٣٠٦ ق م . ولكن الجدل الحديث يميل إلى جعل هذا التمثال ذا صلة بمعركة كوس (٢٥٨ أو معركة أخرى من نوعها) وهى المعركة التى انتصرت فيها أساطيل مقدونية ، وسلوقيا ، ورودس على بطليموس الثانى .

روعة لهومر ، ويوربيديز ، وسقراط . وصنعوا عدداً من التماثيل الملساء الرقيقة لهرمفروديتى Hermaphrodite يستلفت العين جمالها الغامض ؛ وهى قائمة فى متحف العاديات باسطنبول ، أو فى معرض بورجا فى رومة ، أو فى متحف اللوفر . وكان الأطفال فى هذه التماثيل يقفون وقفات طبيعية منشطة ، كوقفة الغلام الذى يخرج شوكة من قدمه ؛ والغلام الآخر الذى يقاتل إوزة(*) . وأجمل ما فى هذا الصنف من التماثيل تمثال الشاب القائم للصلاة والذى يتجلى الإيمان فى وجهه ، ويعزى هذا التمثال إلى بوئيثس Boëthus تلميذ ليسيبوس(**) . وكان المثالون يذهبون إلى الغابات ويصورون جن الغاب كجنية بربرينى المحفوظ تمثالها فى ميونخ Munich أو الساترات الفرحة كتمثال سيلينس السكرى المحفوظ فى متحف نابلى . وكانوا يضعون فى مواضع متفرقة بين صورهم الوجنتين المتوردتين والحيل الخادعة الماكرة التى يعزوها الأقدمون إلى إله الحب .

(*) وكلاهما فى متحف الفاتيكان .

(**) فى متحف الدولة ببرلين .

الفصل الرابع

تعليـــــق

إن إقحام الفكاهة الفجائى على النحو الذى وصفناه فى الفصل السابق فى موضوعات النحت اليونانى التى كانت من قبل موضوعات مقدسة الطابع، لمن الخصائص التى يمتاز بها الفن الهلنستى. ولقد احتفظ كل متحف من المتاحف بين ما احتفظ به من آثار ذلك العصر بتمثال لإله الحقول يضحك، أو إله الرعاة يغنى، أو إله الشراب يصخب، أو لغلام يستخدم فوارة يخرج منها الماء بطريقة يأباها الذوق والأدب. ولعل عودة الفن اليونانى إلى آسية قد أرجعت له ما كاد يفقده فى عهد اليونان القديم، حين كان خاضعاً للدين والدولة، من اختلاف فى الشكل، ومن شعور وتحمس قويين. لقد بدأ الفنانون وقتئذ يستمتعون بالطبيعة بعد أن كانوا من قبل يعبدونها. ولم يكن هذا لأن الاعتدال القديم قد زال: فهاهو ذا تمثال شاب سبياكو Subiaco فى متحف ترمى، وتمثال أدريدنى النائمة (Adriadne)، فى متحف الفاتيكان، والفتاة الجالسة فى قصر الكنسرفتورى كلها تواصل تقاليد پركستيليز وما فيها من رقة؛ وظل كثيرون من المثالين فى أثينة طوال ذلك العصر يقاومون النزعات «الاعتدالية» التى فشت فى أيامهم بعودتهم متعمدين إلى أنماط القرن الرابع والقرن الخامس، بل إنهم كانوا من حين إلى حين يعودون إلى الوقار القديم وقار القرن السادس. لكن روح العصر كانت روح التجارب، والفردية، والنزعة الطبيعية، والواقعية، مع وجود تيار قوى خفى نحو الخيال، والمثالية، والعاطفية، والتأثير المسرحى. وأخذ الفنانون يعنون بالإفادة من تقدم التشريح، ويكثرون من استخدام النماذج الحية فى متاحفهم ومراسمهم؛ فكان المثالون ينحتون تماثيل لاينظر إليها الإنسان من الأمام فحسب، بل ينظر إليها من جميع النواحى

وأخذوا يستخدمون مواد جديدة — كالبلور ، والعقيق الأبيض ، والياقوت والزجاج ، والبازلت القاتم اللون ، والرخام الأسود ، والرخام السماق ليقلدوا لون الزنوج ، أووجوده الناترات المتوردة التي تزيد الخمر بريقها .

وكان خصب اختراعهم يضارع سيطرتهم الفنية ؛ ذلك أنهم قد ملوا تكرار الأنماط القديمة ، وكأنهم عرفوا مقدماً ما يعيبه رسكن على الفنانين(*) ، فاعتزموا أن يظهروا في صورهم ما للأشخاص والأشياء من وجود حقيقي ومن خواص فردية . ولم يعودوا يقتصرون على تمثيل ماهو كامل وجميل ، كالرياضيين والأبطال ، والآلهة ، بل أخذوا يخرجون صوراً من الحياة الريفية المألوفة ، أو تماثيل من الآجر للصناع ، وصائدي السمك ، والموسيقيين ، والبائعين والمشترين في الأسواق ومدربي الخيول والخصيان وبحثوا عن موضوعات غير مطروقة في الأطفال والفلاحين ، وفي شخصيات ممتازة كسقراط ، وفي رجال شيوخ حاقدين كدمستين ، وفي وجوه قوية تكاد تكون وحشية كوجه يوثدموس Euthydemus الملك البكتري اليوناني ، وفي أماكن مهجورة منبوذة كتمثال امرأة السوق العجوز المحفوظ في متحف نيويورك . وقد أدركوا وأحبوا تنوع مظاهر الحياة وتعقدها . ولم يترددوا في أن يكونوا في تماثيلهم وتصويرهم شهوانيين ؛ فلم يكونوا آباء يحرصون على عفة بناتهم ، أوفلاسفة تقض مضاجعهم ما تؤدي إليه النزعة الفردية الأبيقورية من عواقب اجتماعية خطيرة ؛ بل كانوا يشاهدون مفاتن الجسم ، وينحتونها ، ويبرزون الجمال الذي يستطيع أن يسخر إلى حين من الزمن وما يحدثه فيه من آثار . ولقد تحرر

(*) «ليست هناك صفة شخصية في الفن اليوناني — بل فيه آراء مجردة عن الشباب ، والشيخوخة ، والقوة ، والسرعة ، والفضيلة ، والرذيلة — ؛ ولكنه خال أيضا من الفردية(٢٣) » . إن رسكن لم يكن يفكر إلا في الفن اليوناني في القرنين الخامس والرابع ؛ كما أن ونكلمان ولسنج كانا يعرفان بنوع خاص فن العصر الهلنستي .

هؤلاء المثالون من قيود العرف التي كانت تسود العصر الزاهر القديم ، فانهمكوا في إبراز العواطف الرقيقة ، وصوروا بإحساس قوى وإخلاص عظيم رعاة يموتون بعد أن تكشف لبصائرهم حقيقة الحب وآلامه ، ورؤوساً جميلة سابحة في أحلام اليقظة ، وأمهات يفكرن بحنان في أبنائهن : لقد بدت لهم هذه الموضوعات أيضاً جزءاً من الحقيقة الخليقة بالتسجيل ؛ ثم واجهوا في آخر الأمر حقائق الألم والحزن ، والفواجع المحزنة ، والموت في شرخ الشباب ، وعقدوا النية على أن يجدوا لها مكاناً فيما يمثلونه من نواحي الحياة البشرية .

وليس ثمة دارس مستقل في تفكيره يطاوعه عقله على أن يصدر حكماً عاماً شاملا على اضمحلال العصر الهلنستي ؛ فما أسهل أن يتخذ حكم عام كهذا حجة يتذرع بها لاختتام قصة بلاد اليونان قبل أن يكشف عما كان لها من شأن في الحضارة العالمية . نعم إننا نشعر في ذلك العصر ببطء في قوة الابتكار ، ولكن هذا يعوضه كثرة منتجات الفن بعد أن أصبحت له السيطرة التامة على أدواته. وإذ كان الشباب لا يدوم أبداً ، وإذ لم يكن لمفاتنه أعلى مقام في الحياة ؛ فقد كان لابد أن يحل الخمود الطبيعي بحياة بلاد اليونان كما يحل الخمود بكل حياة ، وأن تتقبل عهد الشيخوخة والنضوج . لقد دب دبيب الاضمحلال في البلاد ، وأخذت عوامل الضعف تعمل عملها في الدين والأخلاق والآداب ووسمت بميسمها أعمالا فردية في أماكن متفرقة في البلاد ؛ ولكن قوة العبقرية اليونانية الدافقة أبقت الفن اليوناني ، كما أبقت العلوم والفلسفة اليونانية ، قرب ذروته إلى آخر أيام ذلك العصر ؛ ولم يبلغ هيام اليونان بالجمال ولا قدرتهم وصبرهم على تجسيده في أيام شبابهم وعزلتهم مثل ما بلغه هيامهم وقدرتهم وصبرهم في العصر الهلنستي ، أو كان لهذه الصفات قوة دافعة وآثار عظيمة في مدن الشرق الغافلة في العهد الأول مثل ما كان لها في هذا العصر الذي نتحدث عنه . وفي هذه المدن وجدتها رومة ونقلتها إلى سائر بلاد العالم .

الباب الثامن والعشرون

ذروة مجد العلم اليونانى

الفصل الأول

إقليدس وأپولونيوس

شهد القرن الخامس ذروة مجد الآداب ، وشهد القرن الرابع ازدهار الفلسفة ، وشهد القرن الثالث ذروة مجد العلوم الطبيعية . ذلك أن الملوك كانوا أكثر من الدمقراطيات تسامحاً فى البحث العلمى وأكثر منها تشجيعاً له . من ذلك أن الإسكندر أرسل إلى المدن اليونانية القائمة على ساحل آسية جمالا محملة بألواح الفلك البابلية لم تلبث أن ترجمت إلى اللغة اليونانية ، وأنشأ البطالمة المتحف الذى كان معهداً للدراسات الراقية ، وجمعوا علوم بلاد البحر الأبيض المتوسط وثقافاتها فى المكتبة ؛ وأهدى أپولونيوس كتابه «المخروطات» إلى أتلس الأول ، ورسم أركميديز ، برعاية هيرون الثانى دوائره . وقد كان لزوال الحدود السياسية بين الأقطار ، ووجود لغة واحدة مشتركة ، وسهولة تبادل الكتب والأفكار ، والقضاء على علم الميتافزيقا ، وضعف الدين القديم ، وقيام طبقة من التجار ذات عقلية دنيوية لا دينية فى الإسكندرية ، ورودس ، وأنطاكية ، وبرجموم ، وسرقوسة ، وازدياد عدد المدارس ، والجامعات ، والمراصد الفلكية ، ودور الكتب ، كان لهذه كلها مجتمعة مع ازدياد الثروة وتقدم الصناعة ، ومناصرة الملوك ، أكبر الأثر فى تحرير العلم من الفلسفة ، وتشجيعه فى العمل على تنوير الأذهان ، وازدياد الثراء وتهديد العالم بأكثر الأخطار .

وحدث حوالى مستهل القرن الثالث — أولعله حدث قبله بزمن طويل — أن أصبحت علماء الرياضة اليونان أجود وأدق مما كانت باختراع طريقة للعد والحساب أبسط من الطريقة التى كانت متبعة حتى ذلك الوقت . ذلك أن التسعة الحروف الأولى من حروف الهجاء قد استخدمت للدلالة على الأرقام التسعة البسيطة ، ثم استخدم الحرف الذى يليها للدلالة على الرقم ١٠ ، والتسعة التى تليه للدلالة على ٢٠ ، و٣٠ الخ ، والذى يليها للدلالة على ١٠٠ ، والتسعة التى تلى هذا للدلالة على ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، وهكذا . وعبر عن الكسور والأعداد الترتيبية بوضع شرطة صغيرة مائلة من اليمين إلى اليسار بعد الحرف ؛ فهذه العلامة ′ مثلا تدل إما على عشر أو العاشر حسب السياق ، وحرف ′ الصغير إذا وضع تحت الحرف دل على ألف . فكانت هذه الطريقة الحسابية المختصرة وسيلة سهلة للعد والحساب ؛ ومن البرديات اليونانية الباقية إلى الآن ما يجمع عمليات حسابية معقدة ، تختلف ما بين الكسور العشرية والملايين ، فى فراغ أقل مما تشغله أمثال هذه العمليات فى طريقتنا الحسابية فى هذه الأيام(*) .

لكن أعظم ما أحرزته العلوم من انتصار فى العصر الهلنستى كان فى الهندسة النظرية ، فمن علماء ذلك العصر إقليدس الذى ظل اسمه مدى ألفى عام مرادفا لاسم هذه الهندسة . وكل مانعرفه من سيرته أنه أنشأ مدرسة فى الإسكندرية ، وأن تلاميذه بزوا كل من عداهم من التلاميذ فى هذا الفرع من العلوم ؛ وأنه لم يكن يعنى قط بالمال ، وأنه حين سأله أحد تلاميذه « ماذا يفيدنى تعلم الهندسة؟» أمر أحد العبيد أن يعطيه أبلة « لأنه يريد أن يربح المال مما يتعلم[1] » ، وأنه

(*) ليست هـذه البرديات أقدم من مدينة الإسكندرية ذاتها ، ولكنها وهى تستخدم حرف الديجما Digamma اليونانى البدائى المهجور للدلالة على الرقم ٦ ، فإن أكبر الظن أن استخدام الحروف الهجائية للدلالة على الأرقام قد حدث قبل العصر الهلنستى .

كان شديد التواضع والرأفة ، وأنه حين كتب كتابه الشهير المسمى « العناصر (*) Elements » حوالى عام ٣٠٠ لم يخطر بباله قط أن يعزو مابه من مختلف النظريات إلى واضعيها لأن كل ما ادعاه لنفسه أنه جمع فى نظام منطقى معلومات اليونان الهندسية . وقد بدأ الكتاب ، دون تقديم أو اعتذار ، بالتعاريف البسيطة ، ثم ثنى بالفروض الضرورية ، وجاء بعدها بـ « الأفكار العامة » أو البداثة .وقد سار على ما أوصى به أفلاطون فاقتصر على الأشكال والبراهين التى لاتحتاج من الآلات إلى غير المسطرة والفرجار . واتبع طريقة فى العرض والإثبات معروفة لمن سبقه من العلماء ولكنه وصل بها إلى حد الكمال ، وهى الطريقة التى تسير على النظام الآتى : الفرض ، والعمل ، والبرهان والنتيجة . وكانت النتيجة الكلية لجهوده ، رغم ما فيها من عيوب قليلة ، أن أقامت للعالم صرحا رياضيا ينافس البارثنون فى رمزه للعقل اليونانى . بل الحق أن هذا الصرح العلمى قد عاش كاملا بعد أن تحطم البارثنون ، وذلك لأن « عناصر » إقليدس قد ظل حتى هذا القرن الكتاب المدرسى المعترف به فى كل جامعة أوربية تقريبا . وإذا أردنا أن نجد ما يشبه هذا الكتاب فى أثره الباقى فعلينا أن نذهب إلى الكتاب المقدس نفسه لنجد هذا الشبيه .

وثمة كتاب لإقليدس فى المخروطات قد ضاع فيما ضاع من كتب ؛ وهو يلخص دراسات منيكمس ، وأرستيوس وغيرهما من علماء الهندسة فى المخروط . وقد عمد أبلونيوس البرجاوى Apollouins of Perga ، بعد أن ظل يدرس الهندسة فى مدرسة إقليدس عدة سنين ، إلى هذه الرسالة فاتخذها بداية لكتابه هو فى

(*) يلخص الكتاب الأول والثانى أعمال فيثاغورس الهندسية ؛ ويلخص الكتاب الثالث أعمال أبقراط الطشيوزى ، والكتاب الخامس أعمال يودكسوس ؛ والرابع والسادس والحادى عشر والثانى عشر آراء علماء الهندسة الفيثاغوريين والأثينيين المتأخرين ؛ وتبحث الكتب السابع والثامن والتاسع فى الرياضيات العليا .

المخروطات ، وبحث فى ثمانية «كتب» و٣٨٧ نظرية خواص المنحنيات التى تنشأ من تقاطع مخروط مع سطح مستو . وقد أطلق على ثلاثة من هذه المنحنيات (والدائرة هى رابعتها) أسماءها المعروفة بها إلى الآن وهى : القطع المكافئ parbola ، والقطع الناقص أو الإهليلجى ellipse ، والقطع الزائد hyperbola وقد يسرت اكتشافاته وضع نظرية القذائف ، وكانت من أكبر العوامل فيما حدث فى الميكانيكا والملاحة والفلك من تقدم عظيم . وكان عرضه لنظرياته طويلا مجهداً مملا ، ولكن الطريقة التى اتبعها طريقة عملية خالصة ؛ ولم يكن مؤلفه أقل من مؤلف إقليدس وضوحاً ودقة ، ولا تزال السبعة الكتب الباقية منه حتى اليوم أعظم كتاب علمى مبتكر فى كل ما كتب فى الهندسة النظرية .

الفصل الثانى

أركميديز

ولد أعظم العلماء الأقدمين فى سرقوسة حوالى عام ٢٨٧ ق م ، وكان والده هو فيدياس Pheidias الفلكى ؛ ويلوح أنه ابن عم هيرون الثانى أعظم حكام زمانه استنارة . وفعل أركميديز ما فعله كثيرون غيره من اليونان الهلنستيين الذين أولعوا بالعلوم ، وكان لديهم من المال ما يمكنهم من إشباع هذا الولع ، فسافر إلى الإسكندرية ، حيث درس على خلفاء إقليدس ، وشغف بالرياضيات وأفاد من دراستها فائدتين — انهماكا فيها وموتا مفاجئاً بسببها . وعاد من الإسكندرية إلى سرقوسة ، بحيث وهب حياته ، كما يهب الرهبان حياتهم ، لكل فرع من فروع العلوم الرياضية . وكثيراً ما كان يهمل كما يهمل نيوتن ، طعامه وشرابه ، والعناية بجسمه ، لكى يتتبع نتائج نظرية رياضية جديدة ، أو يرسم بالزيت أشكالا على جسده ، أو بالرماد على الموقد ، أو الرمل الذى اعتاد علماء الهندسة اليونان أن يفرشوه على أرض منازلهم(٢) . على أنه لم يكن تنقصه الفكاهة : فقد تعمد أن يضع فى كتابه « الكرة والأسطوانة » ، الذى يرى هو أنه أحسن كتبه ، نظريات خاطئة (كما يؤكد بعضهم) ليمزح مع من أرسل إليهم المخطوط من الأصدقاء من جهة ، وليوقع فى الشرك لصوص العلم الذين يبيحون أن يغتصبوا لأنفسهم أفكار غيرهم من الناس من جهة أخرى(٣) . وكان تارة يسلى نفسه بألغاز كادت أن توصله إلى اختراع الجبر كمشكلة الماشية الشهيرة التى حيرت لسنج أشد الحيرة(٤) ، وتارة أخرى يخترع آلات عجيبة ليدرس بها القوانين التى يستخدمها . ولكن الذى كان يعنى به وتلذه دراسته على الدوام هو العلم البحث يتخذه مفتاحا لفهم الكون لا أداة للمنشآت العملية أو زيادة الثروة . ولم يكن يكتب للطلاب بل للعلماء

المتخصصين ينقل إليهم فى عبارات قصيرة جامعة النتائج العويصة التى استخلصها من بحوثه . وقد افتتن كل من جاء بعده من الأقدمين بما تمتاز به رسائله العلمية من ابتكار ، وعمق ، ووضوح . وقد وصفها فلوطرخس بقوله : « ليس من المستطاع أن نجد فى الهندسة كلها مسائل أصعب وأعوص، أو شروحا أبسط وأوضح ، مما احتوته هذه الرسائل . ومن الناس من يعزو هذا إلى عبقريته الفطرية ، ومنهم من يظن أن هذه الصحف السهلة الميسرة كانت ثمرة كدح وجهود لايصدقها العقل (٥) .

وقد أبقى الزمان على عشرة من مؤلفات أركيديز التى كتبها بعد رحلات كثيرة فى أوربا وبلاد العرب وهى : (١) **الطريقة** ويشرح فيه لإرتسثنيز، الذى عقد معه صداقة وثيقة فى الإسكندرية ، كيف توسع التجارب العملية معلومات الإنسان الهندسية . وقد وضعت هذه المقالة حداً لحكم المسطرة والفرجار الذى أقامه أفلاطون ، وفتحت باب الطرق التجريبية ؛ لكنها مع هذا تكشف عما بين المزاجين العلميين القديم والحديث من اختلاف . فقد كان الأقدمون يجيزون التجارب العملية ليتوصلوا بها إلى فهم النظريات ، أما المحدثون فيستخدمون النظريات لما عساه أن تؤدى إليه من نتائج عملية (٢) **مجموعة من القضايا العارضة** وفيها يبحث سبعة عشر « اختبارا » أوفرضاً متبادلا فى الهندسة المستوية . (٣) **قياس الزاوية** ويصل فيه إلى $\frac{1}{7}$٣ و$\frac{10}{71}$٣ للنسبة التقريبية أى نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ؛ وهو يصل إلى تربيع الدائرة بأن يوضح بطريقة إفناء الفرق أن مساحة الدائرة تساوى مساحة مثلث قائم الزاوية ارتفاعه يساوى نصف قطر الدائرة وطول قاعدته يعادل طول محيطها. (٤) **تربيع القطع المكافئ** وفيه يدرس بطريقة حساب التكامل المساحة التى يفصلها وترقوس من القطع المكافىء ومساحة القطع الناقص . (٥) **فى اللولبيات** وفيه يعرف اللولبيات بأنها الأشكال التى تحدثها نقطة تتحرك من

نقطة معينة بسرعة منتظمة فى خط مستقيم يدور فى سطح مستو بسرعة منتظمة حول هذه النقطة المعينة نفسها ؛ ثم يتوصل إلى معرفة المساحة المحصورة بين قوس لولبي ونصف قطر فى قطع ناقص ، مستخدماً فى ذلك طرقاً تقرب من حساب التفاضل (٦) **الكرة والأسطوانة** وفيه يبحث عن قوانين رياضية لإيجاد أحجام الهرم ، والاسطوانة ، والكرة ، ومساحة سطوحها (٧) **فى أشباه المخروط وأشباه الكرة** ويشتمل على دراسة للأجسام الجامدة المتولدة من دوران القطاعات المخروطية حول محاورها .(٨) **حاسب الرمل** وفيه ينتقل من الهندسة إلى الحساب ، بل يكاد ينتقل إلى اللغرتمات ، وذلك بقوله إن الأعداد الكبيرة يمكن أن تمثل بمضاعفات أو « طبقات » ١٠,٠٠٠ وبهذه الطريقة يحصى أركميديز حبات الرمل التي يحتاج إليها لملء الكون — على فرض أن للكون حجما معقولا ، كما يقول هو بعبارته الفكهة الظريفة .والنتيجة التي يصل إليها ، والتي يستطيع أى إنسان أن يحققها بنفسه ، أن العالم لا يحتوى على أكثر من ثلاث وستين « وحدة كل منها عشرة ملايين من الطبقة الثامنة من الأعداد » أو ١٠^٦٣ حسب طريقتنا فى هذه الأيام . ويدل ما فى هذا الكتاب من إشارات إلى ما ضاع من مؤلفات أركميديز على أنه كشف أيضاً طريقة لإيجاد الجذر التربيعي للأعداد غير المربعة (٩) **فى الموازنات المستوية** وفيه يطبق الهندسة على الميكانيكا ويدرس مركز الجاذبية لعدة أجسام ذات أشكال مختلفة ، ويصوغ ما هو معروف لنا من قوانين علم القوى المتوازنة (١٠) **فى الأجسام الطافية** وفيه يضع علم توازن السوائل الساكنة وضغطها (الهيدروستاتيكا) وذلك حين يصل إلى قوانين رياضية لمعرفة مركز توازن الجسم الطافى .

ويبدأ الكتاب بالفكرة التي أدهشت الناس فى ذلك الوقت وهى أنه

سطح أى جسم سائل ساكن فى حالة توازن هو سطح كرى ، وأن مركز الكرة التى هو جزء منها هو مركز الأرض نفسها .

ولعل الذى دعا أركميديز إلى دراسة علم توازن السوائل حادثة تكاد تبلغ من الشهرة ما بلغته حادثة نيوتن . وخلاصة قصتها أن الملك هيرون أعطى لصائغ سرقوسى مقداراً من الذهب ليصوغه تاجاً له . فلما أعطاه التاج كان وزنه مساوياً لوزن الذهب ، ولكن الملك ارتاب فى أن يكون الفنان قد استبدل ببعض الذهب مثل وزنه من الفضة ، واحتفظ لنفسه بما أنقصه من الذهب . وأفضى هيرون بريبته هذه إلى أركميدز وأعطاه التاج ، ويبدو أنه اشترط عليه أن يبدد ارتيابه دون أن يلحق بالتاج أذى ، وظل أركميديز عدة أسابيع يقلب الأمر فى فكره . حتى إذا خطا يوما ما فى وعاء كبير بحمام عام ، لاحظ أن ماءه قد فاض بقدر العمق الذى وصل إليه فيه ، وخيل إليه أن وزن جسمه — أى ضغطه إلى أسفل — يقل تدريجا كلما انغمس فى الماء . فما كان منه وهو صاحب العقل الطلعة إلا أن وضع فجأة « قانون أركميديز » ، وهو أن الجسم الطافى يفقد من وزنه ما يساوى وزن الماء الذى يزيغه . وظن أن الجسم المغمور فى الماء يزيغ منه بمقدار حجمه ، وأدرك أن هذا القانون يمكنه من حل مشكلة التاج فخرج عارياً فى الطريق (إذا صدقنا قول فتروفيوس المعروف برزانته) وهرول إلى مسكنه وهو يصيح « يوريكا » (لقد وجدتها ! لقد وجدتها !) . وسرعان ما أدرك وهو فى بيته أن قدراً من الفضة ذا وزن معين إذا غمس فى الماء يزيغ منه مقداراً أكثر مما يزيغه ذهب مساو له فى الوزن ، لأن حجم الفضة يزيد على حجم الذهب المساوى له فى الوزن . ولاحظ أيضا أن التاج المغمور فى الماء يزيغ منه أكثر مما يزيغه مقدار من الذهب مساو له فى الوزن . فاستنتج من هذا أن التاج قد وضع فيه معدن أقل كثافة من الذهب . فأخذ يستبدل فى الذهب الذى كان يستخدمه للمقارنة فضة بذهب حتى أزاغ الخليط قدر ما يزيغه التاج

من الماء . وبذلك استطاع أركيديز أن يعرف بالضبط مقدار ما استخدم في التاج من الفضة ، ومقدار ما اختلس من الذهب .

ولم تكن لتحقيقه رغبة الملك من الأهمية لديه مايعادل كشفه قانون الأجسام الطافية وطريقة تقدير الثقل النوعي للأجسام . وصنع أركيديز آلة مثل فيها الشمس والأرض والقمر والخمسة الكواكب المعروفة وقتئذ (زحل والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد) ورتبها بحيث إذا أدير ذراع مركب في الآلة رأى الإنسان هذه الأجرام جميعها تتحرك في اتجاهات وبسرعات مختلفة[٦] ؛ ولكنه في أغلب الظن كان يتفق مع أفلاطون في قوله إن القوانين المسيطرة على حركات الأجرام السماوية أجمل من النجوم(*) .

وقد صاغ أركيديز ، في رسالة مفقودة بقي بعضها في ملخصات لها ، قوانين الرافعة والميزان صياغة بلغ من دقتها أن تقدما مالم يحصل فيها حتى عام ١٥٨٦ م ، فهو يقول مثلا في الفرض الرابع : « الأجسام المتناسبة تتوازن إذا كانت على مسافات تتناسب تناسباً عكسياً مع جاذبيتها »[٨] ، وتلك حقيقة عظيمة النفع تبسط العلاقات المعقدة بين الأجسام تبسيطاً بارعا يؤثر في نفس العالم كما يؤثر تمثال هرمس لبركستليز في نفس الفنان . وذهل أركيديز حين شاهد ما في الرافعة والبكرة من قوة فأعلن أنه إذا أعطى مرتكزاً ثابتاً استطاع أن يحرك أي شيء يريد تحريكه ، ويروى عنه أنه قال في لهجة سرقوسة الدورية «Pa po, kai tan gan kino : أعطني مكانا أقف عليه ، أحرك لك الأرض[٩] » وتحداه هيرون أن يفعل ما يقول ، وأشار إلى ما كان يلقاه

(*) وقد رأى شيشرون هذا الجهاز بعد قرنين من ذلك الوقت ، وعجب من تناسق حركات الأجرام الممثلة فيه في أوقاتها المختلفة رغم تعقيدها الشديد ؛ وكتب في ذلك يقول : « حين حرك جلوس Gallus الكرة تبينا أن القمر كان على الدوام يتم دورات خلف الشمس على الجهاز البرنزي تتفق في عددها اتفاقا تاما مع عدد الأيام التي يتخلف فيها وراء الشمس في السماء . وبهذا يحدث خسوف الشمس على الجهاز كما يحدث في الحقيقة[٧] » .

رجاله من المشقة فى رفع سفينة كبيرة من سفن الأسطول الملكى إلى شاطئ البحر . فما كان من أركميديز إلا أن وضع عدداً من الأضراس والبكر بطريقة أمكنته بمفرده وهو جالس عند نهاية هذا الجهاز أن يرفع السفينة الكاملة الشحنة من الماء إلى الأرض(١٠) .

وسر الملك من هذا العمل فطلب إلى أركميديز أن يضع له تصميمات لبعض عدد الحرب ، وكان من غريب صفات الرجلين أن أركميديز بعد أن وضع هذه التصميمات نسيها ، وأن هيرون لحبه السلم لم يستخدمها . وقد وصف فلوطرخس أركميديز فقال :

« إنه بلغ من علو الهمة وعمق التفكير ، وغزارة المادة العلمية ما سما به عن أن يترك وراءه أى شيء مكتوب فى هذه الموضوعات ، وإن كانت هذه الاختراعات قد أذاعت فى الخافقين ذكاءه العظيم الذى لانظير له بين الخلائق طراً . فقد نبذ كل فن لا غاية له إلا النفع والكسب المادى وعده فناً دنيئاً حقيراً ، وخص حبه كله وآماله كلها فى تلك المباحث العلمية الخاصة التى لا صلة بينها وبين مطالب الحياة الوضيعة — وهى تلك الدراسات التى لايشك إنسان فى سموها على سائر الدراسات ، بل كان ما يشك فيه هو هل جمال الموضوعات التى تبحثها وعظمتها ، أو دقة طرق البرهنة على صحتها وقوة الاقتناع بها ، هى أعظم الأشياء جدارة بإعجابنا » .

ولما أن مات هيرون قام النزاع بين سرقوسة وروما ، وهاجمها مارسلس الباسل براً وبحراً . وكان أركميديز وقتئذ (٢١٢) فى السابعة والخمسين من عمره ولكنه مع هذا أشرف على الدفاع فى الجبهتين ، فأقام خلف الأسوار التى تحمى الميناء منجنيقات تقوى على قذف الحجارة الثقيلة مسافات بعيدة . وكان وابل القذائف التى تلقيها هذه المنجنيقات شديد الوقع فاضطر مارسلس إلى التقهقر حتى يفاجئ المدينة ليلا . فلما أن أبصر أهلها سفن العدو قرب الشاطئ أمطر الرماة بحارتها وابلا من السهام من بين الثقوب التى صنعها أعوان أركميديز فى الأسوار . وفضلا عن هذا فقد وضع المخترع العظيم فى داخل

هذه الأسوار رافعات وبكرات ضخمة تلقى بالقرب من السفن كتلا كبيرة من الحجارة والرصاص أغرقت الكثير منها . وكانت رافعة أخرى ، مسلحة بخطاطيف كبيرة تمسك بالسفن ، وترفعها فى الهواء ، وتقذفها على الصخور ، أو تلقيها بمقدمها فى البحر(*)(١٢) . وابتعد مارسلس بأسطوله ووضع كل آماله فى هجومه براً . ولكن أركميديز أمطر الجنود حجارة ضخمة من منجنيقات بلغت من القوة والإحكام حداً اضطر معه الرومان إلى الفرار وهم يقولون إن الآلهة نفسها كانت تقاومهم ، وأبوا أن يتقدموا بعدئذ للقتال(١٤) . ويعلق پولبيوس على ذلك بقوله : « وهكذا تتبدى فى هذا الاختراع العظيم المدهش عبقرية رجل واحد استخدمت الاستخدام الصحيح » . ولم يكن الرومان الأقوياء بحراً وبراً يرتابون فى الاستيلاء على المدينة من فورهم إذا أبعد عنها رجل واحد طاعن فى السن ؛ وما دام هذا الرجل باقياً فيها فإنهم لم يجرؤوا قط على مهاجمتها(١٥) » .

وتخلى مارسلس عن فكرة الاستيلاء على المدينة عنوة وآثر أن يستولى عليها بالحصار الطويل ، فضرب عليها حصاراً دام ثمانية أشهر نفدت فيها مؤونتها فاستسلمت له من فرط الجوع . وأعمل فيها الجند القتل والسلب لكن مارسلس أمرهم ألا يمسوا أركميديز بأذى . والتقى فى أثناء النهب جندى رومانى بشيخ سرقوسى منهمك فى دراسة أشكال رسمها على الرمل . فأمره الجندى الرومانى بأن يحضر من فوره لمقابلة مارسلس وأبى أركميديز أن يذهب إلا بعد أن تحل المسألة التى كان منهمكا فيها . ويقول فلوطرخس إنه « ألح على الجندى وتوسل إليه أن ينتظره قليلا ، حتى لا يضطر إلى ترك ما يشتغل به ناقصاً لم يصل فيه إلى

(*) لوشيان هو أقدم المراجع التى نستند إليها فى قولنا إن أركميديز أشعل النار فى السفن الرومانيه بتسليطه أشعة الشمس عليها من مرايا مقعرة(١٣) » . وأقوال لوشيان من المراجع التى لا يصح الاعتماد عليها كل الاعتماد .

نتيجة مقنعة ، ولكن الجندى لم يؤثر فيه رجاء الرجل فقتله من فوره[١٦] » . ولما سمع بذلك مارسلس حزن عليه وبذل كل ما فى وسعه ليواسى أهل القتيل[١٧]. وأقام القائد الرومانى قبراً فخماً تخليداً لذكراه نقش عليه بناء على رغبة العالم الرياضى كرة داخل اسطوانة . ذلك أن أركميديز كان يعتقد أن وصوله إلى القوانين التى أوجد بها مساحتى هذين الشكلين وحجميهما أعظم ما عمله فى حياته . ولم يكن الرجل فى ظنه هذا بعيداً كل البعد عن الصواب ، فإن إضافة نظرية هامة إلى نظريات الهندسة أعظم قيمة للإنسانية من حصار مدينة أو الدفاع عنها . ومن حق أركميديز علينا أن نضعه فى المستوى الذى نضع فيه نيوتن ، وأن نقول إنه ترك للعالم « عدداً من الاكتشافات الرياضية الجليلة الشأن لا يفوقه فيه إنسان بمفرده فى تاريخ العالم كله[١٨] » .

ولولا كثرة الأرقاء وقلة أجورهم لكان أركميديز زعيم انقلاب صناعى حقيقى . ذلك أن رسالة فى المسائل الميكانيكية تعزى خطأ إلى أرسطو ، ورسالة فى الأثقال تعزى خطأ إلى إقليدس ، قد وضعتا عدة قوانين أولية فى علم القوى المحركة (الديناميكا) وعلم القوى المتوازنة (الأستاتيكا) قبل أركميديز بمائة عام . وأحال استراتو اللمبسكسوسى Strato of Lampsacus ، الذى تولى بعد ثاوفراسطوس رياسة اللوقيون ، ماديته الجبرية إلى علم الطبيعة وصاغ (حوالى عام ٢٨٠) المبدأ القائل بأن « الطبيعة تكره الفراغ »[١٩] . ولما أن أضاف إلى ذلك قوله إن « الفراغ يمكن إيجاده بوسائل اصطناعية » مهد بذلك السبيل إلى ألف من المخترعات . فدرس تسيبيوس الإسكندرى Ctesibius طبيعة الممصات (وكانت مستخدمة فى مصر من عام ١٥٠٠ ق . م) واخترع المضخة الرافعة ، والأرغن المائى ، والساعة المائية . وأكبر الظن أن أركميديز قد حسن اللولب المائى المصرى (الطنبور) الذى أطلق عليه اسمه على غير علم منه ؛ وهو الآلة

التي جعلت الماء يجرى إلى أعلى[٢٠] . واخترع فيلون البيزنطى الآلات التي تتحرك بالهواء ، وعدداً من آلات الحرب المختلفة الأنواع[٢١] . وكانت الآلة البخارية التي اخترعها هيرون الإسكندرى .Heron of Alex، بعد أن فتح الرومان بلاد اليونان آخر مخترعات هذا العصر وأعظمها . وسبب ذلك أن التقاليد الفلسفية كانت أقوى من أن تقضى عليها هذه النزعة العلمية العملية، وأن الصناعة اليونانية قد اقتنعت بالاعتماد على الأرقاء . لقد كان اليونان على علم بالمغنطيس وبما فى الكهرمان من خواص كهربائية ، ولكنهم لم يروا فى هذه الظواهر الغريبة ما يمكن أن تفيد منه الصناعة ، وحكم القدم على غير علم منه أن الحداثة غير جديرة بالعناية .

الفصل الثالث

أرستارخوس ، وهپارخوس ، وإراتستنيز

تدين علوم اليونان الرياضية بازدهارها والقوة الدافعة لها إلى مصر ،ويدين الفلك اليونانى بازدهاره وقوته الدافعة إلى بابل . ذلك أن استيلاء الإسكندر على بلاد الشرق قد أدى إلى عودة تبادل الأفكار وإلى اتساع ذلك التبادل الذى أعان منذ ثلاثة قرون قبل ذلك الوقت على ميلاد العلم اليونانى فى أيونيا . وفى وسعنا أن نعزو إلى هذا الاتصال الجديد بمصر والشرق الأدنى ما نراه من تناقض . فقد بلغ العلم اليونانى ذروته فى العصر الهلنستى ، حين كان الأدب اليونانى والفن اليونانى آخذين فى الاضمحلال .

ولمع اسم أرستارخوس الساموسى فى الفترة الواقعة بين العهدين اللذين سيطرت فيهما على علم الفلك النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون . وكان هذا العالم شديد التحمس لدراسة الفلك فلم يترك فرعاً منه إلا بحثه ،ونبغ فى هذه الفروع جميعها(٢٢). ولسنا نجد فى رسالته الوحيدة التى بقيت لنا حتى الآن والمسماة « فى حجم الشمس والقمر وبعديهما(*) » أية إشارة إلى أن الشمس مركز العالم ، بل إن هذه الرسالة تفترض عكس هذا ، تفترض أن الشمس والقمر يتحركان فى دائرتين حول الأرض . ولكن كتاب أركميديز « حاسب الرمل »

(*) قدر استارخوس حجم الشمس قدر حجم الأرض ثلثمائة مرة (وهى فى الحقيقة أكبر منها بأكثر من مليون مرة) ، وتقديره هذا يبدو صغيراً ، ولكنه تقدير لو عرفه أنكساغورس أو أبيقور لدهش منه . وقدر قطر القمر بثلث قطر الأرض ، ولا يزيد خطأ هذا التقدير على ثمانية فى المائة ، كما قدر بعد الأرض عن الشمس بقدر بعدنا عن القمر عشرين مرة (وهو يكاد يبلغ قدره أربعمائة مرة) . ويقول فى إحدى نظرياته إنه « حين يحدث كسوف كلى للشمس تقع الشمس والقمر وتمتد داخل مخروط واحد رأسه عند عيننا(٢٨) » .

يعزو صراحة إلى أرستارخوس « الفرض القائل إن النجوم الثوابت والشمس تظل ثابتة لاتتحرك ، وإن الأرض تدور حول الشمس فى محيط دائرة ، وإن الشمس فى وسط هذا المدار[٢٣] » ، ويقول فلوطرخس إن كليئثيز الرواقى كان يعتقد أن أرستارخوس يجب أن يتهم « بتحريكه مسكن الكون » (أى الأرض[٢٥]) . وأيد سلوقس السلوقى Seleucus of Selucia الرأى القائل بأن الشمس مركز العالم ، ولكن رأى العلماء فى العالم اليونانى قرر عكس هذا ، ويبدو أن أرستارخوس نفسه قد نزل عن هذا الافتراض حين عجز عن التوفيق بينه وبين حركات الأجرام السماوية التى كانوا يظنونها دائرية ؛ ذلك أن علماء الفلك على بكرة أبيهم كانوا يرون أن من القضايا المسلم بها قطعاً أن هذه الأفلاك دائرية . ولعل كراهية السم هى التى دفعت أرستارخوس إلى أن يكون جليلو العالم القديم وكوپرنيقه .

وكان من سوء حظ العلم الهلنستى أن أعظم الفلكيين اليونان هاجم النظرية القائلة إن الشمس مركز العالم بحجج كانت تبدو للناس أجمعين قبل كوپرنيق أنها حجج لايمكن دحضها أبداً . وكان هپارخوس النيقى of Nicaea (فى بيثينيا) عالما من الطراز الأول ، رغم ما وقع فيه من خطأ كان له شأن عظيم فى عصره ؛ فقد كان عظيم الشغف بالمعرفة ، طويل الصبر على البحث ، دقيقا شديد العناية بالملاحظة ونقل ما يلاحظ إلى غيره ، حتى لقد أطلق عليه الأقدمون لقب « حبيب الحقيقة[٢٦] » . وقد مس وزان كل فرع من فروع الفلك تقريبا ، وظلت النتائج التى وصل إليها فيه ثابتة سبعة عشر قرناً كاملة . غير أننا لم يبق لنا من مؤلفاته الكثيرة إلا كتاب واحد — وهو شرح لكتاب الفينومينا Phainomena (الظواهر الطبيعية) ليودكسوس ، وأراتوس الصولى ؛ ولكننا نعرفه من كتاب المجسطى تأليف كلوديوس بطليموس Claudius Ptolamy (١٤٠ م . تقريبا) ، لأن هذا الكتاب يعتمد على بحوثه وتقديراته . ومن أجل

هذا كان من الواجب أن يسمى « فلك بطليموس » « فلك هپارخوس » . وأكبر الظن أنه هو الذى حسن الاسطرلابات وآلات قياس الزوايا وهى أهم الآلات الفلكية فى زمانه ؛ ولعله قد استعان على هذا التحسين بنماذج الآلات البابلية ؛ واخترع طريقة تعيين الأماكن على سطح الأرض بخطوط الطول والعرض. وحاول أن ينظم الفلكيين فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ليقوموا بأعمال الرصد والقياس التى يستطيعون بها تحديد مواضع البلاد الهامة بهذه الطريقة . لكن الاضطرابات السياسية حالت دون تنفيذ هذه الخطة حتى استتب النظام فى عصر بطليموس . واستطاع هبارخوس بفضل دراساته الرياضية للعلاقات الفلكية أن يضع جداول جيوب الزوايا ، وأن يبتكر بذلك حساب المثلثات . ومما لا ريب فيه أنه استعان بالسجلات المسمارية التى جيء بها من بابل فحدد أطوال السنين الشمسية ، والقمرية ، والنجمية ، تحديداً لا يكاد يختلف عن أطوالها الصحيحة ؛ فقد قدر السنة الشمسية بثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم إلا أربع دقائق و٤٨ ثانية — وهو يختلف عن تقدير هذه الأيام بست دقائق لا أكثر . وكان تقديره للشهر القمرى الوسطى ٢٩ يوما ، و١٢ ساعة ، و٤٤ دقيقة ، ٢ ½ ثانية . وهو يختلف عن التقدير المعترف به اليوم بأقل من ثانية[٢٧] . وحسب أزمنة اقتران الكواكب ، وميل مدار القمر عن فلك الأرض ، وحدد أكبر بعد بين الشمس والأرض ، واختلاف موقع القمر بالنسبة للنجوم باختلاف موضع الراصد على سطح الأرض[٢٨] ، وقدر بعد القمر عن الأرض بمائتى ألف وخمسين ألف ميل فلم يخطئ إلا فى خمسة فى المائة .

واستنتج هپارخوس بالاعتماد على هذه المعلومات كلها أن القول بأن الأرض مركز العالم يفسر هذه الحقائق كلها أحسن مما يفسرها فرض أرستارخوس . ذلك أن النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم لا يمكن أن تثبت على التحليل الرياضى إلا إذا افترضنا أن مدار الأرض قطع ناقص ، وهو فرض لا يوائم التفكير

اليونانى ، حتى ليبدو أن أرستارخوس نفسه لم يعن ببحثه . وأوشك هپارخوس أن يمسه فى نظريته عن « الانحرافات » التى فسر بها ما يبدو من شذوذ فى سرعة مسير الشمس والقمر فى فلكيهما حين قال إن مركزى فلكى الشمس والقمر مائلان قليلا على أحد جانبى الأرض . وأوشك هبارخوس أن يكون أعظم أصحاب النظريات الفلكية وأعظم الراصدين بين علماء الفلك الأقدمين على بكرة أبيهم .

وبينا كان هپارخوس يرقب السماء ليلة بعد ليلة إذ دهش ذات مساء لظهور نجم فى مكان لاريب عنده فى أنه لم يرقب فيه نجما من قبل . ولكى يثبت ما سوف يحدث من اختلاف فى مواضع النجوم فى مستقبل الأيام صنع حوالى عام ١٢٩ ق . م . فهرسا ، وخريطة ، وكرة حدد فيها مواضع ١٠٨٠ من النجوم الثوابت بالنسبة لخطوط الطول والعرض السماوية . وقد أفاد دارسو السماء من عمله هذا أعظم فائدة . ووازن هپارخوس خريطته بخريطة تموكارس التى صنعها قبل خريطته بمائة وست وستين سنة فتبين أن النجوم قد غيرت مكانها الظاهرى نحو درجتين فى هذه الفترة الزمنية . على هذا الأساس كشف هپارخوس أدق كشوفه كلها(*) . وهو تقدم الاعتدالين — ويعنى به تقدم اللحظة التى تقع فيها نقطتا الاعتدالين على خط الزوال(**) . وقدر هذا التقدم بست وثلاثين ثانية كل سنة ؛ والتقدير المأخوذ به الآن خمسون ثانية .

ولقد كان بين أرستارخوس وهپارخوس فى الترتيب الزمنى عالم آخر واسع

(*) هذا إذا لم يكن قد أخذه عن كدنو Kidinnu البابلى الذى عاش قبله .

(**) الاعتدالان ، ومعنى اللفظ الإنجليزى (الليلتان المتساويتان equinoxes) هما اليومان اللذان تعبر فيهما الشمس فى حركتها الظاهرية أثناء السنة خط الاستواء شمالا (وهو الاعتدال الربيعى عندنا ، والاعتدال الخريفى فى نصف الكرة الجنوبى) أو جنوباً (وهو الاعتدال الخريفى عندنا والربيعى فى نصف الكرة الجنوبى) وفى كل منهما يتساوى الليل والنهار يوماً واحداً . ونقطتا الاعتدالين هما النقطتان السماويتان اللتان يتقاطع فيهما خط الاستواء السماوى بفلك الأرض .

الاطلاع ، فى فروع من العلم متعددة ، ويمتاز بغزارة علمه فى عدد كبير من الميادين ، وكان ثانى المتفوقين فيها جميعا ، ومن أجل ذلك لقب بنتاثلوس وبيتا Pentathlos and Beta . وتقول الرواية المأثورة إن اوتسستثنز تلقى العلم على معلمين أفذاذ : زينون الرواقى ، وأرسسلوس المتشكك ، وكلمخوس الشاعر ، وليسنياس النحوى . وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شهرته فى كثير من فروع العلم المختلفة حتى جعله بطليموس الثالث أمين مكتبة الإسكندرية . وكتب ديوان شعر وتاريخا للمسلاة ، وحاول فى كتاب الكرونوغرافيا Chronography أن يحدد أوقات الحادثات الكبرى فى تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد كتب أيضا رسائل فى الرياضيات واخترع طريقة آلية لإيجاد نسب وسطى متناسبة تناسبا مطردا بين خطين مستقيمين . وقاس ميل مستوى الفلك وحدد هذا الميل بـ ٢٣٥١° فلم يخطئ إلا فى نصف فى المائة . لكن أعظم أعماله هو تقديره طول محيط الأرض بـ ٢٤,٦٦٢ ميلا[٣٠] ، ونحن نقدره الآن بـ ٢٤,٨٤٧ . فقد لاحظ فى ظهر يوم الانقلاب الصيفى أن الشمس عند مدينة سينى(*) تسطع عمودية على سطح جدار ضيق ، ثم عرف أن ظل مسلة فى الإسكندرية التى تبعد عن سينى إلى الشمال بنحو خمسمائة ميل يدل على أن الشمس تميل عن سمت الرأس بنحو ٧½" إذا قيست وقت الزوال على خط الطول الذى يصل بين البلدين ، فاستنتج من هذا أن القوس الذى يبلغ ٧½° على محيط الأرض يساوى خمسمائة ميل ، وأن محيط الأرض بهذه النسبة = ٣٦٠ ÷ ٧,٥×٥٠٠ أو ٢٤,٠٠٠ ميل.

وبعد أن قاس إرتسثنز الأرض انتقل إلى وصفها فجمع فى كتابه الجغرافيكا Geographica تقريرات جميع علماء المساحة فى الإسكندرية ، والرحالة البريين أمثال Megasthenes والبحريين أمثال نيارخوس ، والرواد أمثال پيثياس المساليائى Pythias of Massalia ، الذى طاف حول اسكتلندة فى عام ٣٢٠ ،

(*) وموقعها قرب موقع مدينة أسوان الحالية . (المترجم)

ووصل إلى النرويج ولعله وصل أيضا إلى الدائرة القطبية الشمالية[٣١] . ولم يكتف أرتستنيز بوصف تضاريس كل إقليم ومظاهره الطبيعية ، بل حاول أيضا أن يفسرها بفعل المياه الجارية، والنيران والزلازل والثورات البركانية[٣٢]. وطلب إلى اليونان أن يتخلوا عن تقسيمهم الضيق لبنى الإنسان إلى هلنيين وبرابرة ، وأعلن أن الناس يجب أن يقسموا أفراداً لا أقواما ؛ وقال إنه يرى أن كثيرين من اليونان سفلة أنذال ، وأن كثيرين من الفرس والهنود قوم ظرفاء ؛ وأن الرومان قد أظهروا أنهم أكثر استعداداً من اليونان للنظام الاجتماعى والحكم الصالح القدير[٣٣] . ولم يكن يعرف إلا القليل عن شمالى أوربا وآسية ، وكان علمه بالهند الممتدة جنوب نهر الكنج أقل من هذا القليل : أما شمال أفريقية فلم يكن يعرف عنه شيئاً على الإطلاق . ولكنه كان على ما وصل إليه علمنا أول عالم جغرافى ذكر الصينيين فى كتبه . وقد ورد فى فقرة أخرى من هذه الكتب عظيمة الدلالة : « لو أن اتساع المحيط الأطلنطى لم يقم عقبة فى سبيلنا لكان من السهل علينا أن ننتقل بطريق البحر من إيبريا Iberia (أسبانيا) إلى الهند متتبعين دائرة واحدة من دوائر العرض »[٣٤] .

الفصل الرابع

ثاوفراسطوس ، هيروفيلوس ، إراسستراتوس

لم يبلغ علم الحيوان فى الزمن القديم مثل ما بلغه فى كتاب أرسطو المسمى تاريخ الحيوان ، والراجح أن خليفته ثاوفراسطوس قد اتفق معه على أن يوزعا العمل بينهما ، فكتب هو تاريخ النبات ، وكتب بحثا آخر أكثر إيغالا فى البحث النظرى يسمى أسباب النبات . وكان ثاوفراسطوس يحب فن فلاحة البساتين ويعرف كل صغيرة وكبيرة فى موضوعه . وكانت نزعته العلمية فى كثير من النواحى أعظم من نزعة أستاذه ، كما كان أكثر منه عناية بالحقائق ، وأدق نظاما فى عرضها ، ومن أقواله فى هذا المعنى أن الكتاب الخالى من التصنيف غير خليق بأن يعتمد عليه مثله كمثل الجواد غير الملجم[٣٥] . وقد قسم النباتات جميعها إلى أشجار ، وشجيرات ، وأعشاب ، وحشائش ؛ وميز أجزاء النبات بعضها من بعض ، وقسمها إلى جذر ، وساق ، وأغصان ، وعساليج ، وأوراق ، وأزهار ، وفاكهة — وهو تقسيم لم يدخل عليه أى تحسين حتى عام ١٥٦١[٣٦] م ؛ وقد كتب فى ذلك يقول : « للنبات قدرة على التوالد سارية فى جميع أجزائه ، لأن فيه حياة تسرى فيها جميعاً . . . وطرق توالد النبات هى : الطريقة التلقائية من بذرة ، أو جذر ، أو قطعة تقطع منه ؛ أو غصن ، أو عسلوج ، أو قطع من الخشب تقسم أقساما صغيرة ، أو من الجزع نفسه[٣٧] » . ولم يعرف شيئاً عن التكاثر بالتزاوج الجنسى فى النبات ، اللهم إلا عن عدد قليل من أنواعه كأشجار التين ، ونخل البلح ؛ وهنا سار على نهج البابليين فى وصف عمليتى التلقيح ، والتختين لإنضاج الفاكهة قبل الأوان بوسائل اصطناعية . وبحث فى التوزيع الجغرافى للنبات ، وفى فوائده للصناعة ، وفى أنسب الأحوال

الحيوية لنمائه وقوته . ودرس التفاصيل الجزئية لنحو خمسمائة نوع من أنواع النبات دراسة دقيقة فى جميع أجزائها دقة تثير الدهشة ، وذلك فى وقت لم يكن فيه مجهر يعين على هذه الدراسة . وأدرك قبل مجيئه بعشرين قرنا أن الزهرة ورقة متحولة(٣٨) . وكان عالما طبيعيا فى أكثر من ناحية ، يرفض بقوة ماكان منتشرا فى أيامه من تفسير بعض المظاهر العجيبة فى النبات بالرجوع إلى القوى غير الطبيعية(٣٩) . وكان يتصف بما يتصف به العلماء من حب البحث ؛ ولم يكن يرى أن مقامه بوصفه فيلسوفا ينقص منه أن يكتب رسائل كل واحدة منها فى موضوع واحد ، كالحجارة ، والمعادن ، والجو ، والرياح ، والسأم ، والهندسة النظرية ، والفلك ، ونظريات الطبيعة التى كانت منتشرة عند اليونان قبل أيام سقراط(٤٠) . وفى ذلك يقول سارتن Sarton « لو لم يكن أرسطو من رجال ذلك العصر لسمى عصر ثاوفراسطوس(٤١) » .

ولخص « كتاب » ثاوفراسطوس التاسع كل ما كان يعرفه اليونان عن خواص النباتات . وفى هذا الكتاب فقرة تشير إلى التخدير وردت فى قوله إن « الدقتمون dittany نبات نافع بوجه خاص للنساء فى أثناء الوضع ؛ ويقول بعض الناس إنه إما أن يسهل الوضع أو إنه يوقف الألم(٤٢) » وتقدم الطب بخطى سريعة فى هذا العصر ، ولعل سبب تقدمه أنه كان لابد له أن يسير بنفس السرعة التى تفشو بها الأمراض الجديدة المتزايدة فى حضارة المدن المعقدة . وكانت دراسة اليونان لمعلومات المصريين الطبية باعثا قويا على هذا التقدم . وكان البطالمة لايترددون فى تقديم أية مساعدة يحتاجها علماء الطب ، فلم يكونوا يجيزون تشريح الحيوانات وجثث الموتى من الآدميين فحسب ، بل كانوا يرسلون بعض المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام لتشرح أجسامهم وهم أحياء(٤٣) . وبفضل هذا التشجيع أصبح التشريح الآدمى علما ، وقلت إلى حد كبير الأغلاط السخيفة التى وقع فيها أرسطو .

وقام هيروفيلوس الخلقدونى الذى كان يعمل بالإسكندرية حوالى عام ٢٨٥

بتشريح العين ووصف الشبكية وأعصاب النظر وصفاطيبا . وشرح أيضاً المخ ، ووصف مقدم الدماغ ، والمخيخ ، والسحايا، وسمى باسمه معصار هيروفيلي(*) . وأعاد للمخ مكانته السامية بأن جعله مركز التفكير ، وفهم وظيفة الأعصاب ، وكان البادئ بتقسيمها إلى أعصاب حس وأعصاب حركة ، وفصل أعصاب الجمجمة عن أعصاب النخاع الشوكي ، وميز الشرايين من الأوردة ، وحدد وظيفة الشرايين بأنها هى الأوعية التى تحمل الدم من القلب إلى مختلف أجزاء الجسم ، وكشف فى واقع الأمر الدورة الدموية قبل أن يكتشفها هارفى(٤٤) Harvey بتسعة عشر قرنا . وقد أخذ بإشارة وردت فى أقوال بركساغورس الطبيب الكوسى فضم جس النبض إلى وسائل تشخيص الأمراض ، واستخدم ساعة مائية لقياس عدد ضربات القلب . وشرح المبيض والرحم والحويصلات المنوية ، وغدة البرستاتة ووصفها كلها ؛ ودرس الكبد ، والبنكرياس ، وسمى المعاء الاثنى عشرى بالاسم الذى لايزال يعرف به إلى اليوم(٤٥). ومن أقوال هروفيلوس المأثورة : « إن العلم والفن لايكون لهما ما يعرضانه ، وإن القوة لتعجز عن بذل أى جهد ، والثروة لتصبح عديمة النفع ، والفصاحة تفقد قوتها ، حين تنعدم صحة الجسم »(٤٦) ؛

ولقد كان هروفيلوس، على قدر مانستطيع أن نحكم بالاستناد إلى معلوماتنا الحاضرة ، أعظم علماء التشريح فى العهد القديم ، كما كان إرسستراتوس أعظم علماء وظائف الأعضاء . وقد ولد ارسستراتوس فى كيوس Ceos، ودرس فى أثينة ، ومارس مهنة الطب فى الإسكندرية حوالى عام ٢٥٨ ق . م . وقد استطاع أن يميز المخ من المخيخ تمييزاً أدق من هروفيلوس، وأجرى تجارب على الأجسام الحية لدراسة عمليات المخ ، ووصف وشرح عمل الغلصمة (لسان المزمار) ، والأوعية اللمفاوية فى غشاء الأمعاء ؛ والصمامين الأورطى ،

(*) هو مصب تجاويف الدماء فى الأم الجافية أو الغشاء الخارجى للمخ .

والرثوى فى القلب . وكان لديه فكرة ما عن التمثيل الأساسى للأغذية لأنه ابتدع مسعرا فجا لقياس حرارة الزفير(٤٧) . ويقول إرسستراتوس إن كل عضو يتصل بسائر أجزاء الكائن الحى بثلاث طرق — بشريان ، ووريد ، وعصب . واجتهد أن يعلل جميع الظواهر الفسيولوجية بعلل طبيعية ، ورفض كل ما يشير إلى موجودات خفية كما رفض نظرية الأخلاط التى قال بها هپارخوس ، والتى احتفظ بها هروفيلوس . وكان يرى أن الطب هو فن منع المرض بمراعاة قواعد الصحة ، وليس هو علاج المرض بالدواء . وكان يقاوم كثرة استعمال العقاقير ، والحجامة ، ويعتمد على تنظيم التغذية والاستجمام والرياضة(٤٨) .

أولئك هم الرجال الذين جعلوا الإسكندرية فى العصر القديم أشبه بقينا فى هذه الأيام . غير أنه كانت توجد أيضا مدارس عظيمة للطب فى تراليس Tralles وميليطس ، وإفسوس ، وبرجوم، وتاراس ؛ وسرقوسة . وكان للكثير من المدن إدارات طبية بلدية ، يتقاضى الأطباء القائمون بالعمل فيها مرتبا وسطا ، ولكن كان من أسباب فخرهم أنهم لايفرقون بين الأغنياء والفقراء والأحرار والأرقاء ، وأنهم كانوا يهبون أنفسهم لعملهم فى أى وقت مهما يكن الخطر المحدق بهم . فقد ذهب أپلونيوس الملطى ليكافح الطاعون فى الجزائر القريبة من موطنه دون أن ينال على ذلك أجرا ، ولما أن فتك المرض بجميع أطباء كوس بعد أن بذلوا كل ما يستطيعون من الجهد لمقاومته ، أقبل غيرهم من أطباء المدن المجاورة لإنقاذهم . وما أكثر القرارات العامة التى أصدرها الحكام للإشادة بذكر الأطباء الهلنستيين والاعتراف بفضلهم ؛ ومع أن الكثيرين من القدماء كانوا يسخرون من عجز الأطباء المأجورين ، فإن هذه المهنة العظمى قد احتفظت بذلك المستوى الأخلاق الرفيع الذى ورثته عن أبقراط والذى كانت تعده أعظم تراثه وأثمنه .

الباب التاسع والعشرون

استسلام الفلسفة

ثلاث نزعات امتزجت فى الفلسفة اليونانية : النزعة الطبيعية (الفيزيقية) والنزعة الميتافيزيقية ، والنزعة الأخلاقية . ووصلت النزعة الطبيعية إلى غايتها فى أرسطو والميتافيزيقية فى أفلاطون ، والأخلاقية فى زينون القبرصى ؛ وانتهى تطور النزعة الطبيعية بفصل العلم عن الفلسفة على يد أركميديز ، وهپارخوس ، وانتهت النزعة الميتافيزيقية بتشكك پيرون Pyrrho والمجمع المتأخر ، وبقيت النزعة الأخلاقية حتى غلبت المسيحية على الأبيقورية والرواقية أواندمجتا فيها .

الفصل الأول

هجوم المتشككة

لقد احتفظت أثينة فى هذه الثقافة الهلنستية — وكانت هي أم الكثير ، وسيدة الجزء الأكبر ، منها — احتفظت فيها بمكان الزعامة فى ميدانين : التمثيل والفلسفة . ولم يكن العالم منهمكا فى الحروب والثورات ، والعلوم الجديدة والأديان الجديدة ، وحب الجمال والجرى وراء المال ، لم يكن منهمكا فى هذا كله إلى حد لايستطيع معه أن يجد بعض الوقت ينفقه فى المشاكل التى لايجد لها جوابا ، ولكنها لاتنفك تواجهه فلا يستطيع منها فراراً ، مسائل الخطأ والصواب ، والمادة ، والعقل ، والحرية والضرورة ، والنبل والخسة ، والحياة والموت . وقدم الشبان من جميع مدن البحر الأبيض المتوسط ، وكثير

ماكانوا يلاقون أشد الصعاب وهم قادمون ، ليدرسوا فى الأبهاء والحدائق التى خلفها أفلاطون وأرسطو آثاراً لهما خالدة من بعدهما .

وواصل ثاوفراسطوس اللسبوسى المجد النشط فى اللوقيون تقاليد الطريقة الاختبارية . لقد كان المشاءون علماء وباحثين أكثر منهم فلاسفة ، وهبوا حياتهم للبحث المتخصص فى علوم الحيوان والنبات ، والسير ، وتاريخ العلوم ، والفلسفة ، والأدب ، والقانون . وارتاد ثاوفراسطوس فى أثناء زعامته العلمية التى دامت أربعاً وثلاثين سنة (٣٢٢ — ٢٨٨) ميادين علمية كثيرة ، ونشر بحوثه فى أربعمائة مجلد تكاد تعالج كل موضوع من الحب إلى الحرب . وقد شدد النكير على النساء فى رسالته « فى الزواج » ، فردت عليه لينتيوم حظية أبيقور برسالة غزيرة المادة ، شديدة الوقع عليه ، فندت فيها أراءه[1] . ومع هذا فإن اثنيوس يعزو إلى ثاوفراسطوس ذلك القول الدال على رقة العاطفة : « إن التواضع هو الذى يجعل الجمال جميلا »[2] ويصفه ديجين ليرنس بأنه « من أحب الناس للخير ومن أكثرهم ظرفا » . وقد بلغ من فصاحته أن نسى الناس اسمه الأول فلم يذكروه إلا بالاسم الذى أطلقه عليه أرسطو والذى يعنى أنه يتكلم كما تتكلم الآلهة ؛ وقد بلغ من حب الناس إياه أن ألفين من الطلاب كانوا يهرعون إلى سماع محاضراته ، وكان مناندر من أخلص أتباعه[3] .

وقد عنى الناس من بعده أشد العناية بالاحتفاظ بكتابه فى « الأخلاق » ، ولم يكن احتفاظهم به لأنه أوجد طرازاً جديداً فى الأدب ، بل لأنه سخر أشد السخرية من الأخطاء التى يعزوها الناس جميعاً لغيرهم من الناس . فهنا الرجل الثرثار الذى يبدأ بمدح زوجته ، ثم يروى الرؤيا التى نراها فى الليلة السابقة ، ويعدد أصناف الأطعمة التى تناولها فى العشاء صنفا صنفا ؛ ثم يختم حديثه بقوله « إننا لم نعد كما كنا» من قبل فى الأيام الخالية . وهنا الرجل الغبى الذى

« إذا ذهب ليشاهد مسرحية ، تركه الناس فى آخر التمثيل مستغرقاً فى النوم فى الدار الخاوية . . فهو يثقل معدته بالعشاء الدسم ، فيضطر إلى السهرليلا ، ويعود إلى منزله وهو بين النوم واليقظة ، فلا يعرف بابه ، ويعضه كلب جاره »(٤) .

ومن الحوادث القليلة فى حياة ثاوفراسطوس أن الدولة أصدرت مرسوما (٣٠٧) يحتم موافقة الجمعية على من يختارون لرياسة المدارس الفلسفية . وحوالى هذا الوقت نفسه ، وجه أجننيديز Agnonides إلى ثاوفراسطوس التهمة القديمة ، تهمة المروق من الدين ؛ فما كان من ثاوفراسطوس إلا أن غادر أثينة فى هدوء ، ولكن الطلاب الذين غادورها بعده بلغوا من الكثرة حدا جعل التجار يجأرون بالشكوى من كساد بضاعتهم الذى يوشك أن يحل بهم الخراب . فلم تمض سنة على صدور المرسوم حتى اضطرت الدولة إلى إلغائه ، وعاد ثاوفراسطوس ظافرا ليرأس اللوقيون ويظل رئيساً لها إلى قرب وفاته فى سن الخامسة والثمانين . ويقال إن « أثينة بأجمعها » شيعت جنازته . ولم تبق مدرسة المشائين طويلا بعد وفاته ؛ ذلك أن العلم خرج من أثينة بعد أن افتقرت إلى الإسكندرية الغنية الرخية ، وانحطت اللوقيون التى كانت قد وهبت نفسها للبحث العلمى فلم يعد يسمع الناس عنها إلا القليل .

وفى هذه الأثناء كان اسبيوسپوس Speusippus قد خلف أفلاطون أكسانوقراطيس أسبيوسپوس Xenocrates Speusippus فى المجمع العلمى . وظل أكسانوقراطيس يحكم المجمع ربع قرن من الزمان (٣٣٩ — ٣١٤) ، ورفع من شأن الفلسفة بحياته النبيلة البسيطة . وقد انهمك فى الدرس والتعليم ، فلم يكن يترك المجمع إلا مرة واحدة فى العام ليشهد المآسى الديونيشية ، ويقول ليرتيوس إنه كان إذا ظهر « أفسح الطريق له غوغاء المدينة المشاكسون المشاغبون (٥) » . وكان يأبى أن يتقاضى أجرا ما على عمله . وبلغ من فقره

أن كاد يزج به في السجن لعجزه عن أداء الضرائب ، ولكن أمتريوس الفالرومي أدى عنه ما كان متأخراً عليه وأطلق سراحه . وقال فليب المقدوني إن أكسانوقراطيس كان أطهر يدا من جميع الشعراء الأثينيين الذين أرسلوا إليه . وقد تضايقت فريني Phryne من اشتهاره بالفضيلة ، فادعت أن بعض الناس يطاردونها ، ولجأت إلى بيته ، ولما رأت أن ليس فيه إلا سرير واحد سألته هل يقبل أن تنام معه فيه . وأجابها إلى ماطلبت مدفوعا إلى ذلك ، على ما يقال لنا ، بعوامل إنسانية محضة ؛ ولكنه بلغ من بروده وعدم استجابته لتوسلاتها وفتنتها ، أن فرت من فراشه وضيافته ، وشكته إلى أصدقائه قائلة إنها وجدت تمثالا لا رجلا(٦) . ذلك أن أكسانوقراطيس لم يكن يريد أن يعشق غير الفلسفة .

ولما مات أوشكت النزعة الميتافيزيقية فى التفكير اليونانى أن يقضى عليها فى الأيكة التى كانت مزارها ومتعبدها . ذلك أن خلفاء أفلاطون كانوا من علماء الرياضة والأخلاق ، وقلما كانوا ينفقون شيئاً من وقتهم فى دراسة المسائل المجردة التى كانت من قبل تتردد بين جوانب المجمع العلمى ، واستعادت تحديات زينون الإيلياتى التشككية ، ونزعة هرقليطس الموضوعية ، وتشكك غورغياس وپروتاغوراس المنظم ، ولا أدرية سقراط وأرستيپوس وإقليدس المجارى ، استعادت هذه كلها ماكان لها من سيطرة على الفلسفة اليونانية ، وكان ذلك خاتمة عصر العقل . لقد فكروا فى كل فرض من الفروض العلمية ، وبحث ثم نسي وأهمل ؛ واحتفظ الكون بأسراره ، ومل الناس البحث الذى عجزت عنه أنبه العقول نفسها . وكان أرسطو قد اتفق مع أفلاطون فى نقطة واحدة — وهى أن فى الإمكان الوصول إلى الحقيقة النهائية(٧) . وعبر پيرون Pyrrho عن تشكك عصره بقوله إن هذه النقطة هى التى أخطأ فيها الفيلسوفان أكثر مما أخطأا فى أية نقطة أخرى .

وولد پيرون فى أليس Elis حوالى عام ٣٦٠ وسار مع جيش الإسكندر

الزاحف على الهند ، وتلقى العلم على « من فيها من » السوفسطائيين العراة Gmnosophists ، ولعله أخذ عنهم بعض آرائهم عن التشكك الذى صار اسمه مرادفا له فيما بعد . ولما عاد إلى إليس عاش فقيراً يعلم الناس الفلسفة . وقد منعه الحياء من تأليف الكتب ، ولكن تلميذه تيمن الفليوسي Timon of Phlius نشر آراء پيرون فى أنحاء العالم فى سلسلة من رسائل الهجاء (Silloli) . وكانت هذه الآراء تقوم على ثلاث قواعد رئيسية أولاها : أن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها ، وأن الرجل العاقل يرجئ حكمه ، ويبحث عن الطمأنينة لا عن الحقيقة ؛ وأنه لما كانت كل النظريات خاطئة فى أغلب الظن فإن من الخير للإنسان أن يقبل أساطير زمانه ومكانه وما جرى به العرف فيهما . وثانيتها أن ليس فى مقدور الحواس أو العقل أن تمدنا بعلم أكيد : فالحواس تشوه الشىء الخارجي حين تحسه ، وليس العقل إلا خادم الشهوات المغالط المخادع . وكل قياس منطقى يصادر على المحمول لأن قضيته الكبرى تفترض صحة النتيجة . « وكل علة لها علة تقابلها وتناقضها[٨] » ؛ والتجربة الواحدة قد تكون سارة حسب الظروف المحيطة بها ومزاج صاحبها ؛ والشىء الواحد قد يبدو صغيراً أو كبيراً ، قبيحاً أو جميلا ؛ والعمل الواحد قد يعد فضيلة أو رذيلة حسب المكان والزمان اللذين نعيش فيهما ؛ والآلهة نفسها قد تكون وقد لا تكون حسب اعتقاد أمم الخلائق المختلفة ؛ وكل شىء هو رأى ، ولا شىء قط حقيقى كل الحق — فمن الحمق إذن أن ينحاز الإنسان فى المنازعات إلى هذا الجانب أو ذاك ، أو أن يبحث له عن مكان آخر يعيش فيه أو طريقة أخرى يعيش بها ، أو أن يحسد المستقبل أو الماضى » ؛ فالرغبات كلها خداع باطل . وحتى الحياة نفسها خير غير مؤكد ، والموت نفسه ليس شرا مؤكدا ، والواجب على الإنسان ألا يتحيز ضد هذا الشىء وذاك . وثالثة هذه القواعد أن أفضل الأشياء جميعها للإنسان أن يقبل الحياة كما هى فى هدوء واطمئنان ، فلا يحاول إصلاح العالم ، بل يرضى به وهو صابر عليه ، ولا ينهمك فى العمل على تقدمه ، بل يقنع بالسلام . وحاول پيرون مخلصاً أن يسير فى حياته على

هدى هذه الفلسفة النصف الهندية ، فخضع لعادات إليس وعبادتها ، ولم يبذل جهدا ما فى تجنب الأخطار أو إطالة حياته(٩) ، ومات فى سن التسعين . وأحبه مواطنوه ورضوا عنه وكرموه بأن أعفوا زملاءه الفلاسفة من الضرائب .

وكان من سخريات الأيام أن أتباع أفلاطون هم الذين وجهوا هذه الحملة على الميتافيزيقا . ذلك أن أرسسلوس الذى أصبح فى عام ٢٦٩ رئيس « المجمع العلمى الأوسط » حول رفض أفلاطون للمعلومات المستمدة من الحواس إلى تشكك كامل يضارع فى ذلك تشكك بيرون ، ولعلهم فعلوا ذلك بتأثير بيرون نفسه. ومن أقوال أرسسلوس فى هذا المعنى : « لاشىء مؤكد ، حتى ذلك القول نفسه(١١) » . ولما قيل له إن هذه العقيدة تجعل الحياة مستحيلة قال إن الحياة قد عرفت من زمن بعيد كيف تدبر أمرها بالاحتمالات . وقام على رأس « المجمع العلمى الجديد » بعد قرن من الزمان رجل آخر كان أكثر تشككا من أرسسلوس ، وأوصل عقيدة التشكك العام إلى العدمية الذهنية والأخلاقية ، ونعنى بذلك الرجل قرنيادس القوريني Carneades of Cyrene . فقد جاء هذا الأبلار(*) اليونانى إلى أثينة حوالى عام ١٩٣ ، ونغص الحياة على كريسبوس Chrysippus وغيره من معلميه، بحججه الدقيقة المؤلمة ضد كل عقيدة يعلمونها . وإذ كانوا يبغون أن يجعلوه عالما منطقياً، فقد اعتاد أن يقول لهم موجها قوله إلى پروتاغوراس : « إذا كان منطقى صحيحا فبها ونعمت ، وإذا كان خطأ فأعيدوا إلى ما أديته من الأجر لتعليمى »(١٢) . ولما أنشأ لنفسه حانوتا كان يحاضر فى صباح يوم ما فيحبذ رأيا من الآراء ، وفى اليوم التالى يحبذ نقيضه ، ويبرهن على صحة كليهما بحيث يقضى عليهما جميعا ، بينا كان تلاميذه ، وكاتب سيرته نفسه، يحاولون عبثا أن يعرفوا آراءه الحقيقية . وأخذ على عاتقه أن يفند واقعية الرواقيين المادية ببحثه التحليلى الأفلاطونى — الكانتى فى الحواس والعقل .

(*) پيير أبلار Pierre Abelard الفيلسوف الفرنسى ١٠٧٩ — ١١٤٢ . (المترجم)

وهاجم كل النتائج المنطقية ووصفها بأنها لايستطاع الدفاع عنها عقليا ، وأمر طلابه أن يقنعوا بالاحتمالات ويرضوا بعادات زمانهم . ولما أرسلته أثينة ضمن بعثة سياسية إلى رومة (١٥٥) أدهش مجلس الشيوخ بأن خطب فى يوم من الأيام مدافعا عن العدالة ، ثم خطب فى اليوم التالى مستهزئا بها وواصفا إياها بأنها حلم غير عملى وقال : إذا شاءت رومة أن تتبع طريق العدالة فعليها أن تعيد إلى أمم البحر الأبيض المتوسط كل ما أخذته منها بفضل تفوقها عليها فى القوة[١٣] . وفى اليوم الثالث اضطر كاتو أن يعيد البعثة إلى بلدها لأنها خطر على الأخلاق العامة . وربما كان بولبيوس — وكان وقتئذ رهينة عند سپيو — قد سمع هاتين الخطبتين أوسمع عنهما ، لأنه يندد تنديد الرجل العملى بأولئك الفلاسفة .

« الذين دربوا أنفسهم فى مناقشات المجمع العلمى على الإفراط فى الاستعداد للخطابة . ذلك أن بعضهم يلجئون إلى أشد الأشياء تناقضا فيما يبذلون من جهد ليحيروا عقول سامعيهم ، وأنهم برعوا فى اختراع مايبررون به هذه المتناقضات ، حتى أنك تراهم يتناقشون وهم حيارى لايدرون هل يستطيع من فى أثينة أن يشموا رائحة البيض الذى يغلى فى إفسوس أو لايستطيعون أن يشموها ، ويظنون طوال الوقت الذى يناقشون فيه مسألة فى المجمع العلمى أنهم قد يكونون نائمين فى بيوتهم يؤلفون خطبهم فى أحلامهم . . وقد سوءوا سمعة الفلسفة جميعها بهذا الحب المفرط للمتناقضات . . . وغرسوا فى عقول شبابنا هذا الحب الشديد ، فكان من أثره أن أولئك الشبان لا يفكرون أقل تفكير فى المسائل الأخلاقية والسياسية التى تفيد طلاب الفلسفة بحق ، بل تراهم يقضون وقتهم فى محاولات عديمة الجدوى لاختراع السخافات والأباطيل التى لا نفع فيها »[١٤] .

الفصل الثاني

فرار الأبيقورية

لقد أخطأ پوليبيوس إذ ظن أن المسائل الأخلاقية قد فقدت إغراءها للعقل اليوناني ، وإن كان قد وصف للأجيال التالية الكثيرة صاحب النظريات الذى يضيع حياته فى دياجير البحث النظرى المعقد . ودليلنا على خطئه فى هذا الظن أن النغمة الأخلاقية نفسها هى التى حلت فى ذلك العهد محل النغمتين الفيزيقية والميتافيزيقية فكانت النغمة السائدة فى الفلسفة . والحق أن المشاكل السياسية قد خمدت نارها لأن حرية الكلام قد قضى عليها وجود الحاميات الملكية فى البلاد أو ذكرى وجودها ، وفهم الناس ضمنا أن الحرية القومية إنما تقوم على الهدوء والاستقرار . يضاف إلى هذا أن مجد الدولة الأثينية كان قد انقضى عهده ، وأن الفلسفة كان عليها أن تواجة تلك القطيعة التى لم يكن لبلاد اليونان عهد بها من قبل ونعنى بها القطيعة بين السياسة والأخلاق . وكان عليها أن تجد أسلوبا للحياة يجمع بين رضاء الفلاسفة وعدم التعارض مع العجز السياسى . ولذلك لم تفهم المشكلة التى تواجهها على أنها لم تعد مشكلة بناء دولة عادلة ، بل فهمتها على أنها تكوين الفرد الراضى القانع المنطوى على نفسه .

وقد سار التطور الأخلاقى وتشتت فى اتجاهين متضادين ؛ فسلك أحدهما السبيل التى يتزعمها هرقليطس ، وسقراط ، وأنستانس ، وديجين ، ووسع نطاق الفلسفة الكلبية حتى أضحت هى الفلسفة الرواقية . وتفرع الطريق الآخر من دمقريطس ومال ميلا شديدا نحو أرستپوس واجتذب العقيدة القورينية إلى العقيدة الأبيقورية . وجاءت النزعتان من آسية وكانت كلتاهما تعويضا فلسفيا عن التدهور الدينى والسياسى الذى حل فى ذلك الوقت . فاشتقت الرواقية من العقيدة السامية عقيدة وحدة الوجود ، والجبرية ، والاستسلام

للقضاء والقدر ؛ واشتقت الأبيقورية من طبيعة اليونان المستوطنين شواطئ آسية وما فطروا عليه من حب اللذة .

وقد ولد أبيقور فى جزيرة ساموس عام ٣٤١ . وشغف بالفلسفة وهو فى الثانية عشرة من عمره ؛ ولما بلغ التاسعة عشرة رحل إلى أثينة وقضى عاماً فى مجمعها العلمى ، وكان كفرنسيس بيكن يفضل دمقريطس عن أفلاطون وأرسطو ، وعنه أخذ بعض اللبنات التى شاد بها فلسفته ، كما أخذ عن أرستيوس حكمة اللذة ، وعن سقراط لذة الحكمة ، وعن پيرون عقيدة الهدوء ، واسمها الطنان الرنان أتركسيا Ataraxia : وما من شك فى أنه كان يرقب بكثير من الاهتمام حياة معاصره ثيودورس القورينى ، الذى كان يخطب فى أثينة داعياً إلى الخروج على الدين والأخلاق جهرة وفى صراحة جعلت الجمعية توجه إليه تهمة الإلحاد[١٥] — وكان درساً لم ينسه أبيقور قط . ثم عاد إلى آسية وأخذ يلقى محاضرات فى الفلسفة فى كلوفون Colophon . وقد بلغ من تأثر للمپسكيين بآرائه وأخلاقه أن شعروا بوخز ضميرهم على أنانيتهم إذ يحتفظون به فى مدينتهم النائية ، فجمعوا مبلغاً من المال قدره ثمانون مينا (٤٠٠٠ ريال أمريكى) ، واشتروا به بيتاً وحديقة فى ضواحى أثينة ، وأهدوهما إلى أبيقور ليكونا له مدرسة ومنزلا . ولما بلغ أبيقور الخامسة والثلاثين من عمره فى عام ٣٠٦ اتخذ هذه الدارسة مسكنا له وأخذ يعلم الأثينيين فلسفة لم تكن أبيقورية إلا فى اسمها ؛ وكان من أدلة تحرر النساء فى ذلك الوقت أنه كان يرحب بهن حين يجئن للاستماع إلى محاضراته ، بل كان يرحب بهن فى الجماعة القليلة العدد التى كانت تسكن معه . ولم يكن يفرق بين الناس بسبب مراكزهم أو أجناسهم ، فكان يقبل العاهرات والزوجات ، والأرقاء والأحرار ، وكان أحب تلاميذه إليه عبده ميسيس Mysis : وأضحت العاهر ليونتيوم Leontium عشيقته وتلميذته ، ووجدت فيه رفيقاً شديد الغيرة كأنه قد حصل عليها بالطريقة

القانونية المرسومة . وولدت منه طفلاً واحداً ، وبتأثيره ألفت عدة كتب لم يتأثر فيها أسلوبها بفساد أخلاقها :

وأما فيما عدا هذا فقد عاش أبيقور عيشة الرواقيين البسيطة ، واتخذ له شعاراً « عش معتدلا » . وكان يؤدى واجبه فى طقوس المدينة الدينية ، ولكنه لم يلوث يديه بشئونها السياسية ، ولم يقيد روحه بشئون العالم . وكان يقنع فى غذائه بالماء وقليل من الخمر ، والخبز والجبن . وكان منافسوه يتهمونه بأنه يملأ معدته بالطعام حين كان ذلك فى مقدوره ، وأنه لم يتعفف عن الإكثار منه إلا حين أتلف جهازه الهضمى بكثرة الأكل . ولكن ديجين لبرتيوس يؤكد لنا : « أن الذين يقولون هذا مخطئون جميعهم » ويضيف إلى ذلك قوله : « إن كثيراً من الناس ليشهدون بما ينطوى عليه قلب الرجل من شفقة ، ليس بعدها شفقة ، على الناس جميعاً — سواء فى ذلك أهل بلاده التى كرمته بإقامة التماثيل ، وأصدقاؤه الذين كانوا من الكثرة بحيث تضيق بهم مدن برمتها(١٧) » . وكان باراً بأبويه ، سخياً مع إخوته ، رفيقاً بخدمة الذين كانوا يشتركون معه فى دراساته الفلسفية . ويقول سنكا إن تلاميذه كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى إله قائم بينهم ، وكان شعارهم بعد موته هو : « عش كأن عين أبيقور ترقبك » .

وقد وجد بين دروسه وحبه من الوقت مايؤلف فيه ثلثمائة كتاب . وحفظ لنا رماد هركيولانيوم قطعاً متفرقة من أهم كتاب له وهو المسمى « فى الطبيعة » . وورث المتأخرون عن ديجين لبرتيوس ، أفلوطوخس الفلسفة ، ثلاثة من خطاباته ، وأضافت إليها الاستكشافات المتأخرة عدداً آخر منها قليلا . وأهم من هذا كله أن لكريشيوس خلد أفكار أبيقور فى قصيدة له تعد أعظم القصائد الفلسفية على الإطلاق .

ولعل أبيقور قد أدرك وقتئذ أن فتوح الإسكندر كانت تطلق من الشرق على بلاد اليونان ما لايحصى من الطقوس الغامضة الخفية ، فبدأ بتقرير المبدأ

القائل إن هدف الفلسفة هو أن تحرر الناس من الخوف — وخاصة من خوف الآلهة ؛ وهو يكره الدين لأن الدين ، فى رأيه ، يقوم على الجهل ، ويزيده ، ويظلم الحياة بما يبثه فى النفس من رهبة جواسيس السماء ، والأقدار الصارمة القاسية ، والعقاب الذى لا يقف عند حد . ويقول أبيقور إن الآلهة موجودة ، وإنها تستمتع فى مكان بعيد بين النجوم بحياة صافية هادئة منزهة عن الموت ، ولكنها أعقل من أن تشغل نفسها بشئون البشر وهم ذلك النوع الصغير التافه من الخلائق . وليست الآلهة هى التى أنشأت العالم وليست هى التى ترشده وتسيره . وكيف يستطيع هؤلاء الأبيقوريون المقدسون أن يخلقوا هذا العالم الوسط ، وهذا المشهد المكون من خليط من النظام والفوضى ؛ والجمال والألم(١٠) ؟ ؛ ويضيف أبيقور إلى ذلك قوله : « فإن كان هذا لايرضيكم ، فلتعزوا أنفسكم بأن تفكروا فى أن الآلهة بعيدة عنكم بعداً لاتستطيع معه أن تضركم أو تنفعكم ، ذلك أنها لاتستطيع أن تراقبكم ، أو أن تحكم على أعمالكم ، أو أن تقذف بكم إلى الجحيم . أما الآلهة الخبيثة أو الشياطين فهى أوهام تعسة تصورها لنا أحلامنا » .

وبعد أن رفض أبيقور الدين رفض أيضا الميتافيزيقا . وحجته فى هذا أننا عاجزون عن معرفة شىء عن العالم الذى لاتدركه الحواس ؛ ولذلك يجب ألا نشغل عقولنا بغير التجارب التى تدركها الحواس ، وأن نعد هذه التجارب آخر محك للحقيقة : ويجمع أبيقور فى جملة واحدة كل المسائل التى ناقشها لك Locke وليبنتز Leibnitz بعد ألفى عام من ذلك الوقت : إذا لم تأت المعرفة من الحواس ، فمن أى طريق آخر تأتى إذن ؟ وإذا لم تكن الحواس هى الحكم الأخير فى الحقائق ، فكيف نجد هذا الحكم فى العقل الذى لا تصل إليه المعلومات إلا عن طريق الحواس ؟

ومع هذا فهو يرى أن الحواس لا تمدنا بمعلومات أكيدة عن العالم الخارجى ، فهى لاتمسك بالشىء الخارجى نفسه ، بل تمسك بالذرات الدقيقة التى يقذف

بها كل جزء من سطحه ، والتي تطبع على حواسنا نسخة صغيرة من طبيعته وشكله فإذا كان لابدَّ لنا والحالة هذه أن نكون لأنفسنا نظرية عن العالم (وليس تكوين هذه النظرية في واقع الأمر ضرورياً) فخير لنا أن نأخذ برأى دمقريطس القائل بأن لا شيء موجود ، أو يمكن أن يكون معروفاً لنا ، بل لاشيء يمكن أن نتخيله ، اللهم إلا الأجسام والفضاء ، وبأن الأجسام كلها تتألف من ذرات لاتنقسم ولا تتغير ... وليس لهذه الذرات لون ، ولا حرارة ، ولاصوت ، ولا ذوق ، ولا رائحة . وإنما تنتج كلها من الكريات المشعة من الأجسام والتي تلقى على أعضاء الحس في أجسامنا . ولكن الذرات تختلف في حجمها ، ووزنها وشكلها : لأن هذا الفرض وحده هو الذى نستطيع أن نفسر به ما بين الأشياء من اختلاف لا آخر له . وكان أبيقور يحب أن يفسر عمل الذرات على مبادئ آلية خالصة ، ولكنه لما كان مولعا بالأخلاق أكثر من ولعه بنظام الكون ، ولما كان حريصاً على أن يستمسك بحرية الإرادة بوصفها مصدر التبعة الأخلاقية ودعامة الشخصية ، فإنه يترك دمقريطس معلقاً بين السماء والأرض ، ويفترض وجود نوع من التلقائية في الذرات : فهى تحيد قليلا عن الخط العمودى حين تهوى في الفضاء ، وبهذا تدخل في التراكيب التي تتكون منها الأركان (العناصر) الأربعة ، والتي تتكون منها — عن طريق هذه الأركان — المشاهد الخارجية[٢٠] . وهناك عوالم كثيرة ، ولكن ليس من العقل في شيء أن نشغل بها أنفسنا . وفي وسعنا أن نفترض أن حجمى الشمس والقمر يقربان من حجميهما اللذين يبدوان لنا ، فإذا فعلنا هذا كان في مقدورنا أن نصرف وقتنا في دراسة الإنسان .

والإنسان نتاج طبيعى في جزئياته ومجموعه . وأكبر الظن أن الحياة قد بدأت بالتوالد التلقائى ، ثم ارتقت على غير خطة مرسومة بالانتخاب الطبيعى لأصلح الأشكال[٢١] . وليس العقل إلا نوعا آخر من المادة ، والروح جسم مادى رقيق منبث في جميع أجزاء الجسم[٢٢] ، وهى لا تستطيع أن تحس

أو تعمل إلا بوساطة الجسم ، وتموت بموته . ولكن علينا بالرغم من هذا كله أن نقبل ما ندركه إدراكاً مباشراً من أننا أحرار فيما نريد ، وإلا كنا ألاعيب على مسرح الحياة لا قيمة لها ولا معنى لوجودها . وخير لنا أن نكون عبيداً للآلهة التي يقول بها الخلق ، من أن نكون عبيداً للأقدار التي يقول بها الفلاسفة(٢٣)

على أن وظيفة الفلسفة الحقيقية ليست هي تفسير العالم ، لأن الجزء لا يستطيع قط أن يفسر الكل ، بل وظيفتها أن تهدينا في بحثنا عن السعادة . « وليس الذي نضعه نصب أعيننا هو مجموعة من النظم والآراء التي لا جدوى منها ، بل الذي يجب علينا أن نعنى به هو الحياة المبرأة من كل نوع من أنواع الجزع والاضطراب(٢٤) » . وقد كتبت على مدخل حديقة أبيقور تلك الخرافة الجذابة « أيها الزائر ، ستكون هنا سعيداً ، لأن السعادة هنا تعد أعظم خير » ، وليست الفضيلة في هذه الفلسفة غاية في ذاتها ، بل هي وسيلة لابد منها للوصول إلى الحياة السعيدة(٢٥) . وليس في وسع الإنسان أن يحيا حياة سارة من غير أن يحيا حياة تتصف بالفطنة ، والشرف والعدالة ؛ وليس في وسعه أن يحيا حياة متصفة بالفطنة والشرف والعدالة من غير أن يحيا حياة سارة(٢٦) » . وليس في الفلسفة إلا قضيتان اثنتان مؤكدتان ، وهما أن اللذة خير ، وأن الألم شر ؛ والملاذ الجنسية في ذاتها مشروعة ، وستجد الحكمة لها مكاناً فيها ؛ غير أنه لما كانت هذه الملاذ قد تؤدي إلى عواقب وخيمة ، فإنها في حاجة إلى جهاد حصيف فطين لا يستطيعه إلا صاحب الذكاء ؛

« فإذا قلنا إذن إن اللذة هي أعظم خير ، فلسنا نقصد بذلك لذات الرجل الفاجر الداعر ، أو اللذات التي تقع في مجال المتعة الجنسية ... ولكننا نقصد تحرر الجسم من الألم ، والروح من الانزعاج . ذلك أن الشراب والمرح الدائمين أو الاستمتاع بصحبة النساء أو ولائم السمك وغيره من الأطعمة الغالية ليست هي التي تجعل الحياة سارة لذيذة ، بل الذي يجعلها كذلك هو التفكير الهادئ

الرزين ، الذى يفحص عن أسباب اختيار هذا الشىء وتجنب ذاك ، والذى يطرد الأفكار الباطلة التى ينشأ عنها معظم ما يزعج النفس من اضطراب .

ونخلص من هذا إذن إلى أن الفهم ليس هو أسمى الفضائل فحسب ، بل إنه أيضاً أسمى أنواع السعادة ، لأنه يعيننا أكثر مما تعيننا أية موهبة أخرى من مواهبنا على تجنب الألم والحزن . والحكمة هى وسيلتنا الوحيدة إلى الحرية : فهى تحررنا من رق الانفعالات ، ومن خوف الآلهة ، والفزع من الموت ؛ وهى تعلمنا كيف نتحمل مصائب الدهر ، وكيف نستمد من طيبات الحياة البسيطة ولذات العقل الهادئة لذة عميقة خالدة . وليس الموت مخيفاً رهيباً كما نظنه إذا نظرنا إليه نظرة عاقلة قائمة على الذكاء والفطنة ؛ فقد يكون ماينطوى عليه من الألم أقصر أمداً وأخف وقعاً مما عانيناه المرة بعد المرة فى أثناء حياتنا . والذى يخلع على الموت ما يعلق به من رهبة هو أوهامنا السخيفة عما قد يكون وراء الموت . ثم انظر إلى القليل الذى تحتاجه القناعة الحكيمة — إنها لاتحتاج إلا إلى الهواء الطلق ، وأرخص الطعام ، ومأوى متضع ، وفراش ، وقليل من الكتب ، وصديق « وكل شىء طبيعى يسهل الحصول عليه ، والعديم النفع وحده هو الكثير النفقة » . وعلينا ألا نقضى حياتنا فى نكد مستمر نحاول أن نحقق كل شهوة تطوف بروحنا : « وفى وسعنا أن نغفل الشهوات متى كان عجزنا عن إشباعها لايسبب لنا ألماً بحق[٢٩] » ، وحتى الحب ، والزواج ، والأبوة أمور يمكن الاستغناء عنها ، فهى تعود علينا بلذائذ متقطعة ، وبحزن لاينتهى أبداً[٣٠] . وإذا تعودنا المعيشة البسيطة ، والأساليب غير المعقدة ، فذلك طريق لايكاد يخطئ يوصلنا إلى صحة الجسم[٣١] . والرجل الحكيم لايحترق قلبه بالمطامع أو شهوة الصيت ؛ وهو لايحسد أعداءه على ما نالوا من حظ طيب ، بل إنه لا يحسد أصدقاءه على هذا الحظ ؛ وهو يتجنب ما فى المدينة من حمى

المنافسات وضوضاء المنازعات السياسية ، بل يطلب هدوء الريف ، ويجد أوكد السعادة وأعمقها فى هدوء الجسم والعقل . ولما كان هو المسيطر على شهواته ، فإنه يعيش بعيداً عن الادعاء الكاذب ، ويطرح وراءه كل المخاوف ، وتجزيه « حلاوة الحياة » hedone الطبيعية بأعظم أنواع الخير وأعلاها شأناً وهو السلم .

تلك عقيدة شريفة جديرة بالحب ، ومما يملأ النفس شجاعة أن يجد المرء فيلسوفاً لايخاف اللذة ومنطقياً لديه كلمة طيبة يقولها عن الحواس . وليس فى هذا الكلام غموض وليس فيه تمجيد شديد للفهم ، بل إن الأبيقورية ، على الرغم من أنها هى التى نقلت النظرية الذرية من العهد القديم إلى العصر الحديث ، كانت نقطة تحول من نزعة التشوف القوية التى أنشأت العلم اليونانى والفلسفة اليونانية . وأكبر عيب فى هذه الفلسفة هو سلبيتها : فهى تفكر فى اللذة على أنها التحرر من الألم ، وفى الحكمة على أنها فرار من مخاطر الحياة وامتلائها ؛ وهى خطة صالحة طيبة للفردية ولكنها لاتصلح للمجتمع . وكان أبيقور يحترم الدولة لأنه يراها شراً لابد منه ، يستطيع تحت حمايتها أن يعيش آمناً من الأذى فى حديقته ، ولكن يبدو أنه لم يكن يعنى بالاستقلال القومى ، بل يبدو أن مدرسته كانت فى واقع الأمر تفضل الملكية المطلقة عن الدمقراطية ، لأن الأولى أقل من الثانية ميلا إلى اضطهاد الإلحاد[٣٢] — وهو قلب للعقائد الحديثة يستلفت الأنظار ، وكان أبيقور على استعداد لأن يقبل أية حكومة لا تضع أية عقبة فى سبيل طلب الحكمة والصداقة طلباً مطلقاً من القيود والعوائق . وكان إخلاصه للصداقة يعدل إخلاص الأجيال التى سبقته للدولة : « إن الصداقة أهم الوسائل التى تهيئها الحكمة لسعادة الحياة بأجمعها »[٣٣] . وكانت صداقات الأبيقوريين مضرب المثل فى دوامها ، ورسائل زعيمهم مليئة بعبارات الحب الخالص القوى[٣٤] . وقد بادله مريدوه هذا الشعور بالقوة التى نعهدها فى مشاعر اليونان : وحسبنا دليلا على هذا أن الشاب كولوتيز

Colotes حين سمع ابيقور لأول مرة خر راكعاً، وبكى، وحياه بأنه إله(٣٥).

وظل أبيقور ثلاثين عاما يعلم فى حديقته ويفضل المدرسة عن الأسرة حتى إذا كان عام ٢٧٠ قاسى أشد الآلام من حصوة فى المثانة، ولكنه تحمل الألم بصبر عجيب، ووجد وهو على فراش الموت متسعا من الوقت للتفكير فى أصدقائه: «أكتب إليكم فى هذا اليوم السعيد الذى هو آخر أيام حياتى. إن انسداد مثانتى، وآلامى الداخلية قد وصلا إلى غايتهما، ولكنهما يقف فى سبيلهما ابتهاج عقلى حين أفكر فى حديثى معكم. اعتنوا بأطفال مترودوروس العناية الخليقة بإخلاصكم لى وللفلسفة طوال حياتكم(٣٦). وأوصى بما يملك للمدرسة راجياً «ألا يشعر أى واحد من الذين يدرسون الفلسفة بالحاجة ... على قدر ما تصل إليه قوتنا لمنعها»(٣٧).

وترك أبيقور وراءه مريدين خلف بعضهم بعضاً زمناً طويلا، وقد بلغ من وفائهم لذكراه أن ظلوا قروناً طوالا يأبون أن يغيروا كلمة واحدة من تعاليمه. وكان أشهر تلاميذه كلهم مترودوروس اللمپسكى Metrodorus of Lampascus وقد أدهش بلاد اليونان كلها أو أثار ضحكها بتلخيصه الأبيقورية كلها فى قوله إن «كل الطيبات ذات صلة بالبطن»(٣٨)، ولعله كان يقصد بهذا أن الملاذ كلها جسمية وأنها فى آخر الأمر معوية. ورد عليه كريسپوس بتسميته علم البطنة الذى تخصص فيه أركسترانوس «مركز الفلسفة الأبيقورية»(٣٠). وأساء الجمهور فهم الأبيقورية فنددوا بها علنا وساروا على سننها فى أوساط كبيرة فى جميع أنحاء هلاس. واتبعها كثيرون من اليهود الهلنستيين، وبلغ من كثرتهم أن أضحت كلمة أبيقورى عند الأحبار مرادفة لكلمة مرتد عن الدين(٤٠). وفى عام ١٧٣، أو ١٥٥ أخرج من رومة اثنان من فلاسفة

الأبيقوريين بحجة أنهم كانوا يفسدون أخلاق الشباب[٤١] . وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألقى شيشرون هذا السؤال : « لماذا كان لأبيقور أتباع بهذه الكثرة ؟ »[٤٢] ، وكتب لكريشيس أكمل وأظرف عرض بقى حتى الآن للطريقة الأبيقورية . وظل لمدرستهم أتباع ينتمون إليها جهرة إلى عهد قسطنطين ، منهم من سوأ اسم أستاذه فجعله مرادفا للنهم فى المأكل والمشرب ، ومنهم من ظل أمينا يعلم الحكم البسيطة التى تخص فيها فلسفته « الآلهة لاينبغى أن تخاف ، والموت لايمكن الشعور به ، والخير يستطاع نيله ، وكل ما نرهبه يمكن التغلب عليه »[٤٣] .

الفصل الثالث

التوفيق بين الأبيقورية والرواقية

لما كان عدد متزايد من أتباع أبيقور قد أخذوا يفسرون أقواله بأنه ينصح الناس بالجرى وراء اللذة الجسمية فإن النظرية الأساسية فى علم الأخلاق — وهى ما هى الحياة الطيبة ؟ — لم يتوصل إلى حلها ، بل كل ما فى الأمر أنها وضعت فى صيغة أخرى وهى : كيف يوفق بين أبيقورية الفرد الفطرية وبين الرواقية التى لابد منها للجماعة وللجنس البشرى ؟ — وكيف يستطاع أن يوحى إلى أعضاء المجتمع أو أن يرهبوا حتى يسيطروا على أنفسهم أو يضحوا بها لأن هذه التضحية وتلك السيطرة لاغنى عنهما لبقاء المجتمع . ولم يعد فى مقدور الدين القديم أن يؤدى هذا الواجب ، كما أن الدولة القديمة — دولة المدينة — لم تسم بالناس إلى حد يجعلهم ينسون أنفسهم . واتجه اليونان المتعلمون إلى الفلسفة يسألونها الجواب ، واستدعوا الفلاسفة يطلبون إليهم التضحية أو السلوى فى أزمات الحياة ، وبحثوا فى الفلسفة عن نظرة إلى العالم تكسب الوجود الإنسانى معنى خالدا أو حكمة دائمة فى نظام الأشياء ، وتمكنهم من أن ينظروا إلى الموت الذى هم ملاقوه حتما بلا رهبة ولا فزع . لقد كانت الرواقية آخر ما بذله الأقدمون الأمجاد من جهد للبحث عن مبدأ خلقى فطرى ، ولقد حاول زينون مرة أخرى أن يصل إلى الهدف الذى عجز أفلاطون عن الوصول إليه .

وكان زينون من أهل سيتيوم إحدى مدائن قبرص ؛ وكانت المدينة فينيقية فى بعض أحيائها يونانية فى أكثرها ؛ وكثيراً ما يقال إن زينون فينيقى ، ويقال أحياناً إنه مصرى ؛ والذى لاشك فيه أن أبويه يختلط فيهما الدم الهلينى والدم السامى[٤٤] . ويصفه أبلونيوس الصورى بأنه نحيل الجسم ، طويل القامة ،

أسمر اللون ، وأن رأسه كان يميل إلى أحد الجانبين ، وأن ساقيه كانتا ضعيفتين ؛ ويخيل إلينا أن أفروديتى لو عرض عليها لأسلمته إلى أثينا ، وإن لم يكن هفستس Hephaestus خيراً منه . وإذ لم يكن له ما يشغل باله ويشتت جهوده فإنه سرعان ما جمع من التجارة ثروة طائلة ، فلما أن جاء إلى أثينة أول مرة كان لديه ، كما يقولون ، أكثر من ألف وزنة . ويقول ديجين ليرتيوس إن السفينة تحطمت به عند ساحل أتكا ، وإنه فقد ثروته ، فوصل إلى أثينة حوالى عام ٣١٤ وهو لا يكاد يملك شيئاً[٤٥] . وجلس الرجل إلى جوار دكة كتبى وشرع يقرأ فى كتاب ممر بيليا لأكسانوفون وسرعان ما افتتن بأخلاق سقراط ، وأخذ يسأل : « أين يوجد أمثال هذا الرجل اليوم ؟ » . ومر به فى تلك الساعة أقراطيس الفيلسوف الكلبى ، فأشار عليه الكتبى أن يتبع ذلك الرجل . فانضم زينون وهو وقتئذ فى سن الثلاثين إلى مدرسة أقراطيس وسره أن كشف الفلسفة وقال : « لقد قمت برحلة ناجحة موفقة حين تحطمت سفينتى »[٤٦] . وكان أقراطيس هذا رجلا من أهل طيبة نزل عن ثروته البالغ قدرها ثلثمائة وزنه إلى مواطنيه وعاش عيشة الزهد والتقشف التى يعيشها الكلبيون المتسولون . وكان يندد بالدعارة المتفشية فى أيامه ، وينصح الناس بأن يجوعوا ليعالجوا الحب ؛ وشغفت تلميذته هباركيا Hipparchia بحبه ، لكثرة ما كان لديها من الطعام ، وهددت أبويها بأنها سوف تقتل نفسها إذا لم يزوجاها به ، فتوسلا إلى أقراطيس أن ينصحها بالرجوع عن عزمها ، وحاول هو أن يجيبهما إلى ما طلبا ووضع مخلاة تسوله بين قدميها وقال لها : « هذا كل ما أملك ؛ ففكرى الآن فيما تفعلين » ؛ ولم يثن ذلك من عزمها فغادرت منزلها الفخم ، وارتدت ثياب المتسولين ، وذهبت لتعيش مع أقراطيس عيشة العشق الحر الطليق . ويقال لنا إن زواجهما قد تم علنا ، ولكن حياتهما كانت مثلا أعلى فى الحب والوفاء[٤٧] .

وأثرت فى نفس زينون حياة الكلبيين البسيطة الصارمة ؛ ذلك أن أتباع

أنستانس قد أصبحوا وقتئذ هم الرهبان الفرنسسكان فى الزمن القديم ، نذروا أن يعيشوا فقراء زاهدين ، ينامون فى أى مأوى طبيعى يعثرون عليه ، ويعيشون على صدقات الناس الذين يمنعهم جدهم أن يكونوا قديسين . وأخذ زينون عن الكلبيين المبادئ الأولية لنظامه الأخلاقى ، ولم يحاول قط أن يخفى ما هو مدين به إليهم : وقد تأثر بهم فى أول كتاب له وهو كتاب الجمهورية تأثراً جعله يعتنق شيوعيتهم الفوضوية التى لا تكون فيها نقود ، ولا ملكية ، ولا زواج ، ولا دين ، ولا شرائع(٤٨). ولما أدرك أن هذه الطوبى ، وأن نظام التغذية الكلبى ، لايصلحان لأن يكونا منهاجا عمليا للحياة ، فارق أقراطيس وأخذ يدرس مع زنوقراطيس فى المجمع ومع استلپو المغارى . وما من شك فى أنه قرأ كتب هرقليطس قراءة استيعاب لأنه أدخل فى أفكاره كثيراً من آراء هرقليطس — كالنار المقدسة بوصفها روح الإنسان والكون ، وأبدية القانون وتكرار خلق العالم واحتراقه ؛ ولكن كان من عادته أن يقول إنه مدين لسقراط بأكثر مما هو مدين به لغيره من الفلاسفة ، وإن سقراط هو معين الفلسفة الرواقية ومثلها الأعلى .

وبعد أن قضى زينون كثيراً من السنين تحت وصاية غيره من الفلاسفة أنشأ أخيراً مدرسته الفلسفية الخاصة به فى عام ٣٠١ ، وذلك بأن أخذ يتحدث إلى الطلاب وهو رائح غاد تحت أعمدة الاستواءپوسيلى Stoa Poecile أو المدخل المحدد . وكان يرحب بالفقراء والأغنياء على السواء ، ولكنه لم يكن يشجع انضمام الشبان إلى تلاميذه ، لأنه كان يشعر بأن الفلسفة لايفهمها إلا الرجال الناضجو العقل . وحدث أن أطال أحد الشبان فى الكلام فقال له زينون « لقد خلق لنا أذنان وفم واحد لكى ننصت كثيراً ونتكلم قليلا »(٤٩) . وحضر أنتجونس الثانى وهو فى أثينة دروس زينون ، وأضحى صديقا له معجباً به ، يستنصحه فى مهام الأمور ، وأغراه بالترف برهة وجيزة ، ودعاه لأن يعيش

ضيفا عليه فى پلا Pella ، ولكن زينون اعتذر له وأرسل إليه بدلا منه تلميذه پرسيوس Persaeus ، وظل هو أربعين عاما(*) يعلم فى الاستوا ويعيش عيشة تتفق وتعاليمه اتفاقا أصبحت معه عبارة « أكثر اعتدالا من زينون » مثلا سائراً فى بلاد اليونان . وأسلمته الجمعية الأثينية رغم صلته الوثيقة بأنتجونس « مفاتيح الأسوار » ، ووافقت على المال الذى خصص لإقامة تمثال له وإهدائه تاجا ؛ وهذا نص القرار :

« لما كان زينون الستيومى قد قضى سنين كثيرة فى مدينتنا يدرس الفلسفة ، ولما كان فى كل ماعدا هذا رجلا طيبا (هكذا) ، يحض جميع الشبان الذين يسعون لصحبته على الاعتدال فى حياتهم ويجعل حياته أنموذجا لأعظم ما تسمو إليه الحياة ... فقد صحت عزيمة الشعب على تكريم زينون ... وعلى أن يهديه تاجا من الذهب ... وأن يبنى له قبرا فى حى الرمكس من الأموال العامة »(٥١) .

والشائع أن موته كان فى سن التسعين ، ويقول ليرتيوس إنه مات بالطريقة الآتية : « بينا هو خارج من مدرسته إذ زلت قدمه وكسر إصبع من أصابعها ، فضرب الأرض بيده وأعاد بيتا من الشعر فى نيوبى وهو « لقد جئت ؛ فلم تناديني على هذا النحو ؟ ثم خنق نفسه من فوره »(٥٢) .

وواصل عمله فى الاستوا رجلان من يونان آسية هما أقلانيتوس الأسوسى Cleanthes of Assus ومن بعده أقريسپوس الصولي Chrysippus of Soli وكان أقلانيتوس ملاكما محترفا قدم إلى أثينة ومعه أربع درخمات ، واشتغل فاعلا عاديا ، ورفض أن يتقاضى إعانة من الدولة ، ودرس على زينون تسعة عشر عاما ، وعاش مجدا فقيرا زاهداً ، أما أقرسپوس فكان أكثر تلاميذ المدرسة

(*) إن جميع التواريخ الواردة عن زينون مثار الجدل ؛ والأصول المأخوذة عنها متناقضة . وقد استنتج زلر Zeller من بحوثه أن مولده كان فى عام ٣٥٠ ، وأن وفاته كانت فى عام ٢٦٠(٥٠) .

علما وإنتاجا ، وهو الذى أكسب العقيدة الرواقية صورتها التاريخية بأن شرحها فى ٢٧٠ كتابا ، جعلت ديونيشيوس الهلكرنسى **Dionysius of Halicarnassus** يعدها أنموذجا لغزارة العلم المملة . وانتشرت الرواقية من بعده فى جميع أنحاء هلاس ، وكان أعظم دعاتها فى آسية : بانيتيوس الرودسى **Panaetius of Rhodes** وزينون الترسوسى ، وبوئِثوس الصيداوى **Boethus of Sidon** ، وديجين السلوقى . وكل الذى نستطيعه للتعريف بها هو أن نؤلف مما عثرنا عليه عرضا من النتف الباقية من المؤلفات الضخمة الكثيرة التى كتبت عنها صورة لأوسع فلسفات العالم القديم انتشارا وأعظمها أثراً .

وأكبر الظن أن أقريسپوس هو الذى قسم الفلسفة الرواقية إلى منطق ، وعلوم طبيعية ، وأخلاق . وكان زينون ومن جاء بعده يفخرون بما كتبوه فى النظريات المنطقية ، ولكن أنهار المداد التى فاضت بها أقلامهم فى هذا الموضوع لم تترك أثراً ملحوظاً فى إنارة العقول أو فى نفعها(*) . لقد كان الرواقيون يتفقون مع الأبيقوريين فى أن المعرفة لا تنشأ إلا من الحواس ، وكان المقياس النهائى للحقيقة فى رأيهم هو المدركات الحسية التى تضطر العقل إلى قبولها بما فيها من وضوح أو ثبات ، على أنه ليس من الضرورى أن تؤدى التجارب إلى المعرفة ، لأن بين الحواس والعقل توجد العواطف أو الانفعالات ، وهذه قد تشوه التجارب فتجعلها أخطاء ، كما تشوه الرغبات فتجعلها رذائل . والعقل هو أسمى ما أحرزه الإنسان ، وهو بذرة من بذور العقل الكلى الذى وضع قواعد العالم .

والعالم كالإنسان مادى بأكمله وإلهى بفطرته . فكل ما تنقله لنا الحواس مادى ، والأشياء المادية دون غيرها هى التى تحدث الأفعال أو تستقبلها .

(*) مع استثناء إضافات قليلة المصطلحات ككلمة **logic** (المنطق) نفسها . وقد شبه أرستو **Aristo** تلميذ زينون المناطقة بقوم يأكلون الحيوانات الصدفية البحرية ، فهم يبذلون كثيراً من الجهد ليحصلوا على قطعة [illegible] بين كثير من [illegible](٥٣) .

والصفات والكميات ، والفضائل ، والانفعالات ، والنفس والجسم ، والله والنجوم ، كلها صور مادية أو عمليات ، تختلف فى درجة رقتها ، ولكنها واحدة فى جوهرها[٥٤] . غير أن المادة كلها حركية ، مملوءة بالتوتر والقوى ، لاتنقطع عن العمل على الانتشار أو التركيز ، يبعث فيها الحياة من داخلها وخارجها النشاط والحرارة أو النار . والعالم يعيش بوساطة عدد لايحصى من دورات التمدد والانكماش ، والتطور والانحلال ، يحترق من آن إلى آن فى لهب عظيم ، ثم يتشكل على مهل من جديد . ثم يعود فى تاريخه القديم كله بأدق تفاصيله[*] لأن تسلسل العلل والمعلولات يسير فى دائرة مفرغة ويتكرر إلى غير نهاية . وكل الحوادث وكل أعمال الإرادة مقررة معينة ، ومن المستحيل على شىء ما أن يحدث على نحو يخالف ما حدث عليه ، كما أنه يستحيل على شىء أن ينشأ من لاشىء ؛ ولو حدثت أية ثغرة فى السلسلة لتمزق العالم .

والله فى هذا النظام هو البداية والوسط والنهاية . وكان الرواقيون يعترفون بضرورة وجود الدين ليكون أساسا للأخلاق الفاضلة ؛ فكانوا ينظرون نظرة التسامح اللطيفة لعقائد الشعب الدينية وما فيها من شياطين ، ومن تنبؤ بالغيب ، وكانوا يجدون لهذه تفسيرات مصوغة فى تشبيهات ومجازات يسدون بها الثغرة الفاصلة بين الخرافة والفلسفة . وكانوا يقبلون علم التنجيم الكلدانى ويعتقدون بصحته فى جوهره ، ويرون أن شئون الأرض تنطبق انطباقا خفياً مستمراً على حركات النجوم[٥٥] . فكان ذلك لديهم صورة من صور التعاطف العالمى الذى يجعل كل ما يحدث فى جزء منه يؤثر فى سائر الأجزاء . وكأنهم أرادوا ألا يكتفوا بوضع نظام أخلاقى للمسيحية ، بل شاءوا أن يضعوا لها أيضا نظامها الدينى ، ففكروا فى العالم ، والشرائع ، والحياة ، والنفس ، والأقدار من حيث

(*) وإنا ليسرنا ويقضى على مخاوفنا أن نعلم أن من الرواقيين من لم يكونوا واثقين كل الثقة من هذه المسألة .

صلتها بالله، وعرفوا الأخلاق الفاضلة بأنها الاستسلام عن رضا واختيار لإرادة الله . والله عندهم ، كالإنسان ، مادة حية ؛ فالعلم كله جسمه ، ونظام العالم وقانونه عقله وإرادته ؛ والكون كائن حى ضخم ، الله روحه ، ونسمته المنعشة ، وعقله المخصب ، وناره المحركة المنشطة(٥٦) . وترى الرواقيين أحيانا يفكرون فى الله تفكيراً مجرداً غير مجسد ؛ ولكنهم يصورونه فى الأكثر الأهم على أنه قوة مدبرة تضع للكون خطته وترشده بعقلها الأعلى ، وتنظم أجزاءه كلها لتؤدى أغراضا تنطبق على العقل ، وتجعل كل شىء فيه يعود بالنفع على الأفاضل من الناس . ويوحد أقلانيتوس بين الله وزيوس فى ترنيمه توحيدية خليقة بأن ينطق بها إخناتون أو إشعيا :

حمدا لك يازيوس ، حمدا يفوق حمد جميع الآلهة : إن أسماءك لكثيرة ،
وإن قوتك لأعظم القوى إلى أبد الدهر.
منك بدأ العالم ، وأنت تحكم الأشياء كلها بقوة القانون ،
وإليك تتحدث كل الأجسام لأننا نحن جميعاً أبناؤك .
ومن أجل هذا أرفع إليك نشيدا أتغنى فيه بقوتك :
إن نظام الكون بأجمعه يطيع كلمتك فى تحركها حول الأرض
حيث تختلط الأضواء الصغيرة والكبيرة : ألا ما أجل شأنك
لك الملك إلى أبد الدهر !
لاشىء يحدث على الأرض إلا بعلمك ، ولا فى السماء ولا فى البحار :
إلا ما يفعله الأشرار : مدفوعين إليه بجمهقم ؛
ولكن لك من الحذق ما يصلح المعوج نفسه ، وما لاصورة له يصور
والبعيد أمامك قريب
وهكذا نظمت الأشياء كلها فجعلتها وحدة : خيرها وشرها :
حتى تكون كلمتك واحدة فى الأشياء جميعها : باقية إلى الأبد .

طهر نفوسنا من الحماقة ، حتى نرد إليك
الفضل الذى تفضلت علينا به :
فنتغنى بمدح أعمالك إلى أبد الآبدين :
غناء يليق ببنى الإنسان(٥٧) .

وما أشبه الإنسان والعالم بالكون الصغير فى الكون الكبير ، فهو أيضا كائن حى ذو جسم مادى والنفس مادية ، ذلك بأن كل ما يحرك الجسم أو يؤثر فيه ، وكل ما يحركه الجسم أو يؤثر فيه ، لابد أن يكون ذا جسم . والنفس نسيم نارى (نيوما Pneuma) منبثة فى جميع أجزاء الجسم ، كما أن النفس العالمية منبثة فى جميع العالم . وهى تبقى بعد الجسم إذا مات ، ولكنها تبقى على هيئة طاقة غير شخصية . وحين يحدث اللهب الأخير تمتص الروح مرة أخرى فى محيط الطاقة وهو الله كما يمتص أتمان Atman فى برهمان Brahman .

وإذ كان الإنسان جزءاً من الله أو الطبيعة فإن من اليسير أن تحل المشكلة الأخلاقية على النحو الآتى : الخير هو التعاون مع الله أى مع الطبيعة ونعنى بها قانون العالم . وليس الخير هو الجرى وراء الاستمتاع أو اللذة لأن هذا الجرى يخضع العقل للشهوة ، وكثيراً ما يؤذى الجسم أو العقل ، وقلما يرضينا فى آخر الأمر . ولا يمكن أن تتحقق السعادة إلا بالمواءمة بين أغراضنا وسلوكنا من جهة ، وبين أغراض العالم وقوانينه من جهة أخرى ؛ وليس ثمة تعارض بين صالح الفرد وصالح الكون ، لأن قانون الخير فى حالة الفرد يتفق مع قانون الطبيعة . وإذا لحق الشر بالرجل الطيب فإن هذا لا يكون إلا إلى أجل قصير ، وليس هو فى واقع الأمر شراً ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم الأمر كله لرأينا ما وراءه من خير مهما يظهر فى أجزائه من شر(*) . والرجل العاقل لا يدرس العلوم

(*) يقول أقريسبوس إن الحروب تصحيح مفيد لازدحام العالم بالسكان ، وبق الفراش يفيد فى منعنا من الإفراط فى النوم(٥٨) .

الطبيعية إلا بالقدر الذى يكفى لمعرفة قانون الطبيعة ثم يكيف حياته وفق هذا القانون ، وغرض العلم والفلسفة والمبرر الوحيد لدراستهما هما تمكيننا من أن نعيش وفق الطبيعة Zen Kata physin . ويسلم أقلانيتوس إرادته لإرادة الله فى ألفاظ تكاد أن تكون هى بعينها ألفاظ نيومن Neuman :

اهدنى يا ألله ، وأنت يا قدرى ،

إلى ذلك المكان الوحيد الذى تريدنى أن أشغله .

وسأتبع هديكما مسرورا . فإذا ما وصلت معكما

ثم نكثت العهد ، فلا بد لى من أن أواصل السير معكما(٥٩) .

ومن أجل هذا يتجنب الرواقى الترف والتعقيد ، والمنازعات السياسية والاقتصادية ؛ وهو يقنع بالقليل ، ويقبل بلا تذمر صعاب الحياة وما يلاقيه فيها من خيبة . ولا يأبه بشىء غير الفضيلة والرذيلة — لايبالى بالمرض والألم ، بحسن السمعة أوسوئها ، بالحرية أو الرق ، بالحياة أوالموت . ويقمع كل شعور يقف فى وجه سير الطبيعة أو يبعث على الارتياب فى حكمتها : فإذا مات ولده لم يحزن ، بل يرضى بحكم القدر معتقداً أنه أحسن الأحكام وإن خفى الأمر عليه ؛ ويسعى لأن يكون مجرداً من الشعور تجرداً تاما ، [illegible] يكون هدوء عقله آمنا من جميع تقلبات الحظ ، أو الرحمة ، أو [illegible] وقعها عليه(*) . وعلى الرواقى أن يكون معلما قاسياً ، وإداريا [illegible] . والحرية لاتتضمن الانطلاق من القيود ، بل يجب علينا أن نكبح [illegible] وأنفس غيرنا ، وأن نتحمل من الناحية الخلقية تبعات جميع [illegible] . [illegible] أن ضرب

(*) واقترح كريسيبوس أن يقتصر فى العناية بالموتى من الأقارب على دفنهم بأبسط الوسائل وأحدثها ، ثم قال إن خيرا من هذا العمل نفسه أن نتخذ لحومهم [illegible](٦٠) .

زينون عبده لأنه سرق ، وكان العبد يعرف قليلا من العلم ، قال له : « ولكنى قد قدر على أن أسرق » ، فرد عليه زينون بقوله : « وقدر أيضاً أن أضربك »(٦١) ويرى الرواقى أن جزاء الفضيلة هو الفضيلة نفسها ، وأنها واجب مطلق وأمر محتوم ، مستمد من اشتراكه فى الألوهية ؛ وإذا أصابه مكروه عزى نفسه بأنه حين يتبع القانون الإلهى يصبح هو الله مجسداً(٦٢) . فإذا سئم الحياة ، واستطاع أن يفارقها من غير أن يسبب الأذى لغيره ، فلا حرج عليه من أن ينتحر . ولما بلغ أقلانيتوس سن السبعين شرع يصوم صوما طويلا ، ثم قال إنه لن يعود بعد أن قطع نصف الطريق ، وواصل الصوم حتى مات(٦٣) .

على أن الرواقى مع هذا ليس بالرجل غير الاجتماعى ، وهو لا يفخر بالفقر كالكلبى ، ولا يغرم بالوحدة كالأبيقورى . وهو يوافق على الزواج وعلى وجود الأسرة ويراهما لازمين ، وإن كان لا يمتدح الحب الروائى ؛ وهو يتطلع إلى وجود مدينة فاضلة تكون فيها النساء شركة بين الرجال(٦٤) . ويقبل وجود الدولة ، بل يقبل الملكية المطلقة نفسها ؛ وليست لديه ذكريات عزيزة عن دولة — المدينة ، ويرى أن أوساط الناس مغفلون شديدو الخطر ، ويفضل الملوك المطلقى السلطة على تحكم الغوغاء : والحق أنه قلما يعنى بأية حكومة ، ويتمنى أن يكون الناس كلهم فلاسفة ، حتى تصبح القوانين لا ضرورة لها . وهو لا يفكر فى الكمال كما يفكر فيه أفلاطون أو أرسطو من حيث علاقته بخير المجتمع ، بل يفكر فيه من حيث علاقته بالرجل الصالح . ولا يرى حرجا فى أن يشترك فى الشئون السياسية ، ويناصر كل حركة ، مهما تكن ضعيفة ، تهدف إلى الحرية والكرامة الإنسانية ، ولكنه لا يقيد سعادته بقيود المنصب أو السلطان . وهو يرضى بأن يضحى بحياته فى سبيل بلاده ، ولكنه يرفض

كل وطنية تقف فى سبيل ولائه للإنسانية بأجمعها ؛ فهو والحالة هذه مواطن عالمى . وكان زينون ، وهو الذى يجرى فى عروقه ، كما سبق القول ، الدم اليونانى والدم السامى ، يتوق كما يتوق الإسكندر لتحطيم الحواجز العنصرية والقومية ؛ وإن نزعته الدولية لتكشف عن فكرة الإسكندر التى كانت آخذة فى الزوال ، فكرة توحيد بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان زينون وكريسپوس يأملان فى آخر الأمر أن يحل مجتمع واحد كبير محل تلك الدول والطبقات المتطاحنة ؛ وألا يكون فى هذا المجتمع الجديد أغنياء وفقراء ، أوسادة وعبيد ؛ تحكمه الفلاسفة فلا يظلمون ، ويكون فيه الناس جميعاً إخوة لأنهم أبناء إله واحد(٦٥) .

وملاك القول أن الرواقية كانت فلسفة نبيلة ، وأنها كانت فلسفة عملية إلى حد أبعد مما يتوقعه الساخر منها فى الوقت الحاضر . لقد وحدت هذه الفلسفة جميع عناصر الفكر اليونانى وبذلتها فى مجهود نهائى قام به العقل الوثنى لوضع نظام أخلاقى ترتضيه الطبقات التى خرجت على الدين القديم ؛ ومع أنه لم ينضو تحت لوائها إلا أقلية ضئيلة ، فإن هذه الأقلية أينما وجدت كانت خير العناصر. وقد أنتجت كما أنتج المذهبان المسيحيان المقابلان لها — وهما الكلفنية والمتزمتة — أقوى الأخلاق فى زمنها . على أننا إذا نظرنا إلى هذه الفلسفة من الوجهة النظرية رأيناها عقيدة شاذة مروعة تهدف إلى كمال قاس يتطلب من أصحابه اعتزال المجتمع ، ولكنها فى واقع الأمر قد خلقت رجالا شجعانا ، قديسين أطهاراً ، خيرين أمثال كاتو الأصغر ، وإپكتتس Epictetus ، وماركس أورليوس . ولقد تأثر بها الفقه الرومانى فوضع على هديها تشريعا للأمم غير الرومانية ، وأعانت على حفظ كيان المجتمع القديم حتى ظهر له دين جديد . ولسنا ننكر أن الرواقيين قد شدوا من أزر الخرافات ، وأنهم كان لهم أثر سيئ فى العلوم الطبيعية ، ولكنهم رأوا بنافذ بصيرتهم المشكلة الأساسية القائمة فى عصرهم

— وهى أساس الأخلاق الدينى — وبذلوا مجهوداً شريفا لملء الهوة الفاصلة بين الدين والفلسفة . لقد كسب أبيقور اليونان وضمهم إلى لوائه ، أما زينون فقد كسب أرستقراط رومة ، وظل الرواقيون إلى آخر تاريخ الوثنية يحكمون الأبيقوريين ، وسيظلون على الدوام هم الحاكمين لهم . ولما أن نشأ دين جديد من أنقاض الفوضى العقلية والأخلاقية الضاربة أطنابها فى العالم الهلنستى ، كانت السبيل قد مهدتها لهذا الدين فلسفة آمنت بضرورة الدين ، ونادت بعقيدة تقشفية من مبادئها البساطة وضبط النفس ، عقيدة ترى فى الله كل شىء .

الفصل الرابع

العودة إلى الدين

لقد مر النزاع بين الدين والفلسفة حتى الوقت الذى نتحدث عنه فى ثلاث مراحل : مهاجمة الدين كما حدث قبل عهد السقراطيين ؛ والمحاولة التى تهدف إلى استبدال قانون أخلاقى طبيعى بالدين كما فعل أرسطو وأبيقور ؛ ثم العودة إلى الدين كما فعلت المتشككة والرواقية — وتلك هى الحركة التى انتهت بظهور الأفلاطونية الجديدة والمسيحية . وقد حدث مثل هذا التعاقب أكثر من مرة فى تاريخ العالم ، ولعله يحدث أيضا فى هذه الأيام . فطاليس يقابل جاللبو ، ودمقريطس يقابل هبز ، والسوفسطائيون يقابلون رجال دوائر المعارف الفرنسيين ، وبروتاغوراس يقابل ڤلتير ؛ ثم إن أرسطو يقابل سپنسر ، وأبيقور يقابل أناطول فرانس ؛ وپيرون يقابل پسكال ، وأرسسلوس يقابل هيوم ، وأقرنيداس يقابل كانت ، وزينون يقابل شوبنهور ، وأفلوطين Plotinus يقابل برجسن . نعم إن الترتيب التاريخى لهؤلاء الفلاسفة يجعل التشابه بينهم غير يسير ، ولكن الاتجاه الأساسى للتطور واحد فى جميع الأحوال .

لقد تخلى عصر النظم العظيمة عن مكانه إلى التشكك فى قدرة العقل الإنسانى على فهم العالم أو للسيطرة على غرائز الناس وإخضاعها للنظام وللحضارة . ولقد كانت هذه حال المتشككة بالمعنى الذى يقصده منها كانت لا هيوم : فقد كان هؤلاء يرتابون فى الفلسفة كما يرتابون فى العقائد التحكمية ، وحطموا أسس المادية ، وأشاروا بقبول الطقوس الدينية القديمة فى هدوء . ولم يبعد التشكك الناس على يد پيرون ، كما لم يبعدهم على يد پسكال ، عن الدين بل قادهم إليه ، وقد ختم پيرون نفسه حياته بأن كان كاهن المدينة الأكبر المبجل . ولم يكن هجر

الأبيقوريين للسياسة واتجاههم نحو القوانين الأخلاقية ، وفرارهم من الدولة إلى الروح ، لم يكن هذا كله إلا لحظة قصيرة فى الرجعة إلى العهد الأول ؛ وقد مهد قصر الاهتمام على النجاة الفردية الطريق إلى ظهور دين يستهوى الفرد أكثر مما يستهوى الدولة : وكان ثمة كثيرون من الناس لايستطيعون أن يجدوا فى الحياة ما وجده فيها أبيقور من سلوى اقتنع بها ورضى ، فقد حلت بهم الفاقة ، أو مصائب الدهر ، أوالمرض ، أو الثكل ، أو الثورة ، أو الحرب ؛ وتركت نصائح الدهر كلها أفئدتهم فارغة . وها هو ذا هجسياس القوريني Hegesias of Cyrene قد بدأ فى نظر القوريين كما بدأ أبيقور ، ولكنه انتهى إلى الاعتقاد بأن فى الحياة من الألم أكثر مما فيها من اللذة ، ومن الحزن أكثر من الفرح ، وأن النتيجة الوحيدة التى تتمخض عنها الفلسفة الطبيعية هى الانتحار(*) . وقد فعلت الفلسفة ما تفعله الابنة الضالة بعد المغامرات المبهجة وزوال الخداع عن بصيرتها ، فأقلعت عن الجرى وراء الحقيقة والبحث عن السعادة ، وعادت بعد أن تابت وأنابت إلى أمها الدين ، تبحث فيه مرة أخرى عن أسس تقيم عليها آمالها ومبادئ تؤيد بها صدقاتها .

وبينما كانت الرواقية تسعى لإقامة صرح القانون الأخلاقى للطبقات المفكرة ، كانت تعمل أيضا للاحتفاظ بمعونة القوى غير الطبيعية لتدعم بها أخلاق الرجل العادى ، وصبغت فكرتها الميتافيزيقية والأخلاقية صبغة دينية أخذت تقوى على مر الزمان . وكان زينون ينكر كل وجود حقيقى للآلهة التى يقول بها العامة(٦٧) ، ولكن أقلانيتوس بعد جيل واحد اقترح محاكمة أرستارخوس لأنه ملحد . ولم يكن زينون يدعو إلى شىء من الفساد الخلقى الشخصى ، ولكن سنكا كان يتحدث عن النعيم فى الدار الآخرة بألفاظ لاتكاد تفترق فى شىء

(*) وقد بلغ من فصاحته فى تأييد ما أدلى به من حجج أن ثارت فى الإسكندرية موجة من الانتحار اضطر بطليموس الثانى على أثرها أن يخرجه من مصر(٦٦) .

عن العقائد الأليوزينية Eleusinian والمسيحية(٦٨) . ولقد أصبحت الرواقية بعد زينون دينا أكثر منها فلسفة ، واتخذ كل مبدأ من مبادئها صورة دينية ؛ وكان الجزء الأكبر من نظامها يتألف من جدل يدور حول وجود الله وطبيعته ، وانبعاث العالم من الله ، وحقيقة القوة المدبرة ، واتفاق الفضيلة مع الإرادة الإلهية ، وأخوة البشر تحت سيطرة أبوة الله ، وعودة العالم فى آخر الأمر إلى الله . وفى هذه الفلسفة نجد معنى الخطيئة الذى كان له شأن أيما شأن فى المسيحية الأولى وفى البروتستنتية : ونجد فيها ذلك الشمول السامى الذى يرحب كما رحب فى المسيحية من بعد بكل الأجناس والطبقات ؛ والزهد وعدم الزواج المأخوذين عن الكلبيين واللذين أثمرا ذلك العدد العظيم من الرهبان المسيحيين ؛ والحق أنه لم يكن بين زينون الطرسوسى وبولس الطرسوسى إلا خطوة واحدة يخطوها العالم فى الطريق إلى الدمشق .

ولقد كانت عناصر كثيرة فى العقيدة الرواقية أسيوية فى أصلها ، وكان بعضها سامياً خالصاً — ولم تكن الرواقية فى جوهرها إلا مرحلة واحدة أولية من مراحل انتصار الشرق على الحضارة الهلنية . إن بلاد اليونان لم تعد بلاد اليونان قبل أن تفتحها رومة .

الباب الثلاثون

مجيء رومة

الفصل الأول

بيرس

يقول بوليبيوس متسائلا : « منذا الذى تبلغ به الحقارة أو البلادة حداً لا يريد معه أن يعرف بأية وسائل وفى ظل أى نظام سياسى أفلح الرومان فى أن يخضعوا إلى سلطانهم فى أقل من خمسين عاماً جميع العالم المعمور — وهو عمل فذ لا نظير له فى التاريخ ؟ ومنذا الذى أولع بغير هذه الدراسات ولعاً يحمله على أن يرى أن أية دراسة أخرى أجل شأناً من هذه الدراسة[1] ؟ » . ذلك سؤال لا نراه مخطئاً فى إلقائه ، وقد يشغلنا نحن فيما بعد ، ولكن الفتوح قد توالت وكثرت منذ كتب بوليبيوس تاريخه إلى درجة لا نستطيع معها أن نصرف كثيراً من الوقت فى دراسة شىء منها . ولقد حاولنا فى الفصول السابقة أن نظهر أن السبب الرئيسى الذى يسر للرومان فتح بلاد اليونان هو انحلال الحضارة اليونانية من الداخل ؛ ذلك أنه ما من أمة عظيمة قد غلبت على أمرها إلا بعد أن دمرت هى نفسها . وقد دمرت بلاد اليونان نفسها بتقطيع غاباتها ، وإتلاف تربتها ، واستنفاد ما فى باطن أرضها من معادن ثمينة ، وبتحول طرق التجارة عنها ، واضطراب الحياة الاقتصادية نتيجة لاختلال النظام السياسى ، وفساد الدمقراطية وانحلال الأسر الحاكمة ، وفساد الأخلاق ، وانعدام الروح الوطنية ، ونقص السكان وتدهور قوتهم الجسمية ، واستبدال الجنود المرتزقة بالجيوش

الوطنية ، وما أدت إليه الحروب الأهلية من تطاحن بين الإخوة وإتلاف لموارد البلاد ، والقضاء على الكفايات بالفتن المتضادة الصماء — كل هذه قد استنفدت موارد هلاس فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الصغيرة القائمة على ضفة نهر التيبر ، والتى كانت تحكمها أرستقراطية صارمة بعيدة النظر ، تدرب جحافلها القوية المجندة من طبقة الملاك ، وتتغلب على جيرانها ومنافسيها ، وتستولى على ما فى البحر الأبيض المتوسط من طعام ومعادن ، وتزحف عاما فعاما على المستعمرات اليونانية فى جنوبى إيطاليا . لقد كانت هذه المحلات القديمة فى سابق عهدها تزهو بثرائها ، وحكمائها ، وفنونها ، ولكنها الآن قد أفقرتها الحروب وغارات ديونيشيوس وسلبه ونهبه ، ونشأة رومة وتقدمها ومنافستها لهذه المستعمرات فى مركزها التجارى . يضاف إلى هذا أن القبائل الأصلية التى كان اليونان قد استعبدوا أفرادها أوطردوهم إلى ما وراء حدودها ، قد ازدادت وتضاعفت ، فى الوقت الذى كان سادتها ينشدون النعيم والراحة بقتل أطفالهم وإسقاط الحاملات من نسائهم ؛ وما لبث أبناء السكان الأصليين أن أخذوا ينازعون المستعمرين السيطرة على جنوبى إيطاليا ، واستغاثت المدن الإيطالية برومة فأغاثتها والتهمتها .

وخشيت تاراس بأس رومة النامية فاستعانت بملك إيبروس الشاب الجرىء . وكانت الثقافة اليونانية قد امتدت إلى هذه البلاد الجبلية الجميلة المعروفة الآن باسم ألبانيا الجنوبية ، منذ أن شاد الدوريون معبداً لزيوس فى دودنا **Dodona** ، ولكن هذه الثقافات ظلت مزعزعة غير موطدة الأركان(*) . حتى عام ٢٩٥ حين تولى پيرس **Pyrrhus** ملك الملوسيين **Mollosians** وهم أقوى القبائل الإپيروسية وأعظمها سلطاناً . وكان پيرس هذا يدعى أنه من سلالة البطل أخيل ، وكان وسيما ، شجاعا ، وحاكما مستبدا ، ولكنه محبوب . وكان رعاياه

(*) وعثر علماء الآثار الإيطاليون فى عام ١٩٢٩ عند بترينو **Butrino** (وهى بثروتم **Buthrotum** القديمة) على طائفة كبيرة من آثار المبانى والتماثيل الباقية من عهد الحضارتين اليونانية الرومانية ، ومنها دار تمثيل يونانية من القرن الثالث قبل الميلاد .

يعتقدون أن فى مقدوره أن يشفيهم من مرض الطحال بوضع قدمه اليمنى على ظهورهم وهم مستلقون على الأرض ، ولم يكن هو يأبى هذا العلاج على أفقر فقير فى البلاد[٢] . ولما استغاث به أهل تارنتم رأى فى هذا فرصة له مغرية : فقد قدر أنه يستطيع فتح رومة ، وهى الخطر الذى يتهدده من الغرب ، كما فتح الإسكندر بلاد الفرس وهى الخطر الذى كان يتهدده من الشرق ، فيثبت بذلك نسبه ببسالته . ولهذا عبر البحر (الأدرياوى) فى عام ٢٨١ على رأس قوة مؤلفة من ٢٥,٠٠٠ من المشاة ، وثلاثة آلاف من الفرسان ، وعشرين فيلا . وكان اليونان قد أخذوا الفيلة كما أخذوا التصوف عن الهند . والتقى بالرومان عند هرقلية Heracleia ، وانتصر عليهم « نصرا پيرسيا » : أى أن خسارته فى هذا النصر كانت عظيمة ، وأن موارده من الرجال والعتاد قد نقصت إلى حد جعله يرد على أحد أعوانه حين هنأه به بهذه العبارة التى أضحت مثلا سائراً مدى الأجيال إذ قال إن نصراً آخر مثله كفيل بأن يقضى عليه[٣]. وأرسل الرومان كيس فبريسيوس ليفاوضه فى أمر تبادل الأسرى . ويروى أفلوطرخس ما دار وقتئذ من الحديث فيقول :

وفى أثناء العشاء دار الحديث حول كثير من الشئون ، وكان أهمها كلها شئون بلاد اليونان وفلاسفتها . وتحدث قنياس Cineas (الدبلوماسى الإپيروسى) عن أبيقور ، وأخذ يشرح آراء أتباعه فى الآلهة ، والدولة ، وأغراض الحياة ، مؤكداً أن اللذة أكبر سعادة للإنسان ؛ ووصف الشئون العامة بأن لها أسوأ الأثر فى الحياة السعيدة لأنها تسبب لها الاضطراب . وقال إن الآلهة لاشأن لها بنا جميعاً ولاتعنى بنا أية عناية ، فهى مجردة من الرحمة بنا أو الغضب علينا ، وهى تحيا حياة لاتقوم فيها بعمل وتقضيها فى النعيم والترف .وقبل أن ينتهى قنياس من كلامه صاح فبرسيوس قائلا لپيرس: « إى هرقل ! دع پيرس والسمنيين(*) يمتعون أنفسهم بمثل هذه الآراء ما داموا فى حرب معنا[٤] » .

(*) أقوى أعداء رومة فى إيطاليا .

وتأثر پيرس بما رآه من صفات الرومان ، فدعاه هذا كما دعاه يأسه من تلقى العون الكافى من يونان إيطاليا، إلى أن يرسل قنياس إلى رومة ليفاوضها فى الصلح . وأوشك مجلس الشيوخ أن يوافق على هذا ، ولكنه فوجئ بأپيوس كلوديوس Appius Claudius ، وكان أعمى يشرف على الموت ، يحمل إليه ليحتج على عقد الصلح مع جيش أجنبي فى أرض إيطالية . فلما عجز پيرس عن نيل بغيته اضطر أن يواصل الحرب ،وانتصر انتصاراً انتحارياً آخر فى أسكولوم Asculum ، ثم عاوده اليأس من الفوز على رومة فعبر البحر إلى صقلية معتزماً أن يخلصها من القرطاجيين . وفيها صد القرطاجيين ببطولته المشهورة ،ولكن يونان صقلية كانوا أجبن من أن يخفوا لنجدته ، أولعله كان يحكمهم حكما استبداديا كما يحكم كل طاغية . وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن أهل صقلية لم يمدوه بما يحتاجه من العون ، فاضطر إلى ترك الجزيرة بعد أن ظل يحارب فيها ثلاث سنين . ونطق وهو يغادرها بنبوءته المأثورة : « أى ميدان قتال أتركه لقرطاجة ورومة ! » ولما وصل إلى إيطاليا كانت قواته قد نقصت نقصا كبيراً ، فهزم فى بنفنتوم Beneventum (٢٧٥) ، حيث أثبتت الكتائب المتحركة الخفيفة السلاح لأول مرة تفوقها على الصفوف المتراصة الصعبة الحركة ، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الحروب[٥] .

وعاد پيرس إلى إپيروس ، كما يقول الفيلسوف أفلوطرخس :

« بعد أن قضى فى هذه الحروب ست سنين ؛ ومع أنه قد أخفق فى أغراضه فقد احتفظ بشجاعة لم تنل منها كل هذه المصائب ، ويضعه الناس لكثرة تجاربه الحربية ، وبأسه ، وجرأته، فى منزلة أعلى من منزلة سائر أمراء عصره . ولكن الذى ناله بشجاعته قد خسره مرة أخرى بسبب آماله المتطرفة ؛ وكانت رغبته فى نيل مالا يملك سببا فى ضياع ما كان يملك[٦] » .

واشتبك بيرس وقتئذ فى حروب جديدة ثم قتل بقرميدة ألقتها عليه عجوز فى أرجوس . واستسلمت تراس لرومة فى تلك السنة نفسها .

وبعد ثمان سنين من ذلك الوقت بدأت رومة كفاحها الطويل مع قرطاجة ، وهو الكفاح الذى دام مائة عام ، من أجل السيادة على غربى البحر الأبيض المتوسط . ونزلت قرطاجة لرومة بعد حرب دامت جيلا كاملا عن سردينية ، وقورسقة ، والأجزاء التى كانت تمتلكها فى صقلية . وارتكبت سرقوسة فى الحرب اليونانية الثانية تلك الغلطة الموبقة فانضمت فى هذه الحرب إلى قرطاجة ، فأجاعها مرسلس Marcellus حتى استسلمت . وانطلق المنتصرون فى المدينة ينهبون ويسلبون حتى لم يبقوا فيها على شىء ولم تبق بعد ذلك قائمة . ويقول ليفى إن مرسلس « نقل إلى رومة ما كانت تزدان به سرقوسة من تماثيل كانت غاصة بها ... وقد بلغت الغنائم حداً أكثر مما كان يحصل عليه لو أن قرطاجة نفسها هى التى فتحت » . ولم يحل عام ٢١٠ حتى كانت صقلية كلها قد سقطت فى يد رومة جزاء لها على فعلها . واستحالت المدينة هريا يورد الحبوب لرومة وعادت مزرعة يقوم فيها بالعمل كله تقريباً عبيد لا آمال لهم فى الحياة ؛ ووضعت القيود الشديدة على الصناعة والتجارة ، ونقلت ثروتها إلى رومة ، ونقص عدد سكانها نقصاً كبيراً ، واختفت صقلية من تاريخ الحضارة مدى ألف عام .

الفصل الثانى

رومة المحرَّرة

لقد كان يساعد رومة فى كل خطوة من خطى توسعها أخطاء أعدائها . من ذلك أنها أرسلت فى عام ٢٣٠ رجلين من أهلها إلى أشقودرة Scodra عاصمة اليريا Illyria (شمالى ألبانيا) ليحتجا على هجوم القراصنة الإليريين على السفن الرومانية ، فردت الملكة توتا Teuta ، وكانت تقاسم القراصنة الأسلاب ، على احتجاجهما بقولها « أن ليس من عادة الحكام الإليريين أن يمنعوا رعاياهم من الاستحواذ على الغنائم فى البحار[٨] » . ولما أن أنذرها رسول من قبل رومة بالحرب أمرت بقتله . وسرت رومة إذ تهيأت لها هذه الحجة الرخيصة للاستيلاء على ساحل دلماشيا Dalmatia : فسيرت حملة إلى إليريا فرضت عليها حماية رومة ولم تكد تكلفها من العناء فى عام ٢٢٩ ق . م أكثر مما كلفتها حملة ١٩٣٩م(*). وأصبحت كرسيرا Corcyra (كورفو)، وإپداموس Epidamus وغيرهما من المحلات اليونانية مدنا تابعة لرومة . ولما كانت التجارة اليونانية قد عطلتها أيضاً أعمال القرصنة الإليرية فإن أثينة وكورنثة ، والعصبتين اليونانيتين قد رحبت برومة وعدتها منقذة لها ، وقبلت سفراءها ، ورضيت أن يشترك الرومان فى الطقوس الإلبزينية الخفية وفى ألعاب برزخ كورنثة .

وفى عام ٢١٦ مزق هنيبال الجيش الرومانى فى كانى شر ممزق . وزحف بجيشه حتى دق أبواب رومة . وبينما كانت رومة تواجه أشد أزمة فى تاريخ الجمهورية عقد فيليب الخامس ملك مقدونيا حلفا مع هنيبال وأعد العدة لغزو

(*) يقصد الحملة التى سيرتها إيطاليا فى عهد موسولينى على ألبانيا واستولت عليها وأخرجت منها مليكها . (المترجم)

إيطاليا (٢١٤) . وعقد مؤتمر فى نوبكتس Naupactus (٢١٣) قام فيه أچلوس Agelaus مندوب إيتوليا يناشد اليونان جميعاً أن يوحدوا صفوفهم فى هذه الحرب المقدونية الأولى ضد القوة التى أخذت تنمو فى الغرب ؟

« ما أحسن أن يمتنع اليونان عن أن يحارب بعضهم بعضاً ، وأن يروا أن أعظم النعم التى تنعم بها عليهم الآلهة أن ينطقوا على الدوام بقلب واحد وصوت واحد ، وأن يسيروا وأيديهم متماسكة ، كما يسير الرجال الذين يخوضون نهراً ، فيصدوا البرابرة المغيرين ويوحدوا صفوفهم ليحافظوا على أنفسهم وعلى مدنهم .. ذلك أنه لا جدال فى أن من أسعد الأشياء وأقلها احتمالا ، سواء انتصر القرطاجيون على الرومان أو انتصر الرومان على القرطاجيين ، أن يقنع المنتصرون بالسيادة على إيطاليا وصقلية ، بل الذى لاريب فيه أنهم سيأتون إلى بلادنا وأن أطماعهم ستمتد إلى أبعد ما تخوله لهم العدالة . لهذا أضرع إليكم جميعاً أن تحصنوا أنفسكم من هذا الخطر الداهم ، وأتوجه بندائى هذا إلى الملك فليب على الأخص . إن خير ضمان لك يامولاى ، ليس هو إنهاك اليونان ، وجعلهم فريسة سهلة للغزاة ، بل هو عكس هذا ، هو أن تعنى بسلامة كل إقليم من أقاليم اليونان كأنه جزء لا يتجزأ من أملاكك الخاصة »(٩)

وأنصت إليه فليب فى أدب جم ، وأصبح إلى وقت ما معبود بلاد اليونان . ولكن معاهدته مع هنيبال ، إذا جاز لنا أن نصدق ليفى المنطرف فى وطنيته ، قد نصت على أن تساعد قرطاجة فليب ، إذا خرجت من الحرب القائمة وقتئذ ظافرة ، على إخضاع جميع بلاد اليونان الأصلية إلى مقدونية ؛ مقابل هجومه على إيطاليا . وربما كان سبب الميثاق الذى عقدته معظم الدول اليونانية ، ومنها عصبة أجلوس الإيتولية Agelaus Aetolian League ، مع رومة ضد مقدونية أن هذه الولايات قد عرفت شروط هذا الاتفاق ؛ وكانت نتيجة هذا الميثاق أن وضعت العراقيل فى سبيل فليب فى داخل البلاد وتأجل غزوه إلى إيطاليا

إلى أجل غير مسمى ، وفى عام ٢٠٥ عقدت إيطاليا معاهدة مع فليب لكى توجه اهتمامها كله إلى هنيبال ؛ وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت بدد سپيو الأكبر شمل القرطاجيين فى زاما Zama . ولما بلغ القرن الأخير العظيم من قرون الحضارة اليونانية غايته لجأت مصر ، ورودس ، وبرجموم إلى رومة لتساعدها على فليب . واستجابت رومة لهذه الدعوة بأن أثارت الحرب المقدونية الثانية . ووجد فليب جميع البلاد اليونانية تقريباً ومعها رومة تقف فى وجهه ، فحارب بشراسة الوحش إذا وقع فى المحظور . فلم يتردد فى أن يستخدم كل أنواع الغدر ، أو سرقة كل ما يوصله إلى غرضه ، أو التنكيل بالأسرى تنكيلا يدفع كل رجل فى أبيدوس ، حين بدا لهم أن حصار فليب لمدينتهم لا يمكن مقاومته ، أن يقتل زوجته وأطفاله ثم يقتل بعدئذ نفسه(١١) . وفى عام ١٩٧ أوقع تيتس كونكتيوس فلامنينوس Titus Quinctius Flamininus ، وهو رجل ينتمى إلى ذلك الصنف من الأشراف الذين قلبوا پولبيوس مناصراً متحمساً للرومان ، أوقع بفيليب هزيمة منكرة عند سينوسفلى Cynoscephalea وسقطت على أثرها كل مقدونية — أو بالأحرى بلاد اليونان كلها — تحت رحمة رومة . وقد استاء من فلامنينوس أحلافه الإيتوليون (وقد ادعوا أنهم هم الذين كسبوا المعركة) لأنه سمح لفليب بعد أن أمن جانبه لشدة ضعفه ، أن يحتفظ بعرشه واكتفى بأن فرض عليه غرامة باهظة واستولى على وسق سفينة من الأسلاب . وكانت حجة فلامنيوس فى المطالبة بإبعاد فليب عن العرش أنه فى حاجة إلى مقدونية لوقاية البلاد من البرابرة الضاربين فى شمالها .

وكان القائد الرومانى قد تعلم اللغة اليونانية فى تارنتم (وهو الاسم الذى أطلقه الرومان على تاراس) وعرف ما فى الأدب اليونانى ، والفلسفة اليونانية ، والفن اليونانى من بهجة وروعة . ويبدو أنه كان يعتزم مخلصا أن يحرر دول المدن اليونانية من سيطرة مقدونية ، وأن يتيح لها كل فرصة تمكنها من أن تستمتع

بالحرية والسلم . ولما استطاع بعد صعاب جمة أن يقنع المبعوثين الرومان بأن هذه خطة حكيمة ، ذهب إلى الألعاب البرزخية فى كورنثة (١٩٦) ، حيث كان جميع العالم اليونانى الخطير الشأن مجتمعاً (وكان كل واحد يحدث جاره ، على حد قول پولبيوس ، بما يستطيع الرومان وقتئذ أن يفعلوه) وأعلن فى الحاضرين على لسان مناد أن « مجلس الشيوخ الرومانى ، وأن تيتس كونكتيوس القنصل الأكبر بعد أن هزما الملك فليب والمقدونيين يتركان الأقوام الآتى ذكرهم بعد أحراراً ، فلا يضعان فى بلادهم حاميات عسكرية ، ولا يطالبانهم بجزية ، يحكمون أنفسهم بمقتضى قوانينهم . وهؤلاء الأقوام هم الكورنثيون ، والفوقيون ، واللكريون ، والعوبيون ، والآخيون الفثيوتيون ، والمجنزيون ، والساليون ، والبرهيبيون(*) — أى جميع سكان بلاد اليونان القارية الذين لم يكونوا من قبل أحراراً . وصاح الجزء الأكبر من المجتمعين أن يعاد هذا النداء لأنهم لم يستطيعوا أن يصدقوا هذا الإجراء الذى أصبحوا بمقتضاه أحراراً ، والذى لم يعهدوا له من قبل مثيلا ، فلما أن أعاده المنادى « ارتفعت فى الجو عاصفة من التهليل » على حد قول پولبيوس « ليس من السهل على من يستمعون هذه القصة الآن أن يتصوروا قوتها»(١٢). وارتاب الكثيرون منهم فى صدق هذا الإعلان وفى إخلاص أصحابه فيه ، وتوقعوا أن تكون من ورائه حيلة ماكرة ، ولكن فلامنينوس شرع من ذلك اليوم ينقل الجنود اليونان من كورنثة ، ولم تحل سنة ١٩٤ حتى كان جيشه كله قد عاد إلى إيطاليا . ورحبت به اليونان وعدته « منقذاً ومحرراً » وبدت مغتبطة سعيدة تعيش فى آخر أيام حريتها .

(*) Corinthians, Phocians, Locrians, Euboeans, Phthiotic Achaeans, Maegnesians, Thessalians, & Perrhaebians.

الفصل الثالث

رومة الفاتحة

غير أن الإيتوليين لم يرضوا عن هذه الخطة ؛ ذلك أن بعض المدن التى حررتها رومة كانت من قبل تحت سيطرة إيتوليا فلم تعد وقتئذ كما كانت من قبل أعضاء فى العصبة الإيتولية . لهذا لم تكد الحرب المقدونية الثانية تضع أوزارها حتى دعا الإيتوليون أنتيوخوس الثالث لإنقاذ بلاد اليونان من رومة . وألفت برجموم ولمپسكس نفسيهما بين الغاليين القلقين فى الشمال وقوة السلوقيين المتزايدة فى الجنوب ، فاستغاثتا برومة لتساعدهما على أنتيوخوس . وأرسل مجلس الشيوخ سپيو أفركانس Scipio Aricanus بطل زاما Zama لمعونتهما . واستطاع القواد الرومان بعدد قليل من الفيالق الرومانية وجنود يومنيز الثانى أن يهزموا أنتيوخوس فى مجنيزيا ، ثم اتجهوا نحو الشمال وطردوا الغاليين ، ووسع الرومان ، على أثر هذا النصر حمايتهم حتى شملت جميع ساحل آسية الممتد على البحر الأبيض المتوسط ، ثم عادوا بعدئذ إلى إيطاليا . وحمد لهم يومنيز فعلهم ولكن بلاد اليونان الأصلية عدته خائنا لهلاس لأنه استعان بالرومان البرابرة على مواطنيه اليونان .

ذلك أن بلاد اليونان المذبذبة كانت قد أخذت تندم على قبولها ما أسدته إليها منقذتها غير المثقفة القادمة إليها من الغرب . فقال أهلها إن فلامنينوس وخلفاءه ، وإن كانوا قد ردوا إلى البلاد حريتها ، قد نالوا أجرهم عن هذا وهو الغنائم الكثيرة التى استولوا عليها فى كل مدينة أيدت فليب أو أنتيوخوس أو الإيتوليين حتى بات اليونان يخشون أن يتكرر هذا التحرر مرة أخرى . وقد ظلت الأسلاب التى استولى عليها فلامنينوس بعد انتصاراته فى الحروب اليونانية تمر بلا انقطاع أمام أعين الرومان ؛ فى اليوم الأول أسلحة ودروع وتماثيل

من الرخام والبرنز لا حصر لها ، وفى اليوم الثانى ١٨,٠٠٠ رطل من الفضة ، و ٣,٧١٤ رطلا من الذهب ، ١٠٠,٠٠٠ قطعة من العملة الفضية ؛ وفى اليوم الثالث ١٤٤ تاجا من تيجان الأمراء والأشراف[١٣] . يضاف إلى هذا أن الرومان كانوا قد أيدوا ، وظلوا وقتئذ يؤيدون على أيدى ممثليهم ، الطبقات الغنية فى بلاد اليونان على المواطنين الفقراء ، وحرموا مظاهر حرب الطبقات . ولم ير اليونان أن يشتروا السلم بهذا الثمن الغالى ، بل كانوا يريدون أن يكونوا أحراراً فى تسوية ما بينهم من نزاع ، وأن ينفسوا عما فى صدورهم من مطامع إقليمية قومية؛ ولم يكونوا يطيقون الحياة الرتيبة الخالية من التغيير . وسرعان ما قامت الأحلاف المتنافسة ينازع بعضها بعضا ،ودب الشقاق والانقسام بينها فى كل مكان . وأخذت كل مدينة وكل جماعة تتقدم بمطالب خاصة إلى مجلس الشيوخ الرومانى ، وبعث مجلس الشيوخ لجانا لبحث هذه المطالب والفصل فيها . وكانت أغلال السيطرة الأجنبية خفية غير بادية للعين ولكنها كانت مع ذلك حقيقة واقعة ؛ وأخذ اليونان جميعهم ماعدا الأغنياء منهم يحسون بهذه الأغلال تضيق على أعناقهم عاما بعد عام ويتمنون أن ينقضى عهد هذه الحرية . وشرع مجلس الشيوخ يستمع إلى أعضائه الذين كانوا يقولون إن بلاد اليونان لا يمكن أن يستتب فيها الأمن والنظام إلا إذا فرضت عليها رومة سيطرتها الكاملة .

وتوفى فليب الخامس فى عام ١٧٩ وخلفه على العرش ابنه پرسيوس بعد فترة سفك فيها الدماء . وكانت السبعة عشر عاما التى سبقت جلوسه على العرش والتى ساد فيها السلم قد أعادت إلى مقدونية رخاءها الاقتصادى ، وأوجدت فيها جيلا جديداً من الشبان تطعم بهم نار الحرب . ودخل پرسيوس فى مفاوضات مع سلوقس الرابع لعقد حلف بين بلديهما وتزوج بابنة سلوقس . وانضمت رودس إلى هذا الحلف وأرسلت أسطولا ضخما ليحرس العروس فى طريقها إلى زوجها . وابتهجت بلاد اليونان جميعها ، ورأت فى پرسيوس

أملا حياً يقف فى وجه سلطان رومة . وخشى يومنيز الثانى على استقلال برجموم فهرول إلى رومة وألح على مجلس الشيوخ أن يبادر إلى تدمير مقدونية إبقاء على مصالح هذا المجلس نفسه . وكاد يومنيز أن يفقد حياته فى مشاجرة خاصة وهو عائد إلى بلاده . ورأت رومة أن من مصلحتها أن تفسر هذا الشجار بأنه مؤامرة دبرها پرسيوس لاغتيال الملك ، وتبادل الطرفان عدة مهاترات دبلوماسية وطنية أعقبها اشتعال نار الحرب المقدونية الثالثة . ولم يجرؤ على مساعدة پرسيوس إلا إبيروس وإلبريا ، أما دول اليونان الأخرى فقد بعثت إليه برسائل سرية تبدى فيها عطفها عليه ولكنها لم تفعل أكثر من هذا . وفى عام ١٦٨ فرق إميليوس بولوس Aemilius Paulus الجيش اليونانى فى بدنا ، وخرب سبعين مدينة مقدونية ، ونفى الطبقات العليا من أهلها إلى إيطاليا ، وقسم المملكة أربع جمهوريات مستقلة استقلالا ذاتياً ولكنها تؤدى الجزية إلى رومة ، وحرم عليها أن تتبادل فيما بينها التجارة والصلات أياً كان نوعها . وسجن پرسيوس فى إيطاليا وقضى فى السجن سنتين توفى بعدهما مما لقيه من سوء المعاملة . وخربت إبيروس وبيع مائة ألف من أهلها أرقاء بسعر ريال أمريكى لكل واحد منهم(١٤) وعوقبت ردوس — وهى التى لم يكن لها نصيب جدى فى الحرب — بتحرير ممتلكاتها الممتدة على سواحل آسية ، وبإنشاء مرفأ حر منافس لها فى ديلوس واستحوذ الرومان على أوراق پرسيوس الخاصة ، ونفى أوزج فى السجن كل من مد له يد المعونة أو أظهر العطف عليه . ونقل إلى إيطاليا ألف من الرجال البارزين فى العصبة الآخية ومنهم پولبيوس ، حيث ظلوا فى النفى ستة عشر عاما مات فى خلالها سبعمائة منهم . ولم يكن إعجاب بلاد اليونان السابق برومة المحررة أشد من حقدها وقتئذ على رومة الفاتحة .

وكان لهذه القسوة من جانب المنتصرين عواقب لم يكونوا يريدونها . فقد كان إضعاف رودس سبباً فى القضاء على ما كانت تقوم به من حراسة فى بحر إيجه ، وانتعشت على أثر هذا القرصنة الغاضبة على التجارة المشروعة . كذلك

كان إخراج هذا العدد الكبير من الأشراف سبباً فى إخلاء الميدان للزعامة المتطرفة فى مدن العصبة الآخية ، وتجددت الفتن والحروب الأهلية وبلغت فيها أوجها . واستمسك الأغنياء فى هذه الحروب بحماية رومة ، وطالب الفقراء بإخراج الأغنياء والقوات الرومانية من البلاد . وفى عام ١٥٠ عاد من إيطاليا من كان باقيا فيها على قيد الحياة من الأخيين المنفيين ، وكان عددهم لا يتجاوز المائة والخمسين ، وانضموا إلى المطالبين بالقضاء على سلطان الرومان فى بلاد اليونان . وأرادت رومة أن تضعف قوة الآخيين فأرسلت إلى بلاد اليونان بعثة سياسية أمرت كورنثة ، وأركنوس ؛ وأرجوس بأن تخرج من الحلف . وردت سيدات كورنثة على هذا الأمر بأن أفرغت دلاء من الأقذار على رءوس المبعوثين(١٥) ؛ وفى عام ١٤٦ أعلنت العصبة حرب التحرير ، وكانت ترجو أن اشتباك رومة فى الحرب فى أسپانيا وإفريقية سيشغل جيوشها فيحملها على أن تعقد معها صلحاً ترتضيه ، وطغت على مدائن العصبة موجة من الحماسة الوطنية فحرر العبيد وسلحوا ، وأعلن إيقاف أداء الديون ، ووعد الفقراء بقسط من الأرض الزراعية ، وألفى الأغنياء التعساء أنفسهم بين الاشتراكية ورومة ، فقدموا كارهين جواهرهم وأموالهم لقضية الحرية ، ونفضت أثينة واسپارطة أيديهما من النزاع كله وبقيتا بمعزل عنه ، أما بؤوتية ، ولكريا ، وعوبية ، فقد انضمت بشجاعة إلى حرب التحرير . وثارت جمهوريات مقدونية الأربع علنا على رومة .

واستشاط مجلس الشيوخ الرومانى غضباً فسير إلى بلاد اليونان جيشاً بقيادة ممميوس وأسطولا بقيادة متلوس Metillus . وقضت قوة الجيش والأسطول مجتمعين على كل مقاومة ، واستولى ممميوس Mummius فى عام ١٤٦ على كورنثة حصن العصبة الحصين . وأشعل الفاتحون النار فى المدينة الغنية مدينة التجار والعاهرات ، وذبحوا جميع رجالها وباعوا جميع نسائها وأطفالها فى أسواق الرقيق . ولعلهم أرادوا بعملهم هذا أن يقضوا على منافس تجارى لرومة فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما كان سپيو وقتئذ يقضى بتدمير قرطاجة على

منافس لها فى غربه ، أو لعلهم أرادوا أن يلقوا على بلاد اليونان درساً مثل الدرس الذى ألقاه الإسكندر على طيبة من قبل . ونقل مميوس إلى إيطاليا كل ما استطاع نقله من الأموال ، ومظاهر الثراء ومنها جميع التحف الفنية التى كان الكورنثيون يجملون بها مدينتهم وبيوتهم . ويحدثنا پولبيوس أن الجنود الرومان كانوا يستخدمون الرسوم الفنية ذات الشهرة العالمية لوحات فى لعب الدامّا أو النرد . وحلت رومة العصبة ، وقتلت زعماءها ، وأنشأت من بلاد اليونان ومقدونية ولاية تحت حكمها . وفرضت على بوؤتية ، ولكريس ، وكورنثة ، وعوبية جزية . أما أثينة واسپارطة فلم تمسسهما بسوء وأجيز لهما أن تبقيا خاضعتين لقوانينهما . وأيدت رومة حزب الملاك والنظام فى جميع البلاد وأعلنت أن كل محاولة تبذل لإشعال نار الحرب ، أو الفتن ، أو تبديل الدستور ، تعد خروجا على القانون . وهكذا وجدت المدن الهائجة المضطربة السلم فى آخر الأمر .

الخاتمـــــة

ما ورثناه عن اليونان

لم تمت الحضارة اليونانية حين استولت رومة على بلاد اليونان، بل عاشت بعد ذلك عدة قرون، ولما أن ماتت أورثت أمم أوربا والشرق الأدنى تراثا ليس له مثيل ، فقد أخذت كل مستعمرة يونانية تصب ماء حياة الفن اليونانى والفكر اليونانى فى الدم الثقافى الذى يجرى فى عروق ماجاورها من البلاد — فى أسپانيا وبلاد الغالة ؛ وفى إترووريا وروومة ؛ وفى مصر وفلسطين ؛ وفى سوريا وآسية الصغرى ؛ وعلى طول شواطئ البحر الأسود . وكانت الأسكندرية هى الثغر الذى تصدر منه الأفكار كما تصدر منه السلع . فمن المتحف والمكتبة انتشرت مؤلفات شعراء اليونان ، ومتصوفتهم ، وفلاسفتهم وعلمائهم كما انتشرت آراؤهم على يد الطلاب والعلماء فى كل مدينة فى حوض البحر المتوسط وملتقى طرقه . وأخذت رومة تراث اليونان فى شكله الهلنسىّ : فأخذ كتاب مسرحياتها عن مناندر وفليمون ، وقلد شعراؤها أساليب الأدب الإسكندرى وأوزانه وموضوعاته ؛ واستخدم فنها الصناع اليونان والأشكال اليونانية ؛ واندمجت فى شرائعها قوانين المدن اليونانية ، وصيغ نظامها الإمبراطورى المتأخر على مثال الملكيات اليونانية — الشرقية . وبذلك يصح القول بأن الهلينية قد فتحت رومة بعد الفتح الرومانى كما كانت بلاد الشرق تفتح بلاد اليونان ، فكان كل امتداد لسلطان الرومان انتشاراً للحضارة اليونانية . وعقدت الإمبراطورية البيزنطية قران الحضارة اليونانية والحضارة الأسيوية(*) ، ونقلت بعض تراث اليونان

(*) فى وسعنا أن نؤرخ هذا تسفا بعام ٣٢٥ ق . م ، حين أسس قسطنطين مدينة القسطنطينية ، وأخذت الحضارة البيزنطية المسيحية تحل محل الثقافة « الوثنية » اليونانية فى شرق البحر [illegible] .

إلى الشرق الأدنى وصقالبة الشمال . وأمسك المسيحيون السوريون بشعلة الحضارة اليونانية وأسلموها للعرب واخترق بها هؤلاء إفريقية إلى أسبانية . وأخذ العلماء البيزنطيون ، والمسلمون ، واليهود ينقلون الروائع اليونانية إلى إيطاليا أو يترجمونها لها ؛ لينشئوا بها أول الأمر فلسفة المدرسيين ، ثم يوقدون بها شعلة النهضة الأوربية ، وأخذت روح اليونان منذ ميلاد العقل الأوربى للمرة الثانية تسرى فى الثقافة الحديثة سريانا بلغ من قوته أن « جميع الأمم المتحضرة أضحت اليوم مستعمرات لهلاس فى كل مايتصل بالنشاط الذهنى »(*)(١)

وإذا لم ندخل فى التراث اليونانى ما اخترعه اليونان فحسب بل أدخلنا فيه أيضا ما أخذوه عن ثقافات أقدم من ثقافاتهم ونقلوه بشتى الطرق إلى ثقافتنا ، وجدنا هذا التراث فى كل ناحية من نواحى الحياة الحديثة . فصناعاتنا اليدوية ، وفن التعدين ، وأصول الهندسية العملية ، وأساليب المال والتجارة ، وتشريعات العمل ، وتنظيم التجارة والصناعة — كل هذا قد انتقل إلينا خلال مجرى التاريخ من رومة ، ومن بلاد اليونان عن طريق رومة . فدمقراطياتنا ودكتاتورياتنا على السواء ترجعان إلى المثل اليونانية ؛ ومع أن اتساع رقعة الدول قد أوجد نظاما تمثيلياً لم يكن معروفاً لهلاس ، فإن الفكرة الدمقراطية القائلة بقيام حكومة مسئولة أمام المحكومين ، وفكرة المحاكمة على أيدى المحلفين ، والحريات المدنية التى تشمل حرية الفكر ، والتعبير ، والكتابة ، والاجتماع ، والعبادة ، كل هذه قد استمدت قوتها من التاريخ اليونانى . وهذه هى الخصائص التى تميز اليونانى عن الشرقى ، والتى وهبته استقلالا فى الروح وفى المغامرة جعله يسخر من الخضوع والاستسلام ولقصوره الذاتى .

(*) إن ازدياد معلوماتنا عن الحضارتين المصرية والأسيوية ليضطرنا إلى تعديل كبير فى قول سير هنرى مين Sir Henry Maine المأثور والمبالغ فيه كثيراً وهو : «وإذا استثنينا قوى الطبيعة العمياء ، لم نجد شيئا يتحرك فى هذا العالم إلا وهو يونانى فى أصله»(٢) .

فمدارسنا وجامعاتنا ، ومدارس التدريب الرياضي وملاعبه ، والمباريات الرياضية والأولمبية ، كل هذه ترجع أصولها إلى بلاد اليونان . ونظرية تحسين النسل ، وفكرة ضبط الشهوة الجنسية ، والسيطرة على الغرائز والعواطف ، وعبادة الصحة والحياة الطبيعية ، ومذهب إشباع الحواس أكمل إشباع ، كل هذه وجدت صيغها التاريخية فى بلاد اليونان . وقد تفرع الجزء الأكبر من الدين المسيحى والعبادات المسيحية (ولفظا Christian و theology نفسهما لفظان يونانيان) من الطقوس الخفية التى كانت منتشرة فى بلاد اليونان ومصر ، ومن المراسم الإليوزينية والأرفية ، والأزيريسية ؛ ومن العقيدة اليونانية القائلة بموت الابن المقدس لتخليص الجنس البشرى ثم بعثه من بين الموتى ، ومن الطقوس اليونانية والمواكب الدينية وحفلات التطهير ، والتضحية المقدسة ، والطعام العام المقدس ، ومن الآراء اليونانية عن الجحيم ، والشياطين ، والمطهر ، والغفران ، والجنة ، ومن النظريات الرواقية والأفلاطونية الجديدة عن الكلمة والخلق ، واحتراق العالم فى آخر الأمر . ونحن مدينون بخرافاتنا نفسها لما كان لدى اليونان من أغوال وساحرات ، ولعنات ، وتفاؤل وتشاؤم ، وأيام منحوسة . ومنذا الذى يستطيع أن يفهم الأدب الإنجليزى ، أو يستمتع بقصيدة واحدة من قصائد كيتس Keats إلا إذا كانت لديه فكرة عن الأساطير الدينية اليونانية .

ولولا ما كتبه اليونان وما نقل إلينا عنهم لكان وجود أدبنا من أشق الأمور . فحروفنا الهجائية جاءتنا من بلاد اليونان عن طريق كومى ورومة ، ولغتنا تكثر فيها الكلمات اليونانية ؛ وعلومنا قد أنشأت لها لغة عامة دولية بوساطة المصطلحات اليونانية ؛ ونحونا ، وبلاغتنا ، وحتى علامات الترقيم ، وتقسيم هذه الصفحة إلى فقرات ، كل هذا من اختراع اليونان(*) ، وكل ما لدينا من صور أدبية — الشعر الغنائى ، والقصائد ، وأناشيد الرعاة ، والرواية

(*) يقصد الكاتب بطبيعة الحال الإنجليز والأمريكيين .

القصصية ، والمقالة والخطبة ، والسيرة ، والتاريخ ، والمسرحية وهى أهمها جميعاً ، كل ما لدينا من هذا يونانى وكل مسمياته تقريباً مأخوذة عن اليونانية . والألفاظ الإنجليزية التى تطلق على المسرحيات الحديثة وأشكالها — المأساة ، والملهاة ، والمسرحية الصامتة المضحكة التى تستخدم فيها الإشارات Pantomime , comedy, tragedy يونانية . نعم إن المأساة الإنجليزية فى عصر اليصابات فذة فى نوعها ، ولكن الملهاة المضحكة التى كانت تمثل فى ذلك العصر قد انتقلت إليه من مناندر ، وفليمون بوساطة بلوتس ، وترنس ؛ وبن جنسن ، وملير ، لم يكد يتبدل فيها شىء . وإن المآسى اليونانية نفسها لمن أثمن ما خلفه اليونان من تراثهم القيم .

وما من شىء فى بلاد اليونان يبدو لنا غريبا عنا أكثر من موسيقاها ؛ ومع هذا فإن الموسيقى الحديثة كانت (إلى أن عاد بها الموسيقيون إلى أفريقية وبلاد الشرق) مستقاة من ترانيم العصور الوسطى ورقصها ، وهذه الترانيم وهذا الرقص يرجع بعضهما إلى أصل يونانى . والأناشيد الدينية ، والتمثيليات الغنائية مدينة بعض الدين إلى الرقص الغنائى الجماعى اليونانى وإلى المسرحيات اليونانية ؛ ومبلغ علمنا أن اليونان من فيثاغورس إلى أرستكسنوس Aristoxenus كانوا أول من وضعوا وشرحوا نظريات الموسيقى . وديننا لليونان فى الرسم أقل الديون ، ولكن فى وسعنا أن نتتبع تسلسل المظلمات تسلسلا غير متقطع من پولجنوتس إلى رسوم الجدران التى تستلفت الأنظار فى هذه الأيام عن طريق الإسكندرية وبمپى ، وجيتو Giotto وميكل أنجلو . ولا تزال أشكال النحت الحديث وقواعده الفنية يونانية ، لأن العبقرية اليونانية لم تطبع شيئاً بطابعها وتستبد به كما طبعت فن النحت واستبدت به . وقد بلغ من قوة هذا الاستبداد أننا لم نبدأ نتحرر من الافتتان بفن العمارة اليونانية إلا فى هذه الأيام . وليس فى أوربا ولا أمريكا مدينة تخلو من صرح تجارى أومالى قد أخذ شكله أو أخذت واجهته ذات العمد من معابد الآلهة اليونانية . ولسنا ننكر أننا لا نجد فى الفن

اليونانى دراسة الخلق وتصوير خلجات النفس ، وأن افتتانه بجمال الجسم وصحته يجعله أقل نضجاً من تماثيل مصر التى تنطق بالرجولة الكاملة ومن تصوير الصينيين النافذ العميق . غير أن ما نتلقاه عن هذا الفن اليونانى من دروس فى الاعتدال ، والطهارة والنقاء ، والتناسق البادى فى النحت والعمارة فى عصر اليونان الزاهر — كل هذا من أثمن تراث الإنسانية .

وإذا كانت الحضارة اليونانية تبدو لنا الآن أقرب « وأحدث » من أية حضارة أخرى قبل فلتير ، فما ذلك إلا أن اليونان كانوا يحبون العقل بقدر ما يحبون الشكل ، ولذلك كانوا جريئين فى سعيهم إلى تفسير الطبيعة على أسس مستمدة من الطبيعة نفسها ، ولقد كان تحرير العلم من قيود الدين ، وتطور البحث العلمى تطوراً مستقلا عن كل ما عداه ، كان هذان التحرر والتطور مظهرين من مغامرات العقلية اليونانية الجامحة . وعلماء الرياضة اليونان هم واضعو قواعد حساب المثلثات ، وحساب التفاضل والتكامل ، وهم الذين بدأوا وأتموا دراسة القطاعات المخروطية ، ووصلوا بهندسة الأبعاد الثلاثة إلى درجة من الكمال النسبي ظلت محتفظة بها دون تبديل إلى أيام ديكارت وپسكال . وقد أنار دمقريطس ميدان علم الطبيعة والكيمياء بأكمله بنظريته الذرية . واستطاع أركميديز فى أوقات تسليته وفراغه من الدراسات المجردة أن يبتدع من الأجهزة والآلات الجديدة ما يكفى لأن يقرن اسمه بأعظم الأسماء فى سجل الاختراعات . وقد سبق أرستارخوس كوبرنيق فى كشوفه الفلكية ولعله هو الذى أوحى إليه بها(*) ، وأقام هپاركوس على يدى كلوديوس بطليموس نظاماً فلكياً يعد من المعالم الخطيرة فى تاريخ الثقافة البشرية . ورسم أنكساغورس وأنبادوقليس الخطوط الأساسية لنظرية النشوء والارتقاء . وصنف أرسطو وثاوفراسطوس

(*) كان كوپرنيق على علم بنظرية أرستارخوس القائلة إن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية لأنه ذكر ذلك فى فقرة اختفت من الطبعات المتأخرة من كتابه(٣) .

مملكتى الحيوان والنبات ، وأوشكا أن يبتدعا علوم الأرصاد الجوية ، والحيوان ، والأجنة والنبات. وحرر أبقراط الطب من التصوف والنظريات الفلسفية ورفع من منزلته بأن ضم إليه قانوناً أخلاقياً سامياً . وارتقى هروفيلس وإراستراتس بعلمى التشريح ووظائف الأعضاء إلى درجة لم تصل إليها أوربا بعدهما — إذا استثنينا جالينوس وحده — إلا فى عهد النهضة . ونحن نتنفس فى أعمال أولئك الرجال نسيم العقل الهادئ ، غير الواثق أو الآمن على الدوام ، ولكنه العقل المبرأ من العواطف والأساطير .ولعلنا لوكانت لدينا روائعه كاملة لحكمنا من فورنا بأن العلوم الطبيعية اليونانية أجل الأعمال الذهنية الرائعة فى تاريخ الإنسانية .

غير أن الرجل المولع بالفلسفة لايرضى بسهولة أن يجعل للعلوم الطبيعية والفنون الجميلة أعلى منزلة فيما ورثناه عن اليونان الأقدمين. ذلك أن علم اليونان الطبيعى كان هو نفسه وليد الفلسفة اليونانية — وليد ذلك التحدى الجرىء للأقاصيص الخرافية ، وذلك الحب القوى للبحث . الذى ظل عدة قرون يجمع بين العلم والفلسفة فى مغامرات البحث والتنقيب. ولم يشهد العالم قبل اليونان رجالا يفحصون عن الطبيعة بمثل دقتهم وبمثل ولعهم بها وحبهم إياها . ولم ينقص اليونان من مكانة العالم السامية باعتقادهم أنه كون منظم وأن نظامه هذا يجعله قابلا للفهم والإدراك . وقد ابتدعوا المنطق لنفس السبب الذى جعلهم يبتدعون التماثيل التى بلغت ذروة الكمال ؛ والتناسق .والوحدة ،والتناسب ،والشكل هى فى رأيهم معين فى المنطق ومنطق الفن . وقد دفعهم تشوقهم ونطلعهم لمعرفة كل حقيقة وكل نظرية إلى أن يجعلوا الفلسفة مغامرة ممتازة من مغامرات العقل الأوربى ، وهم لا يكتفون بهذا بل نراهم لايكادون يتركون فرضاً من الفروض أو نظاماً من الأنظمة إلا فكروا فيه ، ولايكادون يتركون لغيرهم شيئاً يقولونه عن مشاكل الحياة الكبرى . فالواقعية ، والقول بأن الأشياء موجودة بالاسم دون الحقيقة ،والمثالية والمادية ، والتوحيد ، ووحدة الوجود ،

والشرك ، والحركة النسائية والشيوعية ، والبحث التحليلي الكانتي Kantian واليأس الشوپنهوري ، والعودة إلى الحياة البدائية التي يقول بها روسو ، ومذهب نتشة في التحلل من القيود الأخلاقية ، ومذهب اسپنسر التركيبي ، ومذهب فرويد في التحليل النفسي — وبالجملة كل أحلام الفلسفة وحكمتها نشهدها هنا في مهدها وبداية عهدها . ولم يكن الناس في بلاد اليونان يتحدثون عن الفلسفة فحسب ، بل كانوا فوق ذلك يعيشون فيها : فقد كان الحكيم لا المحارب أو القديس ، صاحب أسمى مكانة في اليونانية وكان هو مثلها الأعلى . وقد وصل إلينا هذا التراث الفلسفي المبهج من أيام طاليس خلال القرون الطوال ، وكان هو الملهم للأباطرة الرومان ، وآباء الكنيسة المسيحيين ، وعلماء الدين المدرسيين ، وملحدي عصر النهضة ، وفلاسفة كمبردج الأفلاطونيين ، ومتمردي عصر الاستنارة الفرنسيين ، وعشاق الفلسفة في هذه الأيام . ولعله لا يوجد قطر من أقطار العالم إلا فيه من يقرأ فلسفة أفلاطون ويقرؤها بشغف شديد وإذا عددت هؤلاء القراء في هذه اللحظة وجدتهم ألوفاً مؤلفة .

وآخر ما نقوله في هذا المجال أن الحضارة لا تموت ولكنها تهاجر من بلد إلى بلد ، فهي تغير مسكنها وملبسها ، ولكنها تظل حية . وموت إحدى الحضارات كموت أحد الأفراد يفسح المكان لنشأة حضارة أخرى ؛ فالحياة تخلع عنها غشاءها القديم وتفاجئ الموت بشباب غض جديد . فالحضارة اليونانية حية ، وتتحرك في كل نسمة من نسمات العقل نستنشقها ، وإن ما بقي منها ليبلغ من الضخامة حداً يستحيل على الفرد في حياته أن يستوعبه كله . ونحن نعرف عيوبها ونقائصها — نعرف حروبها الجنونية التي خلت من الرحمة ، وما فيها من استرقاق دام إلى آخر أيام بنيها ، ونعرف إخضاعها النساء وإذلالهن ، وتحللها من القيود الأخلاقية ، ونزعتها الفردية الفاسدة ، وعجزها المحزن عن أن تجمع

بين الحرية والنظام والسلم . ولكن الذين يحبون الحرية ، والعقل ، والجمال ، لايطيلون التفكير فى هذه العيوب ، بل إنهم سوف يستمعون من وراء سحب التاريخ السياسى إلى أصوات صولون وسقراط ، وأفلاطون ويوريپديز ، وفدياس وبركستليز ، وأبيقور ، وأركيديز ، وسوف يحمدون الله لوجود أمثال أولئك الرجال ويحرصون على صحبتهم فى بلاد غير بلادهم . ويقرنون بلاد اليونان بفجر تلك الحضارة الغربية المتبر التى هى غذاؤنا وحياتنا رغم ما فيها من عيوب ترجع أصولها إلى معينها القديم .

إلى الذين وصلوا معى إلى هذا الحد :

أشكر لكم صحبتكم التى لا أراها بعينى ولكننى لا أفتأ أحسها بقلبى :

Bibliography

Of Books Reffered to in text or Notes

The starred volumes are recommended for further study.

ADAMS, B. : The Empire. N.Y., 1903.

*AESCHYLUS : The Oresteia. Tr. G. Murray. London, 1928.

ANDERSON, W. J., and SPIERS, R. P. : The Architecture of Greece and Rome. London, 1902.

ARISTOPHANES : The Eleven Comedies. 2v. N.Y. 1928.

ARISTOPHANES : The Frogs, and Three Other Plays. Tr. Frere. etc.. Every-man Library.

ARISTOTLE : Art of Rhetoric. Loeb Classical Library.

ARISTOTLE : Metaphysics. 2v. Loeb Library.

ARISTOTLE : Metaphysics. Tr. M'Mahon. London. 1857.

ARISTOTLE : Nicomachean Ethics. Tr. Chase. Everyman Library.

ARISTOTLE (?) : Oeconomica and Magna Moralia. Leob Library.

ARISTOTLE : ON the Constitution of Athens. Tr. E. Poste. London, 1891.

ARISTOTLE : Physics. 2v. Loeb Library.

ARISTOTLE : Poetics. Loeb Library.

*ARISTOTLE : Politics. Tr. Lindsay. Everyman Library.

ARISTOTLE : Works. Tr. Smith and Ross. Oxford, 1931.

ARNOLD, M. : Essays in Criticism. A. L. Burt, N.Y., n.d.

ARRIN : Anabasis of Alexander; Indica. London, 1893.

ATHENAEUS : The Deipnosophists, or Banquet of the Learned. 3v. London, 1854.

*BACON, F. : Philosophical Works. Ed. J. M. Robertson London, 1905.

BAEDEKER, : Greece. Leipzig, 1909.

*BAIKIE, J. : The Sea-Kings of Crete. London, 1926.

BAKEWELL, C. : Source Book in Ancient Philosophy. N.Y., 1909.

BALL, W.W.R. : Short Account of the History of Mathematics. London. 1888.

BARON, S.W. : Social and Religious History of the Jews. 3v. N. Y., 1937.

BEBEL, A. : Woman under Socialism. N.Y., 1937.

BECKER, W.A. : Charieles. Tr. Metcalfe. London, 1886.

BENSON, E. F. : Life of Alcibiades. N.Y., 1929.
BENTWICH, N. : Hellenism. Phila , 1919.
BERRY, A. : Short History of Astronomy. N.Y., 1909.
BEVAN, E. R. : House of Seleucus. 2v. London, 1902.
BEVAN, E.R., and SINGER, C.,eds. : The Legency of Israel. Oxford, 1927.
BIBLE, THE
BLAKENEY, J.A. : Smaller Clasical Dicionary. Everyman Library.
BOTSFORD, G.W. : The Athenian Constitution N.Y., 1893.
BOTSFORD, G. W., and SIHLER, E. G. : Hellenic Civilization. N.Y., 1920.
BRECCIA, E : Alexandrea ad Aegyptum. Bergamo, 1922.
BRIFFAULT, R. : The Mothers. 3v. N.Y., 1927.
BROWNE, H. : Handbook of Homeric Study. London, 1908.
BURY, J. B. : Ancient Greek Historians. N.Y., 1909.
*BURY, J. B. : History of Greece. London, 1931.

CATHOUN, G.M. : Business Life of Ancient Athens. Chicago, 1926.
CAMPRIDGE ANCIENT HISTORY (CAH) : Vols. I-III. N·Y., 1924f.
CAPES, W. : University Life in Ancient Athens. N.Y., 1922.
CARPENTFR, E. : Pagan and Christian Creeds. N.Y., 1920.
CARREL, A. : Man the Unknown. N.Y., 1935.
CARROLL, N. : Greek Women. Phila., 1908.
CHILDE, V.G. : Dawn of European Civilization, N.Y., 1925.
CICERO : De Finibus. Loeb. Library.
CICERO : De Natura Deorum. Loeb Library.
CICERO : De Re Publica. Loeb Library.
CICERO : Tusculan Disputations. Leob Library.
COOK, A.B. : Zeus. Cambridge Univ. Press, 1914.
COTTERILL, H.B. : History of Art. 2v. N.Y., 1922.
COULANGES, F. DE : The Ancient City. Boston, 1901.
CURTIUS, E. : Grieche Geschichte. 3v. Berlin, 1887f.

DAY, C. : History of Commerce. London, 1926.
DEMOSTHENES : On the Crown, etc. Loeb Library.
DEWEY, JOHN, etc. : Studdies in the History of Ideas. N.Y., 1935.
DIKINSON, G.I. : The Greek View of Life. N.Y., 1928.
DIODORUS SICULUS : Library of History. 3v. Loeb Library.
DIODORUS SICULUS Historical Library. 2v. London, 1814.

*DIOGENES LAERTIUS : Lives and Opinions of the Eminent Philosophers. London, 1858.

DRAPER, J. W. : History of the Intellectual Development of Europe. ٢v. N.Y., 1876.

DURÉEL, E. : La Légende Socratique. Bruxelles, 1922.

DYER, T.H. : Ancient Athens. London, 1873.

ELLIS, H. : Studies in the Psychology of Sex. 6v. Phila., 1911.

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 14th ed N.Y., 1929.

EURIPIDES : Electra. Tr. G. Murray. Oxford, 1907.

EUIRIPIDES : Iphigenia in Tauris. Tr. Murray. Oxford, 1930.

*EURIPIDES : Medea. Tr. G. Murray. Oxford, 1912.

URIPIDES : Text and tr. by A.S. Way. 4v. Loeb Library.

*EURIPIDES : Trojan Women. Tr. G. Murray. Oxford, 1914.

EVANS, SIR M. : The Palace of Minos. 4v. in 6. London, 1921f.

FARNELL, L.R. : Greece and Babylon. Edinburgh, 1911.

FERGUSON, W.M. : Greek Imperialism. Boston, 1913.

FLICKINGER, R.C. : The Greek Theatre. Chicago, 1918.

FRAZER, SIR J.G. : Adonis, Attis, Osiris. 1935.

FRAZER J.G. : The Dying God. N.Y., 1935.

FRAZER, SIR J.G. : The Magic Art. 2v. N.Y., 1935.

FRAZER, J.G. : The Scapegoat. N.Y., 1935.

FRAZER, SIR J.G. : Spirits of the Corn and of the Wild. 2v. N.Y., 1935.

FRAZER, SIR J. G. : Studies in Greek Scenery, Legend, and History. London, 1931.

FREEMAN, E.A. : The Story of Sicily. N.Y., 1892.

GARDINER, E.N. : Athletics of the Ancient World. Oxford, 1930.

GARDINER, PERCY : New Chapters in Greek History. N.Y. 1892

GARDINER, PERCY : Principlees of Greek Art. N.Y., 1914.

GARDNER, A.E. : Ancient Athens. N.Y., 1902.

GARDNER, E.A. : Handbook of Greek Sculpture. London, 1920.

GARDINER, E.A. : Six Greek Sculptors. London, 1910.

GARRISON, F.H. : History of Medicine. Phila., 1929.

GIBBON, E. : The Decline and Fall of the Roman Empire. 6v. Everyman Library.

GLOTZ, G. : Aegean Civilization. N.Y., 1925.

GLOTZ, Ancient Greece at Work. N.Y., 1926.
GLOTZ, G. : The Greek City. London, 1929.
GLOVER, T.R. : Democracy in the Ancient World. Cambridge, Eng., 1927.
GOETHE, J.W. VON : Poetical Works. N.Y., 1902.
GOMME, J.W. : Population of Athens. Oxford, 1933.
GRAETZ., A. : History of the Jews. 6v. Phila., 1891f.
GREER ANTHOLOGY : Tr. Shane Leslie. N.Y., 1929.
GREEK ANTHOLOGY : Tr. R.G. MacGregor. London, n.d.
GREEK DRAMASO : Tr. E.B. Browning, etc. N,Y., 1912.
GROTE, G. : Aristotle. 2v. London, 1872.
GROTE, G. : History of Greece. 12v. Everyman Library.
GROTE, G. : Plato and the Other Companions of Socrates. 3v. London 1875.

HAGGARD, H.W. : Devils, Drugs, and Doctors. N.Y. 1929.
HAIGH, A.E. : The Attic Theatre. Oxford, 1907.
HALL, H.R. : Civilization of Greece in the Bronze Age. N.Y., 1927.
HALL, M.P. : Encyclopedic Outline of Masonic, Hermetic, Qabbalistic, and Rosicrucian Symbolical Philosophy. San Francisco. 1928.
HARRISON, J.E. : Prolegomena to the Study of Greek Religion. Cambridge, Eng., 1922.
HARRISON, J E. : Themis. Cambridge, Eng., 1927.
HEATH, SIR T. : Aristarchus of Samos. Oxford, 1913.
HEATH, SIR T. : History of Greek Mathematics. 2v. Oxford, 1921.
HEITLAND, W. E. : Agricola : A Study of Agriculure and Rustic Life in the Greco-Roman World. Cambridge, Eng., 1921.
HERACLEITUS ON THE UNIVERSE. Tr. W.H.S. Jones. Loeb. Library.
HERODES (HERODAS), CERCIDAS, AND THE GREEK CHOLIAMAIC POETS. Loeb Library.
*HERODOTUS : History. Tr. Rawlinson. 4v. London, 1862.
HESIOD, CALLIMACHUS, and THEOGNIS : Works. London, 1856.
HIMES, N.E. Medical History of Contraception. Baltimore. 1936.
HIPPOCRATES : Works. 4v. Loeb Library.
HOBHOUSE, L.T. Morals in Evolution N.Y., 1916.
HOGARTH, D.G. : India and the East. Oxford, 1909.
*HOMER : Iliad. Tr. W.C. Bryant. Boston, 1898.
HOMER : Iliad. Text and tr. by A.T. Murray. 2v. Loeb Library.
*HOMER Odyssey. Text and tr. by A.T. Murry. 2v. Loeb Library.

ISOCRATES : Works. 2v. Loeb Library.

JEWISH ENCYCLOPEDIA. N.Y., 1901.

JONES, H.S. : Ancient Writers on Greek Sculpture. London, 1895.

JONES, W.H.S. : Malaria and Greek History. Manchester, Eng., 1909.

JOSEPHUS, F. : Works. 2v. Boston, 1811.

JOURNAL of HELLENIC STUDIES. London, 1882f.

KELLER, A.G. : Homeric Society. N.Y., 1902.

KIRSTEIN, L. : Dance : A Short History N.Y., 1935.

KÖHLER, C. : History of Costume. N.Y., 1928.

LACROIX, P. : History of Prostitution. 2v. N.Y., 1931.

LANGE, F.E. : History of Materialism. N.Y., 1925.

LESSING, G.E. : Laocoön. London, 1874.

LEWES, G.H. : Aristotle. A Chapter in the History of Science. London 1864.

LINFORTH, I.M. : Solon the Athenian. Berkeley, Cal., 1919.

LIPPERT, J. : Evolution of Culture. N.Y., 1931.

LITCHFIELD, F. : Illustrated History of Furniture. Boston, 1922.

*LIVINGSTON, R.W. : The Greek Genius. Oxford, 1924.

LIVINGSTONE, R.W., ed. : The Legacy of Greece. Oxford, 1924.

LIVY : History of Rome. 6v. Everyman Library.

LOCY, W.A. : Growth of Biology. N.Y., 1925.

LONGINUS : On the Sublime. Loeb Library.

LUCIAN : Works. 4v. Oxford, 1905.

*LUCRETIUS, E. De Rerum Natura. Loeb Library.

LUDWIG, E. : Schlieman. Boston, 1931.

LYRA GRAECA : 3v. Loeb Library.

MAHAFFY, J.P. : Empire of the Ptolemies, London, 1895.

MAHAFFY, J.P. : Greek Life and Thought. London, 1887.

MAHAFFY, J.P. : History of Classical Greek Literature. 4v. London, 1908.

MAHAFFY, Old Greek Education. N.Y., n.d.

MAHAFFY, J.P. : Progress of Hellenism in Alexander's Empire. Chicago, 1905.

*MAHAFFY, J.P. : Social Life in Greece. London, 1925.

MAHAFFY, J.P. What Have the Greeks Done for Modern Civilization? N.Y., 1909.

MANSON, W.A : History of the Art of Writing. N.Y., 1920.

McCLEES, H. : Daily Life of the Greeks and Romans. N.Y., 1928.

McCRINDLE, J.W. : Ancient India as Described by Megasthenes and Arrian Calcutta, 1877.

MENANDER : Principal Fragments. Loeb Library.

MEYER, E. Geschichte des Altertums. 4v. Stuttgart, 1884f.

MOMMSEN, T. : History of Rome. 5v. London, 1901.

MÜLLER, K.O. : The Dorians. 2v. Oxford, 1880.

MÜLLER-LYER, F. : Evolution of Modern Marriage N.Y. 1930.

MÜLLER-LYER. F. : The Family. N.Y. 1931.

MURRAY, A.S. : History of Greek Sculpture. 2v. London. 1890.

MURRAY, G. : Aristophances. N.Y. 1933.

*MURRAY, G. : Euripides and His Age. N.Y. 1913.

MURRAY, G. : Five Stages of Greek Religion. Oxford, 1930

*MURRAY, G. : History of Ancient Greek Literature. N.Y. 1927.

MURRAY, G. : Rise of the Greek Epic. Oxford. 1924.

NAPLES MUSEUM. Guide to the Archeological Collections. Naples. 1935.

NIETZSCHE. F. : Early Greek Philosophy. N.Y. 1911.

NILSSON. M. History of Greek Religion. Oxford. 1925.

NORWOOD. R. : The Greek Drama. N.Y. 1920.

OLMSTEAD. A. : History of Assyria. N.Y. 1923.

OVID : Heroides and Amores. Loeb Library.

OVID : Metamorphoses. Loeb Library.

OWEN. J. : Evenings with the Sceptics. 2v. London. 1881.

*OXFORD Book of Greek Verse in Translation. Oxford. 1938.

OXFORD History of Music : Introductory Volume. Oxford. 1929.

OXFORDER Bach Deutscheng Dichtung Oxford. 1936.

PATER. W. : Plato and Platonism. London. 1910.

PAUSANIAS : Description of Greece. 2v. London. 1886.

PFUHL. E. : Masterpieces of Greek Drawing and Painting. London. 1926.

PHILOSTRATUS : Lives of the Sophists. Loeb Library.

*PIJOAN. J. : History of Art. 3v. N.Y. n.d.

PINDAR : Odes. Loeb Library.

PLATO : Dialogues. Tr. Jowett. 4v. N.Y. n.d.

PLATO : Epistles. Loeb Library.

PLINY : Natural History. 6v. London, 1855.

*PLUTARCH : Lives. 3v. Everyman Library.

PLUTARCH : Moralia. Vols. I-III. Loeb Library.

PÖHLMANN, R. VON : Geschichte der Sozailen Frage und des Sozialismus in der antiken Welt. 2v. München, 1925.

POLYRIUS : Histories. 6v. Loeb Library.

PRATT, W.S. : History of Music. N.Y. 1927.

QUINTILIAN : Institutio Oratoria. 4v. Loeb Library.

RAMSAY, SIR WM. : Hsianic Elements in Greek Civilization., New Haven, 1928.

RANDALL-MACIVER, D. : Greek Cities in Italy and Sicily. Oxford, 1931.

REINACH, S. : Orpheus : History of Religions N.Y. 1930.

RENAN, E. : History of the People of Israel. 5v. N.Y., 1888.

RICHTER, G. : Handbook of the Classical Collection. Metropolitan Museum Of Art, N.Y. 1922.

RICKARD, T.A. : Man and Metals. 2v. N.Y. 1932.

RIDDER, R., and DEONNA, W. : Art in Greece. N.Y. 1927,

RIDGEWAY, SIR WM. : Early Age of Greece. Cambridge, Eng. 1901.

ROBINSON, D.M. : Sappho and Her Influence. Boston, 1924.

RODENWALDT, G. Die Kunst der Antike. Berlin. 1927.

ROHDE, E. : Psyche. N.Y. 1925.

ROSTOVTZEEF, M. : Histry of the Ancient World. 2v. Oxford, 1930.

ROSTOVTZEFF, M. : Social and Economic History of the Roman Empire. Oxford. 1926.

RUSSELL, B. Principles of Mathematics. 2v. London, 1903.

*SACHA, A.L. : History of the Jews. N.Y. 1932.

SARTON, G. : Introduction to the History of Science. Baltimore, 1930.

SCHLEGEL, A.W. : Lectures on Dramatic Art and Literature. London, 1846.

SCHLIEMANN, H. : Ilios. N.Y. 1881.

CHLIEMANN, H. : Mycenae. N.Y., 1878.

SEDGWICK, W.T., and TYLER, H.W. : Short History of Science. N.Y. 1927

SEMPLE, E.C. : Geography of the Mediterraen Region. N.Y. 1931.

SEXTI EMPIRICI Opera Graece et Latine. 2v. Leipzig, 1840.

SEYMOUR, T.D. : Life in the Homeric Age. N.Y. 1907.

SHOTWELL, J.T. : Introduction to the History of History. N.Y, 1936.

SINGER, C E. : Studies in the History and Method of Science. Vol. II. Oxford, 1921.

SMITH, G.E. : Human History. N.Y. 1929.

MITH, WM. : Dictionary of Greek and Roman Antiquities. Boston, 1859.

*SOPHOCLES : Tragedies. Tr. Plumptre. London, 1867.

SOPHOCLES : Plays. 2v. Loeb Library.

SPENCER, H. : First Principles. N.Y. 1910.

SPENGLER, O. : Decline of the West. 2v. N.Y. 1926f.

SPINOZA, B. : Ethics and De Emendatione Intellectus. Everyman Library.

STABO : Geography. 8v. Loeb Library.

SUMNER, W.G. Fokways. Boston, 1906.

SUMNER, W. G., and KELLER, A. G. : The Science of Society. 3v. New Haven, 1928.

SWINBURNE, A.C. : Poems. Phila., n.d.

*SYMONDS, J.A. : Studies of the Greek Poets. London, 1920.

TAINE, H. : Lectures on Art. N.Y. 1875.

TARN, W.W. : Hellenistic Civilization. London, 1927.

TAYLOR, A.E. : Plato. N.Y.. 1936.

THEOCRITUS, BION, and MOSCHUS : Poems. London, 1853.

THEOPHRASTUS : Characters. Loeb Library.

THOMPSON, SIR E. M. : Introduction to Greek and Latin Paleography, Oxford, 1912.

*THUCYDIDES : History of the Peloponnesian War. Everyman Library.

TOUTAIN, J. : Economic Life of the Ancient World. N.Y., 1930.

TUCKER, T.G. ; Life in Ancient Athens. Chautauqua, N.Y., 1917.

TYLOR, E B. : Anthropology. N.Y. 1906.

UEBERWEG, F. : History of Philosophy. 2v. N.Y., 1871.

USHER, A.P. : Aistory of Mechanical Inventions. N.Y., 1929.

VERRALL, A.W. : Euripides the Rationalist. Cambridge, Eng., 1913.

VINOGRADOFF, SIR P. : Outlines of Historical Jurisprudence. 2v. Oxford, 1922.

VIRGIL : Works. 2v. Loeb Library.

VITRUVIUS : On Architecture. 2v. Loeb Library.

VOLTAIRE, F.M.A. DE : Works. 22v. N.Y., 1927.

WARD, C.O. : The Ancient Lowly. 2v. Chicago. 1907.
WARREN, H.L. : Foundations of Classic Architecture. N.Y., 1919.
WAXMAN, M. : History of Jewish Litirature. 3v. N.Y., 1930.
*WEIGALL, A. : Alexander the Great. N.Y., 1933.
WEIGALL, A. : Sappho of Lesbos. N.Y., 1932.
WESTERMARCK, E. : History of Human Marriage. 3v. London, 1921.
WESTERMARCK, E. : Origin and Development of the Moral Ideas. 2v. London, 1917f.
WHEWELL, WM. : History of the Inductive Sciences. 2v. N.Y., 1859.
WHIBLEY, L. : Companion to Greek Studies. Cabridge, Eng., 1916.
*WILLIAMS, H.S. : History of Science, 5v. N.Y., 1909.
WINCKELMANN, J. : History of Ancient Art. 4v. in 2. Boston. 1880.
WRIGHT, F.A. : History of Later Greek Literature. N.Y., 1932.

XENOPHON : Works. Loeb Library.
XENOPHON : Memorabilia., Phila 1899.
XENOPHON : Minor Works. London, 1914.

ZEITLIN, S. : History of the Second Jewish Commonwealth. 1933.
ZELLER, E. : Socrates and the Socratic Schools. London, 1877.
ZELLER, E. : Stoics, Epicureans, and Sceptics. London, 1870.
ZIMMERN, A. : The Greek Commonwealth. Oxford, 1924.

Notes

ذكرنا اسم الكتاب كاملا فى المرة الأولى وحدها ، ثم ذكرناه بعدئذ مختصرا وفى وسع القارئ أن يعرف اسمه الكامل بالرجوع إلى ثبت المراجع السابق . والأرقام الكبيرة الرومانية تدل إذا ذكرت إلى جانب المؤلفات الحديثة على أرقام المجلدات ، أما الأرقام الهندسية فتدل على رقم الصفحة . وعند ذكر النصوص القديمة تدل الأرقام الرومانية الصغيرة على رقم « الكتاب » أو « المقالة » أما الأرقام الهندية فتدل على أبواب الكتاب أو على الآية فى الكتب المقدسة . فاذا كانت الأقسام طويلة فإذا تدل على فصول الكتاب بإثبات رقم هندى بعد شولة .

CHAPTER I

1. Plato, *Works*, Jowett tr.; *Phaedo*, 109.
2. Semple, Ellen, *Geography of the Mediterranean Region*, N.Y., 1931, 99, 507.
3. Evans, Sir Arthur, *Palace of Minos*, London, 1921f, I, 20.
4. Homer, *Odyssey*, tr. A.T. Murray, Loeb Classical Library, London, 1927, xix, 172-7.
5. Aristotle, *Politics*, 1271b.
6. Ludwig, Emil, *Schliemann*, Boston 1931, 264-5; Glotz, G., *Aegean Cevilization*, N.Y., 1925, 14; *Cambredg Ancient History* (hereafter referred to as CAH), N.Y., 1924f, I, 1-3.
7. Evans, I, 18; Hall, H.R., *Civilization of Greece in the Bronze Age*, N.Y., 1927; 27; Glotz, 30-1, 67, 348; CAH, I, 589-90.
8. Evans, I, 26.
9. Ibid., I, 27; Glotz, 38, 40; CAH, I, 597-8.
10. Glotz, 60-4; Baikie, Jas., *Sea-kings of Crete*, London, 1926, 212-3.
11. Hall, 27; Glotz, 68-73.
12. Köhler, Carl, *History of Costume*, N.Y., 1928, frontispiece; Evans. III, 49.
13. CAH, I, 596 : Glotz, 65-6, 75-8, 311, and fig. 6.
14. Cf. Evans. III, 227.
19. Glotz, 147-8; CAH, II, 437.
20. Thucydides, *History of the Peloponnesian War*, Evryman Library, I, 1.4; cf. Herodotus, *History*, tr. Rawhlinson, Lodon, 1862, vii, 170, and Diodorus Siculus, *Library of History*, v, 78.
21. Strabo, *Geography*, Loeb, Library, x, 4.8; Glotz, 149; Evans, I, 2, IV, p. xxii; CAH, II 442; Homer, *Odyssey*, xi, 568-70.
22. Ibid., iii, 296.
23. Glotz, 139-42; 173-4; Baikie, 120, 129-31.
24. Evans, I, facing 305, III. 13f; CAH, I, 591, 605, II, 432; Glotz, 106-9, 163-4; Baikie, 97.
25. Evans, I, facing 472; Glotz, 169, 70, 298.
26. Evans, III, 218; Hall, 15; Glotz, 294 6, 312-3.
27. Evans, I, 15.
28. Ibid., 151; Glotz, 229, 237-41, 248-9, 256; Farnill, L.R, *Greece and Babylon*, Edinburgh, 1911, 228; Nilsson, M.P., *History of Greek Religion*, Oxford, 1925, 13, questions any worship of the bull in Crete.
29. Glotz, 146, 244-7; Evans, IV 468-9.
30. Ibid.; Glotz, 252-4.
31. Ibid., 231-8, 265-70, 273-4; Farnell, 125; Reinach. S., *Orpheus*. N.Y., 1930, 83; Nilsson, 13, 16; CAH, II, 444-5.

32. Mason. W. A, *History of the Art of Writing*, N.Y., 1920, 315-28, 331; Evans, I, 15, 124f. IV, xx, 959; Glotz, 150, 196, 371-7, 381-7; *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., I, 213; CAH, II, 437; Whibley, L., *Companion to Greek Studies*, Cambridge U.P., 1916-26
33. Glotz, 165, 388; Baikie, 238.
34. Homer, *Iliad*, xviii, 590.
35. Glotz, 174, 321.
36. Evans, I, 342-4; Evans in Baikie, 71; Reinach, 82; Pliny, *Natural History*, London, 1855, xxxvi, 19; Glotz, 108.
37. Hall, 102.
38. Evans, I, 142, III, 252-3; Burrows, R.M., in Baikie, 99, and Semple, 570.
39. Evans, III, 116-22.
40. In Baikie, 129.
40a. Evans. Sir Arthur, "The Minoan and Mycenaean Element in Hellenic Life", *Journal of Hellenic Studies*, XXXII (1912), 277f; Hall, 27.
41. Evans, *Palace of Minos*, I, 17.
42. Ibid., 16-7; Smith, *Human History*, 378-90; Hall, 35; Glotz, 191-3, 209; Speng'er, Oswald, *Decline of the West*, N.Y., 1926-8, II, 88.
43. Strabo, xiv, 2.27; Evans, "Minoan and Mycenaean Element," 288.
44. Herodotus, vii, 170 : CAH, II, 475; Smith, G.E, 398.
45. Baedeker, K., *Greece*, Leipzig, 1909, 417.
46. CAH, I, 442-3.
47. Himes, Norman, *Medical History of Contraception*, Baltimore, 1936, 187.
48. Grote, G, *History of Greece*, Everyman Library, I, 190; Grazer, SirJas., *Dying God*, N.Y., 1935. 71
49. Diodorus, iv, 76.
50. Ibid., 79 Ovid, *Metamorphoses*, Loeb Library, viii, 181f.
51. Pausanias, *Description of Greece* London, 1886, ix, 40.
52. Plutrach, *Lives*, "Theseus"; Homer, *Odyssey*, xi, 321-5.
53. E.g., Polybius, *Histories*, Loeb Library, vi, 45.
54. Strabo, x, 4.16-22.

CHAPTER II

1. Schliemann, H., *Ilios*, N.Y. 1881, 3.
2. Ibid, 9.
3. Ibid., 17.
4. Ludwig, p. ix.
5. Schliemann, 14-15.
6. Ludwig, 137.
7. Ibid., 182-3, 183, 284.
8. Schliemann, 26.
9. Ibid., 41; Ludwig, 139, 165
10. Schliemann, H., *Mecenae*, N.Y., 1878, 101-2.
11. Homer, *Iliad.*, ii, 559.
12. Ludwig, 284.
13. Ibid., 256-7.
14. Pausanias, ii, 25.
15. Warren, H L., *Foundations of Classic Architecture*, N. Y., 1919 124-5; Pausanias, ii, 25.
16. Ibid., ii, 15.
17. *Iliad*, ii, 59, vii, 180; *Odyssey*, iii, 305.
18. Pausanias, ii, 16.
19. Schliemann, *Mycenae*, 298f; CAH II, 452-3; Glotz, 46; *Enc. Brit.*, XVI, 38.
20. Hall, I; Nilsson, II; Glotz, 31-2; Whibley, 27.
20a. Murray, A.S., *History of Greek Sculpture*, London, 1890, I, 61.
21. Herodotus, ii, 53, 57.
22. Pausanias vii, 2-8; Hall, ii.
23. Ibid.; Glotz, 47; Evans, I, 28; CAH, I, 608.
24. Lippert, J., *Evalution of Culture*, N.Y., 1931, 171.
25. Glotz, 47-8.
26. These frescoes are all in the National Museum at Athens. They are reproduced in Rodenwoldt, G., *Kunts der Antike*, Berlin, 1927, 143f.
27. Schliemann, *Ilios*, 281-3.

29. National Museum, Athens; Evans III, 121; Rodenwaldt, 148-9.
30. Nat. Mus., Athens; Rodenwaldt, 152.
31. Evans, III, 188; Glotz, 388.
32. Gardiner, P., *New Chapters in Greek History*, N.Y., 1892, 178; Hvans, "Minoan and Mycenaean Element," 28; Mason, 327-8; Farnell, 97-8.
33. Schliemann, *Ilions*, 587.
34. Ludwig, 280. He was later financed by Kaiser Wilhelm II.
35. CAH, II, 489-90.
36. Schliemann, *Ilios* 453-505; *Enc. Brit.*, XXII, 502-3.
37. CAH, II, 488; Schliemann, *Ilios*, 123.
38. Bury, J.B., *History of Greece*. London, 1931, 46; CAH, II, 487.
39. *Iliad*, xx, 230f.
40. Herodotus, ii, 118; Strabo, xiii, 1.48.
41. Murray, G., *Rise of the Greek Epic*, Oxford, 1924, 49.
42. Ramsay, Sir—., *Asiatic Elements in Greek Civilization*, Yale U.P, 1928, 109.
43. Bérard, M., in Semple, 699; Murray, *Epic*. 38.
44. Schliemand, *Ilios*, 240, 253; Bury. 48; Glotz, 197, 217.

CHAPTER III

1. CAH, II, 276-83; Glotz, 90.
2. *Iliad*, ii, 681.
3. Ridgeway, Sir—m., *Early Age of Greece*, Cambridge U.P.,1901, 88-90, 337, 680, 682-4, etc.
4. CAH, II, 478; Hall, 248, 289.
5. Burry. 6; Glotz, 386-7.
6. Nilsson, 61.
7. *Odyssey*, xi, 588f; Diodorus, iv.77.
8. Thucydider, i, 1.8, ii, 6.15.
9. Diodorus, iv, 9.
10. One form of the legend tells how Heracles triumphed over fifty virgins in a single night.—Athenaeus, *Deipnosophists*. *Or Banquet of the Learned*, London, 1854, xiii, 4; Pausanias, ix, 27.
11. Diodorus, iv, 85, 53.
12. Ibid., iv, 57-8.
13. Ibid iv, 41-8.
14. CAH, II, 475, III, 662.
15. *Iliad*, ii, 683, iii, 75.
16. Ibid., xxiii, 198.
17. xxiv, 228.
18. xxix, 186.
19. xviii, 541, xxi, 257; Keller, AG., *Homeric Society*, N.Y., 1902, 78.
20. *Iliad*, v, 87-9.
21. Glotz, G., *Ancient Greece at Work*, N.Y., 1926, 36.
22. *Odyssey*, xx, 72.
23. Symour, T.D., *Life in the Homeric Age*, N.Y, 1907, 234, 209-10.
24. Glotz. *Ancient Greece*, 88; Ridgeway in Botsford, G.—., *Athenian Constitution*, N.Y., 1895, 82.
25. Ibid., 85; Pöhlmann, R. von, *Geschichte der sozialen Frage und des Sozialisnus in der antiken Welt*, München, 1925, 6, I, 29; Browne, H., *Handbook of Homeric Study*; London, 1908, 209; Seymour 235, 273; Burry 54.
26. *Iliad*, xxiii, 826.
27. Ibid., xxiii, 341.
28. Glotz, *Ancient Greece*, 45.
29. Ibid., 42; Calhoun. G.M., *Business Life of Ancient Athens*, Chicago, 1926, 13.
30. *Odyssey*, xv, 82f.
31. Ibid., vi, 115.
32. xiv, 202.
33. Aeschylus, *Agamemnon*, 281f.
34. *Iliad*, xix, 247.
35. Ibid., ii, 210f.
36. *Odyssey*, xxi, 224-5.
37. Ibid., iv, 184.
38. *Iliad*, ix, 74.
39. *Odyssey*, vi, 207.
40. Ibid., iv, 20; 267-8.
41. xv, 82f.
42. viii, 370f.
43. Gardiner, E.N., *Athletics of the Ancient World*, Oxford, 1930, 27; Mahaffy, J.P.. *Social Life in Greece*. N.Y., 1925, 51.

44. Gardiner, E.N., 21-3; *Iliad* xxiii, 166f.
45. Thucydides, i, 1.5.
46. *Odyssey*, viii, 158f.
47. Ibid., ix, 39f.
48. *Iliad*, x, 383.
49. *Odyssey*, xiii, 287-95.
50. Ibid., ii, 294, iv' 690, xiv, 138-141
51. Ibid., i, 87, viii, 14; *Iliad*, ii, 169
52. *Odyssey*, i, 57-9; *Iliad*, xx, 18
53. *Odyssey*, xvii, 280
54. Athenaeus, xiii, 2; Harrison, Jane, *Prolegomena to the study of Greek Religion*, Cambridge U.P., 1922, 260-2.
55. Athenaeus, xiii, 4
56. *Iliad*, xviii, 593
57. Ibid., xviii, 490
58. vi, 169
59. *Odyssey*, i, 153, 325, viii, 48-64, xxi, 406-8
60. Ibid., xxi, 46
61. *Iliad*, vi, 318-7
62. Ibid., i. 249
63. iii, 222
64. Murray, *Epic*, 129
65. Sumner, —.G., and Keller, A.G., *Sciedce of Society*, New Haven, 1928, I, 658
66. CAH, II, 478; Murray *Epic*, 174
67. Whibley, 30
68. Pliny, xxxvi, 64
69. Grote, I, 77
70. Plutarch, *De StoicorumRepugnantiis*, 82, in Bakewell, C.M., *Source Book in Ancient Philosophy*, N.Y., 1909, 278
71. *Iliad*, vi, 406
72. Ibid., viii, 542
73. CAH, III, 670
74. *Odyssey*, iv, 521
75. Butcher and Lang, *Odyssey*, N. Y., 1927, introd., xxiv
77. Seymour, 73
78. *Odyssey*, v, 151-8
79. Ibid., vi, 239
80. Nilssn, 4-5
81. *Oydssey*, xix, 177
82. Thucydides, i, 1.2
83. Herodotus, i, 68
84. Evans, IV, 477, 959
85. Pausanias, iii, 2.
86. Ridder, A. de, and Deonna, —., *Art in Greece*, N.Y., 1927, 167

CHAPTER IV

1. Plato, *Phaedrus*, 244; Frazer, *Magic Art*, N.Y., 1935, II, 358; Reinach, *Orpheus*, 98; CAH, II, 629
2. Grote, IV, 196
3. Mahaffy, J. P., *What Have the Greeks Done for Civilization ?* N.Y., 1909, II
4. Plato, *Timaeus*, 22-3
5. Herodotus, ii, 143
6. Ibid., ii, 53, 81, 123; Diodorus, i, 96; Harrison, *Prolegomena*, 574-5
7. Herodotus, ii, 109; Strabo, xvii, 3 : Diodorus, i, 69; Smith, G.E., 417-8; Rider, 7, 341.
8. Ibid.; Smith, 418-22; Warren, *Foundations*, 193-4
9. Glotz, *Ancient Greece*. 128; Day, C., *History of Commerce*, London, 1926, 14
10. Olmostead, A. T., *History of Assyria*, N.Y., 1923. 537
11. Herodotus, ii, 109
12. Grote, IV, 124
13. Heath, Sir Thos., *History of Greek Mathematics*, Oxford, 1921 I, 44, II, 21; CAH, IV, 539
14. Ridder, 240; Anderson, W. J. and Spiers, R.P., *Architecture of Greece and Rome*, London, 1902 49; Gardner, E. A., *Handbo Greek Sculpture* London, 1920, 51-2
15. Cook, A. B., *Zeus*, Cambridge U.P. 1914, 777.
16. Strabo, viii, 6; CAH, III, 540-2; Grote, III, 96
17. Herodotus, iii, 131
18. Gardner, E. A., *Handbook*, 365.
19. Pausanias, iv, 6-14
20. Strabo, vii, 5.4

21. Müller, K.O., in Rawlinson's Herodotus vii, 234n. The calculation is for 480 B.C., Meyer, Ed., *Geschichte des Alterthums*, Stuttgart, 1884f. III, §§ 263-4, gives the popûlation of Loconia ca. 470 as 12,-000 Spartans (4000 adult males), 80,000 Perioeci, and 190,000 Helots.
22. CAH, V, 7 .
23. Plutarch, *Spartan Institutions*, in *Lyra Graeca*, London, 1928, III, 287; Mahaffy, *Social Life*, 45; Cicero, in Cotterill, H.B., *History of Art*, N.Y., n.d., I, 61
24. Grote, IV, 264
25. *Greek Anthology*, ix, 488, in *Lyra Grveca*, I, 29
26. Grote, III, 195; Murray, Sir G., *History of Ancient Greeck Literature*, N.Y., 1927, 80
27. In Ridder, 106
28. Grote, III, 195
29. Mahaffy, J.P., *History of Classical Greeck Literature*, London, 1908, I, 189; Sacroix, Paul, *History of Prostitution*, N.Y., 1931, I, 149-50
30. Alcman, Frag. 36 in *Lyra Greaca*, I, 77
31. *Das Oxforder Buch Deutschen Dichtung*, Oxford, 1936, 117
32. Goethe, J. W. von, *Poetical Works* ... Cobb, N.Y., 1902, 61.
33. Glover, T.R., *Democrrcy in the Antient World*, Cambridge U.P. 1927, 84
34. Herodotus, I, 65
35. Aristotle, *Politics*, 1271b
36. Plutarch, "Lycurgus"
37. Ibid
38. Ibid.; Polybius, vi, 48
39. Thucydides, i; 6
40. E.g., Polybius, vi, 10
41. Plutarch, "Lycurgus"
42. Glotz, *Ancient Greece*, 88
43. Coulonges, Fustel de, *Ancient City*, Boston, 1901, 460
44. Plutarch, I.c.
45. Ibid., Grote, III, 148
46. Thucydides, iv, 14
47. Coulanges, 294; Glotz, G., *Greek City*, London, 1929, 300; Carroll, M., *Greek Women*, Phila., 1908, 136
48. Mahaffy. J. P., *Old Greek Education*. N.Y., n.d., 10
49. Hesiod, Callimachus, and Theognis, *Works*, tr. Banks and Frere, London, 1856, 441n.
50. Plutarch, l.c.; Grote, III, 157; Müller-Lyer, F., *Family*, N.Y., 1931, 45
51. Thucydides, i, 3
52. Nilsson, 94
53. Mahaffy, *Greek Education* 46
54. Plutarch, "Demetrius."
55. Xenophon, *Anabasis*, Loeb Library, iv, 6.15
56. Symonds, J.A., *Greek Poets*, London, 1920, 159
57. Becker, —., *Charicles*, London, 1886, 246, 297
58. Carroll, 138-40; Weigall, A., *Sapphoof Lesbos*, N.Y., 1932, 101
59. Plutarch, "Lycurgus"; Lippert, 301
60. Athenaeus, xiii, 2
61. — hibley, 613
62. Grote, III, 155-6; Sumner, —. G., *Folk-ways*, Boston, 1906, 351
63. Athenaeus, xiii, 2
64. Plutarch, "Numa and Lycurgus Compared."
65. Aristotle, *Politics*, 1270a; Grote, III, 158-7; Briffault, R., *Mothers*, N.Y., I, 399
66. Plutarch. "Lycurgus"; Glotz, *Ancient Greece*, 89
67. Athenaeus, xii, 74
68. Plutarch, l.c.
69. Grote, III, 131, IX, 298; Rawlisson's Herodotus, iii, 148
71. Grote, III, 132, 158
72. Plutarch, "Pelopidas."
73. E.g., Herodotus, I, 82
74. Ibid., vii, 104

75. Xenophon, "Constitution of the Lace daemonians," in *Minor Works*, London. 1914, i, I.
76. Pausanias, v, I.
77. Ibid., vii, 21
78. Frazer, Sir J., *Studies in Greek Scenery, Legend. and History*, London, 1931, 224-5
79. Pausanias, ii, I; Glotz, *Ancient Greece*, 116
80. Strabo, viii, 6.21
81. *Iliad*, ii, 570
82. Aristotle (?), *Economics*, Loeb Library ii, 2
83. Aristotle, *Politics*, 1315b
84. *Enc. Brit.*, XVI, 6:6. Others attribute the first Corinthian coinage to Cypse us; cf. CAH, III, 552
85. Glotz. *Greek City*, 113, *Ancient Greece*, 86; —eigall, *Sappho*, 46
86. Plutarch, *Moralia*, Loeb Library, 147D
87. Herodotus, iii, 50-3; Diogenes Laertius, *Lives and Opinions of the Eminent Philosophers*, London, 1853, "Periander."
88. Aristophanes, *The Eleven Comedies*, N.Y. 1908, *Frogs*, 138; Lacroix, I, 110
89. Pinadr, *Odes*, Loeb Library, Frag. 122
90. Strabo, viii, 6.20
91. Athenaeus, xiii, 32
92. Ibid., 33
93. St. Paul, I Cor. vi, 15-18
94. Semple, 569
95. Pausanias. vi, 17-19; Litchfield, F., *History of Furniture, Boston*, 1922, 13
96. CAH, III, 554
97. Glotz, *Greek City*, 113
98. Grote, III, 264-5
99. Theognis, 237, in Dickinson, G.L., *Greek View of Life* N.Y., 1928, 186
100. Theognis in Hesiod, Callimachus and Theognis, *Works*, 444-5
101. Ibid., II. 373f.
102. Ibid., II, 349f.
103. Symonds, 161
104. Botsford, G. —., and Sihler, E.G., *Hellenic Civilzation*, N.Y., 1920, 198-9; Coulanges, 369
105. Symonds, 162
106. Theognis in Hesiod, etc., 442
107. Ibid., 470-1, 447-8, 489-90
108. 479-81
109. 477, 491-2
110. 454-5
111. Ringeway, 31
112. Calhoun, 30-1; Semple, 669
113. Pausanias, ii, 26
114. Pindar. Pythian iii, 47-58
115. Gardner, E.A., *Ancient Athens*, N.Y., 1902, 481

CHAPTER V

1. Stabo, viii, 6 21; ix, 2.25
2. Pausanias. ix, 31
3. Mahaffy, *Greek Literature* I, 117
4. *Enc Brit.*, XI, 529
5. Hesiod, *Works and Days*, 640
6. Ibid., 655
7. Gardiner. E.N., *Athletics*, 30
8. Pausanias, ix, 31; cf. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 125; CAH, IV, 474; Grote, I, 12
9. Hesiod, *Theogony*, 1-6
10. 120f
11. Nilsson, 185-6
12. *Theogony*, 166f
13. Ibid., 735f
14. *Works and Days*, 255
15. Ibid., 286f
16. 504f
17. 54f
18. *Theogony*, 585f
19. *Works and Days* 695f
20. Ibid, 109f
21. Mahaffy, *Social Life*, 72
22. Mahaffy, *Greek Literature*, 54
23. Diodorus, xvi, 28; Frazer, *Studies*, 374-5
24. Pope, A., *Essay on Man*
25. Bury, 25; CAH, III, 619. Others (Murray, *Epic*, 43, and *Enc. Brit*, XII, 575) derive the Graii from Epirus

26. Cicero, *De Fato*, 7.
27. Baedeker, xxvii; Zimmern, A., *Greek Commonwealth*, Oxford,
28. Hippocrates, *Works*, Loeb Library, In troductory Essay I to Vol. II, by W. H. S. Jones; cf Jones, W. H. S., *Malaria and Greek History*, Manchester U.P., 1909.
29. Isocrates, *Works*, Loeb Library, *Panegyricus*, 24
30. Ridder, 122
31. Grote, III, 270-4; Vinogradoff, Paul, *Outlines of Historical Jurisprudeyce*, Oxford, 1922, II, 85-6
32. Frazer, *Studies*, 58-9
33. Aristophanes, I, 196, editor's note.
34. Baedeker, 104
35. CAH, III, 579-80
36. Aristotle, *Constitution of Athens*, London, 1891, sect. 57; Grote, III, 290; Coulanges, 331
37. Meyer, Ed., in Zimmern, 396
38. Aristotle, *Constitution*, 2 says that these "sixth-shares" paid one-sixth of their product to the owner, and Plutarch ("Solon") follows him; but recent scholarship inclines to believe that the sixth part was the amount kept, not paid. Cf. Bury, 174; Glotz, *Greek City*, 102.
39. Botsford, *Athenian Constitution*, 141.
40. Aristotle, *Constitution*, 2.
41. Glotz, *Ancient Greece*, 61, 80, *Greek City*, 102
42. Glotz, *Ancient Greece*, 71
43. CAH, IV, 33
44. Ibid
45. Grote, III, 293-4; Coulanges, 418
46. Plutarch, "Solon."
47. Botsford, *Constitution*, 143
48. Pöhlmann, 158; Glotz, *Ancient Greece*, 71.
49. Glotz, *Greek City*, 119
50. Plutarch, *Amatorius*, 751c, in Linforth, I.M., *Solon the Athenian*, Berkeley, Cal., 1919, 156-7
51. Diog. L., "Solon," ii.
52. Plutarch. "Solon."
53. Diog. L, "Solon," ix.
54. Aristotle, *Constitution*, 5; Grote, III, 318; Botsford, 158
55. Aristotle, 6, 12
56. CAH, IV, 38.
57. Aristotle, 6
58. Plutarch, "Solon"
59. Grote, III, 319
60. Aristotle, 10
61. Plutarch, I c.
62. Grote, III, 316; Mahaffy, *What Have the Greeks Done for Civilizotion?*, 186
63. CAH, IV, 134; Bury, 183
64. Plutarch, l.c.
65. Aristotle, 12; Grote, III, 331-2.
66. Plutarch, l.c.
67. Ibid., Aristotle, 9
68. Coulanges, 420; CAH, IV, 42; Grote, II, 350
69. Plutarch, l.c.
70. Diog L., "Solon," vii
71. Athenaeus, xiii, 25; Lacroix, I, 68-70; Bebel, A., *Woman under Socialism*, N.Y., 1928, 35
72. Plutarch, l.c.; Grote, III, 351; Tucker, T.G., *Life in Ancient Athens*, Chautauqua, N.Y., 1917, 159
73. Plutarch
74. Ibid
75. Diog. L., "Solon," xvi
76. Grote, III, 344
77. Diog. L, l.c.
78. *Enc. Brit.*, XX, 955
79. Herodtus, i, 29
80. Plato, *Amatores*, 133, in Linforth, 130
81. Herodotus, i, 30
82. Plutarch, l.c.
83. Diog. L., "Solon," iii
84. Diodorus, ix, 20
85. Herodotus, i, 60; Athenaeus, xiii, 89
86. Aristotle, *Constitution*, 16
87. Glotz, *Greek City*, 121
88. Calhoun, 29
89. Aristotle, *Politics*, 1310a

90. Thucydides, vi, 19.
91. Athenaeus,xiii, 70; Lacroix, I,153
92. Aristotle, *Politics* 1300b

CHAPTER VI

1. Pater, W., *Plato and Platonism*, London, 1910, 246.
2. Thucydides, i, I.
3. CAH. Strabo, x, 5.6; Plutarch, *Moralia* Loeb Library, 249D.
5. *Lyra Graeca* II, 639
6. Aristophanes, *Peace*, 695
7. Cicero, *De Oratione*, II, 86, in *Lyra Groeca*, II, 306
8. *Lyra Greaca*, II, 257
9. Ibid., III, 297, 339; tr. J.A. Symonds, *Grrek Poets*, 155, 167
10. Cicero, *De Natura Deorum*, Loeb Library, i, 22
11. Thucydides, iii, 109
12. Glotz, *Ancient Greece*, 113
13. Botsford and Sihler, 188
14. Carroll, 99
15. CAH, IV, 483
16. Symonds, 169
17. Herodotus, iii, 57
18. Ovid, *Metamorphoses*, Loeb Library, x, 243
19. Herodotus, I, 142
20. Ibid., I, 146
21. Ibid., i, 170; Diog. L., "Tales."
22. Aristotle, *Poetics*, Loeb Library, 1259a
23. Diog. L., "Thales," iii-viii; Plutarch, "Solon."
24. Heath, *Greek Mathematics*, I, 130; Ueberweg, F., *History of Philosophy*, N.Y., 1871, I, 34-5 Heath, I, 137; Herodotus, i, 74
26. Aristotle, *Metaphysics*, tr. M' Mahon, London, 1857, i, 3
27. Ibid
28. Diog. L., "Tales," iii
29. Ibid., "Thales," viii
30. Ibid
31. Ibid., "Thales." xii
32. Starbo, xiv, 4.7
33. Spencer, *First Principles of a New System of Philosophy*, N.Y., 1910, 367.
34. Bakewell, 5
35. Heath, II, 38; Grote, V, 94
36. Bakewell, 6.
37. Aristotle, *Metaphysics*, i, 3 Bakewell, 7; CAH IV, 554
38. Athenaeus, xii, 26xiii, 29, xiv 20
39. Ibid, xii, 26
40. Diog. L., "Bias," i-iv
41. CAH, IV, 92-3
42. Herodotus, ii, 134
43. Plutarch, *Moralia*, 16C
44. Leslie, Shane, *Greew Anthology*, N.Y., 1929, x, 123
45. Pfuhl, Ernst, *Masterpieces of Greek Drawing and Painting*, London, 1926 Fig. 79
46. Sarton, Geo., *Introduction to the History of Science*, Baltimore, 1930, I, 75
47. Pausanias, viii, 14; Glotz, *Ancient Greece*, 132; Jones, H. Stuart, *Ancieut Writings on Greek Sculpture*, London, 1895, 24-5
48. Ridder, 174
49. Pliny, xxxv, 46
50. Ibid., xxxvi, 21
51. Athenaeus, xii, 29
52. Carroll, 102
53. Frag. 78 in *Herodes, Cercidas, and the Greek Choliambic Poets*, Loeb Library, 55
54. Diog. L. in Heracleitus, *On the Universe*, Loeb Library, 464
55. Cf. Mahaffy, *What Have the Greek ?*, 219
56. Bakewell, 33.
57. Nietzsche, F., *Early Greek Philosophy*, N.Y. 1911, 103-4
58. Diog. L., "Heracleitus," v.
59. Strabo, xiv, 1,28; Weigall, *Sappho*, 155; Webster's *Dictionary*, s.v. *colophon*.
60. Weigall, 186; Symonds, 150
61. Tr. in Harrison, *Prolegomena*, 178
62. *Lyra Graeca*, III, 636, II, 126 131
63. Athenaeus, x, 33
64. *Lyra Graeca*, II, 125, 139
65. Ibid., 145, frag. 15
66. *Greek (Palatine) Anthology*, vii24
67. Diodorus, xx, 84

68. Herodotus, viii, 105; Glotz, *Ancient Greece*, 85
69. Athenaeus, vi, 88-90; Ward, C. O., *Ancient Lowly*, Chicago, 1907. I, 123f
70. Eratosthenes in Grote, II, 159
71. *Lyra Graece*, I, 333; Athenaeus, xiv, 23
72. Tr. by Symonds, 197
73. Stobaeus, *Antholoy*, xxix, 58, in *Lyra Graeca*, I, 141
74. *Greek Anthology*, in, 506
75. Strabo, xiii, 2.3
76. Ovid. *Heroides*, Loeb Library, xv, 81; scholiast on Lucian,. *Imag*, 18, in *Lyra Graeca*, I, 160
77. Weigall, *Sappho*, 76
78. Ibid., 175
79. Symonds, 196
80. Weigall, 86
81. *Lyra Graeca* I, 437
82. Athenaeus, xii, 69
84. Donginus, *On the Sublime*, Loeb Library, ix, 15
85. *Berliner Klrssikertexte*, p. 9722, in *Lyra Graeca*, I, 289
86. Murray, *Greek Literature*, 92; Weigall 173, 90; Robinson, D.M. *Sappho and Her Influence*, Boston, 1924, 58
87. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 202
88. Weigall, 321
89. Suidas, *Lexicon*, S.v.. *Phaon*, in *Lyra Graeca*, I, 153; Strabo, x, 2.8
90. Ovid, *Heroides*, xv
91. Oxyrhynchue Papyrus 1231, in Weigall, 291
92. *Lyra Graeca*, I, 435
93. Athenaeus, xiii, 89
94. Strabo, xii, 3.11
95. Ramsay, *Asianic Elements*, 118
96. Diodorus, iv, 49
97. Polybius, iv, 88
98. Semple, 72-3, 214
99. Murray, *Greek Literature*, 86

CHAPTER VII

1. Pausanias, iii, 23
2. Ludwig, 266; Cook, *Zeus*, 776
3. Schliemam, *Ilios*, 41
4. Strabo, x, 2.9
5. *Journal of Hellenic Studies*, LVI, 170-89, London 1682f.
6. Grote, IV, 150-1
7. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 97-8; *J.H. Studies*, LV, 138
8. Randall-MacIver, D., *Greek Cities in Italy and Sicily*, Oxford, 1931, 75; CAH, III, 676
9. Diodorus, iii, 9
10. Athenaeus, xii, 20
11. Ibid., xii, 15, 17
12. Ibid, 58
13. Herodotus, vi, 127
15. Grote, IV, 168
16. Athenaeus, xii, 19
17. Diog. L., "Pythagoras," ix
18. *Enc. Brit.*, XVIII, 802
19. Diog. L., "i-iii, xvii; Heath, *Greek Math.*, 1, 4
20. Cicero, *De Finibus*, Loeb Library, v, 29, 87; Diodorus, i, 98
21. Cicero, *Tusculan Disputations*, Loeb Library, ii, 15
22. Carroll, 299, 307, 310
23. Diog. L., "Pythagoras," viii.
24. Ibid., "Pythagoras," xix, xviii; Grote, V, 103
25. Diog. L., "Pythagoras," xix
26. Ibid., "Pyth.," xviii
27. Grote, V, 100-1
28. Diog. L, "Pyth," xxii; Cook, *Zeus*, 1
29. Diog. "Pyth., viii
30. Heath, 1, 10
31. Proclus, in Heath, 1, 141.
32. Diog. L., "Pyth.," xi
33. Whibley, 229
34. Heath, 1, 70, 85, 145
35. Whewell, W., *History of the Inductive Sciences*, N.Y., 1859, 1, 105; *Oxford History of Music* Oxford U.P., 1929, Introductory Volume, 3
36. Aristotle, *Works*, ed. Smith and Ross, Oxford, 1931, *De Coelo*, ii, 9; *Metaphysics*, i, 5; *Oxford History of Music*, 27; Heath, 1, 165, 11, 107.

37. Heath, II, 65, 119; Berry, A., *Short History of Astronomy*, N. Y., 1909, 24
38. Diog. L., "Pyth.," xxv.
39. Ibid., 9, Introd., xviii.
40. Livingstone, R. W., *Legacy of Greece*, Oxford, 1924, 59
41. Diog. L., "Pyth ," xix
42. Ibid
43. Rohde, Erwin, *Psyche*, N. Y., 1925, 375; Pater, *Plato*. 54
44. *Greek Anthology*, vii, 120
45. Aristotle, *Nicomachem Ethics*, v, 8
46. Diog. L , "pyth.," xxi
47. Grote, IV, 154-8 ; CAH, IV, 115-6
48. Frag. 24 in Mhibley, 89
49. Heath, II, 52 ; Mahaffy, *Greek Lit.*, I, 138
50. Frags.14-5,5-7,1-3, in Bakwell, 8
52. Diog. L., "Xenophanes," iii
53. Frags. 9-10
54. Bakewell, 10-11
55. Warren, *Foundations*, 241 : but Koldewey (ibid.) places it about 450
56. Randall-MacIver, 9-10
57. Child, V.G., *Dawn of European Civilization*, N.Y. 1925, 93-100
58. Thucydides, vi, 18 ; Diodorus, v, 2
59. Grote, IV, 149
60. Freeman, E.A., *Story of Sicily*, N.Y., 1892, 65
61. Ibid
62 Polybius, xii, 25
63. Ibid., Ix, 27
64. Ibid., v, 2
65. Herodotus, vii, 156
66. Lucian, *Works*, tr. H. W. and F.G. Fowler, Oxford, 1905, Hermotimus," 34
67. Glotz, *Ancient Greece*, 116 ; Draper, J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, N.Y., 1876, I, 52

CHAPTER VIII

1. CAH, II, 610
2. Cf. Sophocles, *Oedipus at Colonus*, 1470 ; Cook, *Zeus*, *passim*
3. *Iliad*, iii, 277
4. Frazer, *Magic Art*, I, 315
5. Murray, G. *Five Stages of Greek Religion*, Oxford U.p., 1930, 50
6. Nilsson, 91; Farnell, *Greece and Babylon*, 228
7. Nillson, 91-2; Heracleitus in Bakewell, 29
8. Murray, G. *Aristophanes : A Study*, N.Y., 1933, 6
9. Harrisont Jane, *Prolegomenat*, 298; Glotz, *Aegean Civilization*, 391-2; Briffault, *Mothers*, III, 145
10. Murray, *Five Stages*, 35-6; Reinach, S., *Orpheus* 86 ; Frazer Sir J., *Spirits of the Corn and of Wild*, N.Y., 1935, I, 4
11. Whibley, 387
12. Murray, *Five Stages*, 31
13. ibid., 29, 33; Harrison, *Prolegomenat*, PP. viii and 28
15. Harrison, 18
16. Rodenwaldt, 315
17. Sophocles, *Philoctetes*, 1327-9 ; Harrison, 297f
18. Ibid., 325
19. Rohde, 159
20. Nilson, 123
21. Rohde, 297
22. Ibid., 172
23. Seymour, 98; *Odyssey*, i, 56f ; *Iliad*, iv, 14f
24. Ibid., viii, 17-27
25. Semple, 529
26. *Iliad*, xvi, 651f
27. Hesiod, *Theogony*, 887f
28. *Iliad*, xv, 17
29. Frazer, *Magic Art*, I, 14-15
30. *Iliad*, viii, 380f
31. Ibid., xx, 46, xxi, 406
32. Smith, Wm, *Dictionary of Greek and Roman Antiquities*, Boston, 1859, 603
33. CAH, II, 637 ; Glotz, *Ancient Greece*, 112 ; Blakeney, M.A., ed., *Smaller Classical Dictionary*, Everyman Library, 258

34. CAH, l.c.
35. Diodorus, iv, 6
36. Athenaeus, xii, 80
37. Gardner, P., *New Chapters*, 157
38. Frazer, Sir J., *Adonis, Attis, Osiris*, N.Y., 1935,226; Gardner, *New Chapters*, 157
39. Semple, 43-4
40. In Symonds, 204
41. Diodorus, iii 62
42. Herodotus, ii, 49-57
43. Nilsson, 86; CAH, IV, 527
44. Ibid., 535
45. Rohde, 220; Gardner, *New Chapters*, 385
46. Diodorus, iv, 25
47. Harrison, *Prolegomenat*, 465
48. Reinach, 88; CAH, IV, 586-8; Harrison, 482; Murray, *Greek Literature*, 65; Carpenter, Edw., *Pagan and Christain Creeds*, N.Y, 1920, 64
49. Harrison, p. xi.
50. Ibid., 588; Nilsson, 221, Rohde, 344
51. Plato, *Republic*, ii, 364-5
52. Harrison, 572
53. Whibley, 402
54. Nilsson, 247
55. Symonds, 495
56. Dickinson, G.I., *Greek View of Life*, N.Y., 1928, I
57. Grote, II, 101-2
58. Coulanges, 228
59. Xenophon, Anabasis, v, 3-4
60. *Iliad*, xxi, 27, xxiii, 22, 175
61. Pausanias, iv, 9, vii, 19, CAH, II, 621
62. Pausanas, iii, 16, Plutarch, "Lycurgus", Nilsson, 94
63. CAH, II, 618, Grote, I, 111
64. Frazer, Sir J., *Scapegoat*, N.Y., 1935, 253, Harrison, 107
65. Aristophanes, *Frogs*, 734, and scholiast; Rohde, 296; Harrison, 103; Nilsson, 87, Frazer, *Scape-oat*, 253
66. Harrison, 108
67. Murray, G., *Epic*, 12-13, 317, Harrison, 103
68. Plutarch, "Pelopidas."
69. Hesiod, *Theogony*, 557f
70. *Odyssey*, iii 338-41, CAH, II, 626
71. Farnell, 237
72. Harrison, 501
73. Diodorus, iii, 66
74. Grote, I, 145-6
75. Harrison, 167
76. Nilsson, 82-3, Rohde, 163
77. Coulanges, 213, Rohde, 295-6
78. Nilsson, 83
79. Ibid., 85
80. Theophrastus, *Characters*, Loeb Library, xvi
81. Plutareh, "Solon"
82. Sophocles, *Trachinian Women*, 584, Lacroix, I, 117, Becker, 381
83. Plato, *Laws*, 933, Harrison, 139
84. Herodotus, ix, 95
85. Coulanges, 291
86. Carroll, 270, Rohde, 292
87. Coulanges, 289
88. Grote, III, 38-9, Benson, E. F., *Life of Alcibiades*, N.Y., 1929, 83
89. Herodotus, v, 63, vi, 66, Grote, V, 431
90. Ibid., III, 127
91. CAH, III, 627-8
92. Ibid., 604
93. In Coulanges, 288
94. Harrison, 121, Frazer, *Spirits of the Corn*, II, 17
95. Harrison, 32
96. Frazer, *Spirits of the Corn*, I, 30
97. Rohde, 239

CHAPTER IX

1. Herodotus, viii, 144
2. Mahaffy, *Greek Literature*, IV,24
3. *Enc. Brit.*, I, 681
4. Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 344
5. Mahaffy, *Old Greek Education*, 49, Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, Oxford, 1912, 58
6. Pliny, xiii, 11
7. Shortwell, J. T., *Introduction to the History of Histoy*, N.Y., 1936, 30, Becker, 162n

8. Thompson, 39, 43; Mahaffy, l.c., 51
9. Becker, 274
10. Showell, 32
11. Mahaffy, *Greek Literature*, 1, 25-8
12. Grote, II, 245; Murry, *Epic*, 238
13. Diog. L., "Solon," ix
14. Grote, II, 245; Murray, *Epic*, 147
15. Ibid., 258.
16. *Iliad*, xxii, 106-13, tr. G. Murray
17. Ramsay, *Asianic Elements*, 289
18. *Iliad*, i, 477, etc
19. Ibid. ii, 469-78
20. Ibid., xx, 490, tr. Bryant
21. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 35, 81. Aristarchus of Samothrace wrote ca. 180 B.C.
22. Browne, 92
23. Glotz, *Aegean Civilzation*, 393; Ward, I, 41; Grote, II, 306-7
24. Briffault, *Mothers*, I, 411
25. *Odyssey*, iv, 120-86
26. Herodotus, ii, 53
27. Curtius, Ernst, *Griechischte*, Berlin, 1887f, I, 126, in Robertson, J.M., *Short*, *History of Free Thought*, London, 1914, I, 127; Mahaffy, *Social Life*, 352; Murray, *Epic*, 267
27a. Symonds, 187
28. *Odyssey*, viii, 146
29. Rodenwaldt, 233
30. Gardinder, *Athletics*, 230
31. Mahaffy, *Greek Education*, 18
32. Gardiner, *Athletics*, 234
33. Tucker, 222
34. In Zimmern, 316
35. Pausanias, 316
36. Ibid., I, 44
37. Gardiner, *New Chapters*, 291
38. Ibid., 294
39. Ibid., 294
40. Gardiner, *Athletics*, 212f
41. Pausanias, vi, 4
42. Ibid., viii, 40
43. Ibid., vi, 14
44. Herodotus, iii, 106
45. Pausanias, vi, 13
46. Herodotus, viii, 26
47. Grote, III, 352-3
48. Athenaeus, x, I; Gardiner, *Athletics*, 54-5
49. Ferguson, W.M., *Greek Imperialism*, Boston, 1913, 58-9; Haigh, A.E., *Attic Théatre*, Oxford, 1907, 3
50. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, Boston, 1880, II, 288
51. Athenaeus, xiii, 90
52a. Ibid
53. Richter G., *Handbook of the Classical Collection*, Metropolitan Museum of Art, N.Y., 1922, 76
54. Rodenwaldt, 234
55. Ridder, 171
56. Pfuhl, 38
57. Ridder, 181; Murray, A. S., *Greek Sculpture*, I, 11
58. Rodenwaldt, 247
59. Cf. Pijoan, J., *History of Art*, N.Y., 1927, I, figs. 351-2
60. Ibid., p. 229
61. Pliny, xxxv, 151
62. Cotterill, H. B., *History of Art*, N.Y., 1922, 99-100
63. Anderson and Spiers, 42; CAH, IV, 603-8
64. Livingstone, *Legacy of Greece* 412; Wasen, 277-80; Smith, G.E., 422; CAH, IV, 99
65. Polybius, iv, 20-1; Athenaeus, xiv, 22
66. Lacroix, I, 122
67. Pratt, W.S., *History of Music*, N.Y., 1927, 58
68. Pausanias, x, 7
69. Mahaffy, *Social Life*, 456
70. Diodorus, iii, 67
71. *Lyra Graeca*, III, 582
72. Strabo, x, 3.17
73. *Oxford History of Music*, 8
74. Ibid., Pratt, 55; Mahaffy, *What Have the Greeks?*, 143;id., *Socioi Life*, 463-5
75. Aristotle, *Polities*, 1342b.
76. Athenaeus, xiv, 18
77. Ibid., 10; *Lyra Graeca*, II, 498; Symonds, 180; Glotz, *Ancient Greece*, 279

78. *Oxford History of Music*, I, 80
79. Haigh, 311
80. Lucian, "Of Pantomime."
81. Ibid
82. In Kirstein, L., *Dance*, N.Y.,
83. Athenaeus, I, 37
84. Kirstein, 28-30
85. Ibid., 30
86. Athenaeus, xiv, 12, 32
87. *Lyra Graeca*, III, 630
88. Lucian, l.c.
89. Mahaffy, *Social Life*, 464-5
90. Athenaeus, xiv, 17
91. Aristotle, *Poetics*, iv; Murray, *Aristophanes*, 3
92. *Enc. Brit.*, VII, 582
93. Aristotle, *Politics*, 1336b
94. Murray, l c.; id., *Greek Literature*, 212; Haigh, 292; Sumner, W.G., *Folkways*, 447
95. Aristophanes, *Eleven Comedies*, I; 327 and editor's note; Kirstein, 38
96. *Enc. Brit.*, VII, 584
97. Aristotle, *Poetics*, v, 3
98. CAH, V, 117
99. Aristotle, *Poetics*, iv, 17
100. Ridgeway in Harrison, 76; Sumner and Keller, III, 2109
101. *Enc. Brit.*, VII, 582
102. Ibid., 588
103. Athenaeus, i, 39
104. Diog. L., 28, "Solon," xi

CHAPTER X

1. Herodotus, vi, 98
2. Grote, V, 16
3. Ibid., 22
4. Herod., vi, 102
5. Rawlinson, app. to Herod., vI; Grote, V, 58; Pausanias, x 20
6. Plutarch, "Aristides."
8. Herod., vi, 132-6
9. Plutarch, l.c.
10. Ibid
11. Ibid
12. Thucydides, i, 5. 138
13. Plutarch, "Themistocles."
14. Plutarch, "Aristides."
15. Herod., vii, 133-7
16. Ibid., 184-6, 196
17. Ibid., 146
18. Ibid., 33-6
19. Ibid., 56
20. Athenaeus, iv, 27; Herod., vii 118-9
21. Ibid., viii, 4-6
22. vii, 231-2
23. viii, 24
24. *Greek Anthology*, vii, 249; Strabo, ix, 4, 12-16
25. Plutarch, "Themistocles."
26. Mahaffy, *Social Life*, 223. Mahaffy considers the story a legend, but no lover of dogs will doubt it
27. Herod., ix, 4-5
28. Ibid., viii, 89
29. Grote, V, 316f, and Freeman, 77. believe that the two actions were concerted; CAH, IV, 378,
30. Grote, V, 319-20
31. Herod., ix, 70
32. Rawlinson, note to Herod., l.c.

CHAPTER XI

1. Shelley, P.B., "On the Manners of the Ancients," quoted by Livingstone, *Legacy*, 251
2. Herod., viii, 111-12
3. *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, Oxford, 1938, 534; Plutarch, "Themistocles."
4. Plutarch, "Aristides."
5. Thucydides, i, 5
6. Grote, VI, 6-7
7. Aristotle, *Constitution*, 24
8. Ibid., 41
9. Plutarch, "Pericles"; Grote, VII 16; CAH, V, 72
10. Plutarch, l.c.
11. Ibid
12. Ibid
13. Glotz, *Greek City*, 241
14. Plato, *Gorgias* 515; Aristotle *Constitution*, 27; Plutarch, l.c.
15. CAH, V, 100; Glotz, 210
16. Glotz, 181
17. Plutarch, l.c.

18. Ibid
19. Plato, *Phaedrus*, 270
20. Plutarch, l.c.
21. Carroll 197
22. Aristophanes. *Acharnians*, 514f; Athenaeus, xiii, 25-6
23. Lacroix, I, 154; Carrol, 200
24. Plato, *Menexenus*, 236; Carroll, 311; Benson, 58
25. Lacroix, I, 156
26. Plutarch, l.c.
27. Plato, l.c.; Benson, 57-8
28. Plutarch, l.c.
29. Benson, 58
30. Plutarch
31. Plato, *Teaetetus*, 79, *Republic*, ii, 8, *Laws*, ix, 3; Thucydides, iii, 52; Mahaffy, *Social Life*, 178-9; Grote, VI, 305-6
32. Botsford, 222
33. Glotz, *Greek City*, 156, Carroll, 442
34. Tuker, 251-2
35. Isocrates, *Antidosis*, 320
36. Coulanges, 248
37. Tylor, E.B., *Anthropology*, N.Y., 1906, 217
38. Vinogradoff, II, 61-2
39. Aristotle, *Constitution*, 57
40. Glotz, *Greek City*, 286
41. Glotz, *Ancient Greece*, 153
42. Botsford, 53-4
43. Glotz, *Ancient City*, 297
44. Cf. Aristotle's will in Diog. L., 185, "Aristoie," ix
45. Xenophon, *Memorabilia*, tr. Watson, Phila 1899, x, 2.9
46. Murray, *Greek Literature*, 328
47. Glotz, *Antcient Greece*, 281
48. Tucker, 263
49. Isocrates, *Antidosis*, 79
50. *Enc Brit.*, X, 829
51. Glotz, *Ancient Greece*, 316
52. Glotz, *Greek City*, 263
53. Herod., v, 77; Aristotle, *Ethics* v, 7
54. Glotz, *Greek City*, 220
55. Zimmern, 290; Ferguson, 69
56. CAH, V, 29; Grote, II, 65-7
57. Thucydides, ii, 6
58. *Lyra Graeca*, II, 337

CHAPTER XII

1. Xenophon, *Economicus*, iv-vi, in *Minor Works*
2. Ibid., xviii, 2
3. Semple, 407, 414, 421
4. Pausanias, ii, 38
5. Zimmern, 52-4
6. Aristophanes, II, 245; Athenaeus, vii 43, 50f
7. Ibid., vix, 51
8. Xenophon, *Memorabilia*, ii, 1
9. Hippocrates, "Regimen in Acute Diseases," xxviiif
10. Aeschylus, *Persian Women*, 288
11. Aristotle, *Constitution*, 47; Baedeker, 123
12. CAH, V, 16
13. Rickard, T.A., *Man and Mitals*, N.Y., 1932, I, 376; Calhoum, 142-3
14. Ibid, 154-6
15. Glotz, *Ancient Greece*, 225
16. Semple, 678-9
17. Ibid., 668
18. Glotz, 205
19. Vitruvius, *On Arhitecture*, Loeb Library, ii, 6.3
20. Aeschylus, *Agamemnon*, 278f; Horod., ix, 3; Thucydides, viii, 26
21. Aristophanes, *Frogs*, in *Eleven Comedies*, II, 194
22. Plato, *Grogias*, 511
23. Glotz, 294
24. Ibid, 233
25. In Zimmern, 307
26. Lucian, "Nigrinus," 1
27. CAH, V, 22
28. Zimmern, 218; CAH, V, 8
29. Zimmern, 283
30. Isocrates, *Panegyricus*, 42
31. Thucydides, ii, 6
32. Xenophon, *Economicus*, iv, 2
33. Glotz, 218
34. Gomme, A W., *Population of Athens in the 5th and 4th Centuries B.C.*, Oxford, 1933, 21
35. Athenaeus, vi, 103; Becker, 361
36. Semple, 667; Glotz, 192-3
37. Ibid., 208

38. Aeschines, Epistle 12, in Becker, CAH, V, 8
39. In Bostford and Sihler, 225
40. Glotz, 196
41. Dickinson, 119; Ward, I, 39
42. CAH, VI, 529-30
43. Aristotle, *Ethics*, viii, 13
44. Murray, *Epic*, 16; CAH, VI, 529
54. CAH, V, 25
64. Aristophanes, *Ecclesiazucae*, 307
74. Warld, I, 98
48. CAH, V, 12,25
49. Glotz, 237
50. Ibib, 286
51. Toutain J., *Economic Life of the Ancient World* N.Y., 1930; Introduction by Henri Berr, p. xxiii
52. CAH, V, 32
53. Semple, 425
54. Glotz, 168
55. Tucker, 251
56. Coulanges, 451
57. Ward, I, 42
58. Glotz, 148
59. Ward, I, 88, II, 48, 76, 263, 342
60. Hall, M.P., *Encyclopedic Outline of Masonic, Hermetic, Oabbalistic and Rosicrucian SymbolicalPhilosophy*, San Francisco, 1928, 64
61. Aristophanes, II, 371f
62. Ibid 440f
63. Tuucydides, viii, 24
64. Ibid., iii, 10, slightly transposed
65. Aristotle (?), *Economics*, iii, 15
66. Glotz, 296
67. Idid., 298
68. Ibid., 298; Lysias, *Against the Grain-Dealers*, xxii, in Botsford and Sihler, 426; Semple, 365, 663; Zimmern, 362
69. Glotz, 169

CHAPTER XIII

1. Plato, *Republic*, 459f
2. Aristotle, *Politics*, 1335
3. Haggard, H. W., *Devils, Drugs, and Doctors*, N.Y., 1929. 19
4. Himes 82. 96. *Coitus interruptus* was adparaently a popular method of family limitation through antiquity.
5. Athenaens, xiv, 3
6. Plutarch, "Themistocles," *Moralia*, 185D
7. *Greek Anthology*, vii, 387
8. McCless, H., *Daily Life of the Greeksand, Romans*, N.Y., 1928, 41; Metropholitan Museum of Art
9. Ibid., 41; Becker, 223; Mahaffy, *Greek Education*, 16, 19; Weigall, *Sappho*, 200
10. Plato, *Laws*, vii, 84
11. Plato, *Protagoras*, 326
12. Mahaffy, op. cit., 39
13. Becker, 224
14. Winckelmann, II, 296
15. Plato, *Protagoras*, 325
16. Aristotle, *Constitution*, 42
17. Gardner, *Ancient Athens*, 483; Mahaffy, op. cit., 76
18. Lycurgus, *Against Leocrates*, 75-89, in Botsford; and Sihler, 478. On its aubtenticity cf. Mahaffy, op. cit., 71
19. Diog. L., "Aristotle," xi
20. Tucker, 173; Weigall, 184
21. Plutarch, *Moralia*, 249B
22. CAH, II, 22-3
23. Becker 456,
24. Carroll, 172
25. Tucker, 125-7
26. Ibid
27. Plutarch, *Moralia*, 228B; *Atheneus* xv, 34
28. Weigall, 189, 206-7; Carroll, 178
29. Eubulus, *Flower Girls*, in Tucker, 173-4, and Lacroix, I, 101-2
30. Weigall, 187
31. Athenaeus, xv, 45
32. Glotz, 278
33. Wright, F. A., *History of Later, Greek Literature*, N. Y., 1932, 19
34. Zimmern, 215
35. Tucker, 120
36. Caulanges, 294
37. *Greek Anthology*, x, 125
38. Voltaire, *Works*, N.Y., 1927, IV, 71

39. Thucydides, ii, 6; Mahaffy, *Social Life*, 295; Hobhouse, L. Y., *Morals in Evolution*, N.Y., 1916, 347; Glotz, *Greek City*, 131
40. Vinogradoff, II, 54-5
40a. Aristotle, in Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, N.Y., 1927, 102
41. Glotz, *Ancient Greece*, 290; Becker, 280; Tucker, 150
42. Ibid., 123
43. Grote, V, 53
44. Thucydides, ii, 10.82
45. Pausanias, vii, 9-10; Plutarch, Artaxerxes II."
46. Xenophon, *Cyropaedia*, Loeb Library, i, 6.27
47. Thucydides, i, 3.76
48. Ibid., v, 17
49. Ibid., iii, 9.34
50. Ibid., v, 32.116; vi, 20.95; Polybins, iii, 86; Couldangel, 275
51. Thucydides, ii, 7:67.
52. Plutarch, "Alcibiades."
58. Plato, *Laws*, viii, 881
54. Herod., v, 78
58. Aristophanes, *Eccl.*, 720; Becker, 241
59. Ibid., 243
61. Demosthenes, *Against Neaera*; Becker, 244
62. Lacroix, I, 124, 129
63. Ibid., 112
64. Ibid., 85
65. Briffault, II, 340
66. Mahaffy, *Greek Life and Thought*, London, 1887, 72
67, Lacroix, I, 88
68. CAH, V, 175
69. Lacroix, I, 166
70. Ibid., 162
71. Becker, 248
72. Athenaeus, xiii, 59
73. Ibid.,
74. Ibid., 58
75. Ibid., 62
76. Lacroix, I, 180
77. Ibid., 179
78. Athenaeus, xiii, 54
79. Lacroix, I; 182-3
80. Ibid., 145-6
81. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, Phila., 1911, VI, 184
82. Murray, *Aristophanes*, 45
83. Plutarch, "Lycurgus"; Strabo, x, 4.21
84. Plutarch, "Pelopihas."
85. Diog. L., "Xenophon." vi
86. Cf. Plato, *Lysis*, 204
87. Plato, *Symposium*, 180f, 192
88. Lacroix, I, 118, 126
89. Bebel, 37; Hime, 52
90. Whibley, 612
91. Carroll, 307
92. Sophocles, *Trachinian Women*, 443
92a. Tr. by J.S. Phillimore in *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 367
93. Becker, 478
94. Athenaeus, xiii, 16
95. Sunner, *Folkways*, 362; Beker, 478.
96. Tucker, 83
97. Carroll, 164
98. Euripides, *Medea*, 238
99. Coulangel, 63, 298; Becker, 475 Briffault, II, 336
100. Zimmern, 334, 343
101. Euripides, *Aeolus*, 22
102. Demosthenes, *Against Neaera*; Smith, Wm., *Dictionary*, 349, s.v., *Concubium*.
103. Glotz, *Greek City*, 296; Zimmern, 340 Zeller, Ed., *Socrates and the Socratic Schools*, London, 1877, 62, questions the story and the law
104. Westermarck, E., *History of Human Marriage*, London, 1921 III, 319; Becker, 497; *Lyra Graeca*, II, 135
105. Lacroix, I, 114; *Enc. Brit.*, X, 828; Becker, 496
106. Tucker, 84; Westermark, op. cit., 319; Lacroix, I, 143
107. Westermarck, l.c.; Coulanges, 119
108. Thuc., ii, 6
109. Lacroix, I, 143

110. Becker, 464 : Tucker 83-4.
111. Summer, *Folkways*, 497 ; Briffault, I, 405.
112. Tucker, 156.
113. Aristrophanes, *Lysistrata*, 42f.
114. In Tucker, 84.
115. *Greek Anthology*, vii, 340.
116. Botsford and Sihler, 51.
117. Tucker, 90-6.
118. Semple, 490-1.
119. Athenaeus, i, 10.
120. *Greek Anthology*, xi, 413.
121. Atheaeus, v ٤.
122. Xenophon, *Banquet* ii, 8.
123. Mafaffy, *Social Life*, 120-1.
124. Coulanges, 422.
125. Plato, *Republic*, iv, 425.
126. Tucker, 270.
127. Semple, l.c.
128 Rohde, 167.
129. Harrison, *Prolegomena* 600 ; Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, London, 1917-24, I, 715

CHAPTER XIV

1. Xenophon, *Economicus*, viii, 19f
2. Thuc., ii, 6.40
3. Xenophon, *Bonruet*, iv, 11
4. In Ridder, 48
5. Usher, A.P., *History of Mechanical Inventions*, N.Y., 106-7
6. Cf. the gems in the Fourth Room of the Classical Collection Metropolitan Museum of Art, New York.
7. Pfuhl, 5.
8. Ridder, 287
9. Pliny, xxxv, 34
10. Mahaffy, *Sicial Life*, 449-50; Ridder, 19
11. Plutarch, "Cimon."
12. Pausanias, x, 25
13. Pliny, xxxv, 35; Winckelman, II, 299
14. Pliny, xxxv, 86
15. Ibid.
16. Plutarch, "Pericles."
17. Pliny, l.c.
18. Athenaeus, xxi, 62
19. Murray, A.S., I, 18
20. Pliny, l.c.
21. Cicero, *De Invent.*. ii, 1, in Murry, A. S., I, 12, Pliny, l.c., places the story in Acragas.
22. National Muscum. Naples; *Guide to the Archeological Collection*, Naples, 1935, 11.
23. Notional Museum, Athens.
24. Xenophon, *Memorebilia*, ii, 10.7
25. Ripder, 177
26. Fardner, *Greek Sculpture*, 20-1
27. Pliny, xxxiv, 19
28. Ibid.
29. Pijoan, I, 254
30. Cf. Lucian, "A Portrait Study," in *Works*, III, 15-16
31. Jones, H. S., *Ancient Writers on Greek Sclpture*, 78.
32. Glotz, *Ancient Greece*, 231.
33. Cf. Jones, op. cit., 76; Gardner, *Greek Sculpture*, 284; Frazer, *Studies in Greek Scenery*, 411; CAH, V, 479
34. Pijoan, 1, 269
35. Pausanias, v, 11; Strabo, viii, 3-30
36. *Iliad*, i, 528
37. Pausanias, v, 11
38. Polybius, xxx, 10
39. Frayer, op. cit., 293
40. Quintilian, *Institutes*, Loeb Libary, xii, 1.07
41. Plutarch. "Pericles."
42. Scholiast on Aristophanes, *Peace*, 605, in Jones, op. cit., 76.
43. Lucian, l.c.
44. Vitruvius, iv, 1.8.
45. Cotterill, I, 75
46. Pausanias, v, 10
47. Zimmern, 411, Grote (VI, 70) makes a smaller estimate ($ 18,000,000) for the architectural works in Athens proper.
48. Warren, 156
49. Ibid., 881
50. Vitruvius, iii, 5
51. Ruskin *Aratra Pentelici*, 174 ;

Gardner, *Ancient Athens*, 338; Gardne, *Greek Sculpture*, 324
52. Warren, 327, 339-41; Mahaffy, *What Have the Greek?* 130
53. Ludwing, 189f.
54. Warren 310-11; Gardner *Ancient Athens*, 258

CHAPTER XV

1. Heath, *Greek Mathematics*, I, 46 Whibly, 228-9
2. Heath, I, 150
3. Sarton, 92
4. Sedgwick and Tyler, 33
5. Heath, I, 176, 178
6. CAH, V, 383
7. Heath, I 93
8. Diog. L., 384, "Parmenides" ii; Sarton, 85
9. Aristotle, *De Coelo*, ii, 13; Heath, Sir Thos., *Aristarchus of samos*, Oxford, 1913, 94
10. Diog. L., 389; "Leucippus," iii.
11. Ibid., 390; Heath, *Aristarches*, 125.
11a. Sarton, 92
12. Heath, 78
13. Anaxagoras, frags. 12 and 16, In Bakewell, 51; Ueberweg, I, 68-5; CAH, IV, 570.
14. Heath, 81.
15. Ibid, 82.
16. Ueberweg, I, 66.
17. Diog. L., 69 60, "Anaxagoras," iv.
18. Heath, 138.
19. Ibid., 79.
20. Anaxagoras, frag. 4, in Bakewell, 49.
21. Diog. L., I.c.
22. Frags. 6 and 17, in Bakewell, 5; Diog. L., I.c.
23. Frag. 9, in Bakewell, 51; Arisotle *Metaphysics*, i 3, *De Coelo*, iii; 3, *De*, *Generatione et Corruptione*, i, 1; Lucretius, *De Rurum Natura*, Loeb Library, i, 83 of.
24. Diog. L, I.c.
25. Aristole, *De Partibus Animalium*, i, 10, iv, 10.
26. Aristotle, *Metapphsics*, i, 4.
27. Nilson, 274.
28. Diog. L., 61, "Anaxgoras," viii; Robertson, J.M., I, 153.
29. Plutarch, "Pericles."
30. Murray, *Greek Literature*, 159.
31. CAH, IV, 569-70.
32. Heath, *Greek Math.*, I, 172.
33. Diog. L., 61, "Anaxagoras," ix.
34. Germinus in Heath, *Aristrchus* 275.
35. Herod., ii, 4, and Rawlinson's note; Whibley, 71.
36. Grote, II, 29-30.
37. Herod., ii, 4.
38. Sarton, 83.
39. Semple, 35-7.
40. Ibid.
41. Cf. Sect. III. of Chap. XVI, below; and cf. Aeschylus, *Prometheus Bound*, 442-506.
42. Gardner, *New Chapters* 269.
43. Sarton, 88.
44. Herod., iii, 125-38.
45. Sarton, 77.
46. Ibid. Livingstone, *Legacy*, 209.
47. Sarton, 102.
48. Garrison, F. H., *History of Medicine*, Phila., 1929, 95.
49. Hippocrates, *Works*, I, Introd., by W.H S. Jones.
50. Ibid., IV, "Aphorisms." i.
51. "The Sacred Disease"; Airs, Waters, Places," xxii.
52. Hippocrates, *Works*, II, Introd., viii; I, Introd., xxiv; Garrison, 94.
53. Ibid., IV, "The Nature of Man," iv, 10.
54. Ibid., "Regimen III," lxviii.
55. Livingstone, 234.
56. Garrison, 94; Hippocrates .I, Introd., lvi.
57. IV, Introd., viii.
58. Harding, T.S, in *Medical Journal and Record*, aug., 1, 1928.
59. Hipphocrates, IV, Introd., vii. Hippocrates settles a very ancient problem when he writes:

"It is best for flatulence to pass without noise and breaking, though it is better for it to pass even with noise than to be intercepted and accumulated internally." — *Works*, IV, "Prognostic," 11.

60. In Livingstone, 285.
61. Hippocrates IV."Regimen, III," lxviii.
62. Sarton, 96.
63. Livingstone, 108.
64. Hippocrates, II, "The Sacred Disease," xvii.
65. Xenophon, "Constitution of the Lacedaemonians," xii, 6; Mahaffy *Social Life*, 293; Becker, 880; Garrison, 91; Hippocrates, *Works*, I, 299.
66. Garrison. 97; Livingstone, 225.
67. Ibid., 140.
68. I am indebted, for explanation of the material at Epidaurus, to Dr. A. A. Smith, of Hastings Neb.
69. Livingstone, 225.
70. Plato, *Laws*, iv, 720.
71. Carroll, 824-5; Mahaffy, *Social Life*, 297.
72. Xenophon, *Memorabilia*, iv, 2; Garrison, 91 : Becker, 876.
73. Ibid., 291; Garrison, 90; Plato, *Statesman*, 259.
74. Hippocrates, II, "Law," i, and Introd. to Essay VI.
75. I. 291- .
76. Ibid., 299.
77. Becker, 379.
78. Hippocrates, II, Decorum," vii; "Precepts," vi.
79. "Decorum," v.

CHAPTER XVI

1. Athenaeus, xii, 62.
2. Plato, *Protagoros*, 834, 389.
3. Symonds, 116; Owen, John, *Evenings with the Sceptics*, London, 1881, I, 177.
4. Bakewell, 11.
5. Ibid., 22; the conclusion is rephrased.
6. Plato, *Parmenides*, 127.
7. Russell, B., *Principles of Mathematics*, London, 1903, I, 347.
8. Plutarch, "Pericles."
9. Plato, I.c.
10. Diog. L., "Zeno," iv.
11. Ibid.
12. Tredennick, H., introd. to Aristotle, *Metaphysics*, Lobe Library, xvii; CAH, IV, 575-6.
13. Heath, *Aristarchus*, 105.
14. Tredennick, l.c.
15. Leucippus, frang. 2 in Bakewell,
16. Diog. L., "Leucippus," i-iii.
17. Lange, F-E., *History of Materialism*, N.Y., 1925, 15.
18. Diog. L ,"Democritus." ii-iii.
19. Ibid.
20. Lange. 17.
22. *Enc. Brit.*, XVII, 39.
23. Grote, G., *Plato and the Other Companions of Socrates*, London. 1875, I, 68; Bakewell, 62.
24. Robertson, J. M., I. 158; Lange 17.
25. Diog. L., "Democritus," xiii.
26. Heath, *Greek Math.*, I, 176.
27. Cicero, *De Oratore*, i, 11; Ueberweg, I, 68 : Grote, *Plato*, I, 68,96.
28. Bacon, F., *Philosophical Works*, ed. Robertson, London, 1905, 96, 471-2, 650.
29. Democritus, frag. O (Diels) in Bakewell, 60.
30. Frags. 117 and 9 in Bakewell,60.
31. Ueberweg, I, 70.
32. Lange, 27.
32. Ueberweg, I, 96-70; Grote, *Plato*, I, 77.
34. Ibid., 76.
35. Diog. L., "Democritus," xii.
36. Heath, *Aristarchus*, 26, 127.
37. Ueberweg, l.c.
38. Grote, *Plato*, I, 78.
39. Lucretius, iii, 370.
42. In Plutarch, *Moralia*, 81.

43. Owen, I, 149.
44. Lange, 31; Diog. L., "Democritus," xii; Ueberweg, l.c.
45. Frag. 164a in Bakewell, 62.
46. Frag. 57.
47. In Own I, 149.
48. Ueberweg, I, 68.
49. Athenaeus, ii, 26.
50. Ibid.; Lucretius, iii, 1039.
51. Diog. L., "Democritus," xi.
52. Athenaeus, l.c.
53. Diog. L., "Democritus," viii.
54. Id., "Empedocles," ii.
55. In Symonds 127.
56. Murray, Greek Literature, 76.
57. Symonds, 127.
58. Diog. L., "Empedocles," iii.
59. Ibid., "Empedocles," xi.
60. Ibid., Symonds, 131.
61. Diog. L, "Empedocles," ix
63. CAH, IV, 563
64. Aristotle, *De Anima*, ii, 6; *De Sensu*, vi
65. Symonds, 148
68. Empedocles, frag. 82 in Bakewell, 45
69. In Aristotle, *De Coelo*, iii, 2
70. Ueberweg, I, 62
71. Symonds, 143
72. Frags. 17 and 35 in Bakewell, 44-5
73. Cf. Frazer, *Spirits of the Corn*, II, 303
74. Frags. 133-4 in Bakewell, 46
75. Symonds, 187
76. Livingstone, 46
77. Symonds, 185
78. Diog. L., "Empedpcles," x
79. Ibid., "Empedocles," xi
80. Ibid; Symonds, 181
81. Plato, *Protagoras*, 316
82. Grote *History*, VI, 46
83. CAH, V, 24, 377-8
84. Plato, *Protagoras*, 309-10
85. Ueberweg, I, 74
86. Plato, *Protag.*, 311
87. Ibid., 328
88. Diog. L. "Protagoras," iv
89. Plato, *Phaedrus*, 267
90. Ueberweg, I, 75; Sarton, 88
91. Euripides, frag. 189, puoted by Rohde, 488
92. Plato, *Theaetetus*, 160; Bakewell 67; Lange, 42
93. Diog. L., l.c; Bakewell, 67
94. Diog. L., l.c.; Ueberweg, I, 74
95. Bakewell, 67
96. Isocrates, *Antidosis*, 155
97. Philostratus, *Lives of the Sophists*, Loeb Library $ 494
98. Grote, VIII, 343
99. Ueberweg, I, 77
100. Philostratus, 488
101 Plato, *Requblic*, i, 336f; Oxyrhynchus Papyri xi, 1364. in Vinogradoff, II, 29; Murray, *Greek Literature*, 161
102. Plato, *Sopbist*, 265
103. Murray, *Aristophanes*, 142
104. Ibid
105. Murray, *Greek Literature*, 160
106. Zeller, 36
107. Plato, *Gorgias*, 502
108. Plato, *Cratylus*, 384
109. Xenophon, *Memorabilia*, I, 6.13
110. Plutarch, *Dec. Orat.*, iv in Becker, 235
111. Aristotle, *Soph. Elenchis*, I. 165
112. Grote, VIII, 326
113. Diog. L., "Plato," xxv
114. Aristotle, *Ethics*, 1109, 1116, 1144, 1164
115. Livingstone, 79
116. CAH, VI, 303
117. plutarch, *De Malig. Herod.*, ix, 856, in Dupréel E., *La Légende Socratique*, Bruxelles, 1922, 415
118. Mahaffy, *Social Life*, 205-6
119. Pausanias, I, 22
120. Diog. L., "Socrates," iv
121. CAH, V, 386
122. Plato, *Apo ogy*, 28 *Republic*, 337; Xenophon, *Memor.*, i, 2.1
124. Plato, *Symposium*, 220-1
125. *Repuplic*, 549
128 Aristotle in Diog. L., "Socrates, x
129 Cf. McClure, M., in Dewey, J., and Others : *Studies in the*

History of Ideas, Columbia U. P.; 1935, II, 31
130. Plato *Symposium*, 214
131. Xenophon, *Banquet*, ii, 19
132. Plato, *Phredras*, 229
133. Diog. L., "Socrates," ix
134. Xenophon, *Banquet* ii, 24
135. Diog. L., I c.
136. Plato, *Charmides*, 154-5
137. Id., *Protagoras*, 309
138. Id., *Lysis*, 206; Xenophon, *Memor.*, iii, 11
139. Ibid
140. Ibid., iv, 8
141. Plato, *Phaedo*, end
142. CAH, V, 387-8
143. Diog. L., "Socrates," iii; Robertson, J. L., I, 160
144. Plato, *Apology*, 41
145. Xenophon, *Banquet*, i, 5
146. Diog. L., "Socrates," xviii
147. Xenophon, *Memor.*, i, 2.16
148. In Pater, 179 .
149. Plato, *Protag.* 338, 361
150. Xenophon, iv, 4.9
151. Plato, *Theaetetus*, 150
152. Grote VII, 92; Mahaffy, *Greek Education*. 84
153. Cf., e.g., *Charmides*, 159, 161; *Protag.*, 331, 350; *Lysis passim.*
154. Diog. L., "Crio," i.
155. Xenophon, ii, 6.28
156. Ibid., i, 6
157. Ibid
158. Dipg. L., "Socrates," xiv
159. Xenophon, iv, 1.1
160. Diog. L., "Crito," i.
161. Plato, *Symposium*, 215, 218
162. Sextus Empiricus, *Opera*, Leipzig, 1840, *Adversus Mathematicos*, ix, 45; Botsford and Sihler, 369; Nilsson, 269; Symonds.
163. Zeller, 205, 208
164. Athenaeus, xii, 534
165. Plato, *Meno*, 94
166. Xenophon, *Memor.*, i, 1.2; i, 3.4; ii, 6.8; iv, 7.10; Plato, *Symposium*, 220; *Phaedo*, 118; *Apology*, 21
167. Zeller, 82
168. Plato, *Apology*, 29
169. Id , *Cratylus* 425
170. Xenophon, *Memor.*, i, II.II
171. Ibid., iv. 8-16
173. iv, 7
174. i, 1. 16
175. iv, 2 24
176. iii, 8.3; iv, 5 9
178. iii, 9.5
179. i, 2.9
180. iii, 5.15-17
181. iv, 6.12
182. CAH, VI, 309
183. Xenophon, *Apology*, end

CHAPTER XVII

1. Pausanias, ix. 22
2. *Lyra Graeca*, III, 9; II, 246
3. Pausanias, ix, 23
4. Pindar, *Olympic Ode* xiv, 5
5. *Olympic Odes* i-ii
6. Frag. 76 in Pindar, *Odes*, p. 557
7. CAH, IV. 511
8. Symonds, 214
9. *Lyra Graeca*, III, 7
10. Pausanias, ix, 23
11. *Olympic* i, 64
12. Frag. 191
13. *Olympic* ii, 56f, tr. C. J. Billson, *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 294
14. Pinder, *Pythian Ode* i, 81
15. *Pythian* iv, 272
16. *Pythian* viii, 92, tr. G. Murray
17. *Paean* iv, 32
18. Symonds, 216
19. S.v. Pratinas, *Lyra Graeca*, III
20. Aristophanes, II, 82 editor's note
21. Haigh, 37
22. Ibid., 64
23. Mahaffy, *Social Life*, 469; Symonds, 380
24. Haigh, 266
25. *Lyra Graeca*, III, 283
26. Aristotle, *Rhetorie*, Loeb Library, iii, 1.
27. Ward, II. 311.

28. Lucian, "Of Pantomime," 27.
29. Haigh, 825-7.
30. Ibid., 827-385.
31. Fickinger, R. C., *Greek Theater and Its Drama*, University of Chicago Press, 1918, 132.
32. Haigh, 348.
33. Ibid., 345; Norwood, *Greek Drama*, 83.
34. Haigh, 344.
35. Ibid., 12, 24.
36. Fergnson, 59.
37. Haigh, 34.
38. Plato, *Laws*, 659, 700.
39. Herod., vi, 21.
40. CAH, IV, 172.
41. Haigh, 15.
42. Aeschylus, *Prometheus Bound*, 18f, tr. Elizabeth Barrett Browinag, in *Greek Dramas*, N.Y, 1912, pp. 5-6.
43. Ibid., II, 459f.
44. Tr. in Murray, *Greek Literature*, 119.
45. Schleged, A. W., *Lectures on Dramatic Art and Literature*, London, 1846, 93. On the 1849, 93. on the "paradox of *Prometheus Bound*," — an an—titheistic play by the most pious of Greek dramatists, cf. *Journal of Hellenic Studies*, LIII, 40f, and LIV, 14f.
46. Mahaffy, *Social Life*, 150; Symonds, 260; Murray, *Greek Literature*, 221.
47. Aeschylus, *Agamemnon*, II. 218f, tr. G. Murrary, *Oresteia*, p. 44.
48. Tr. Milman in Mahaffy *Social Life*, 152.
49. *Agamemnon*, 1445f, *Oresteia*, P100.
50. *Choephoroe*, 102-4f, *Oresteia*, 188.
51. Athenaeus, i, 39.
52. Schlegel. 95.
53. *Agamemnon*, II. 55f.
54. Ibid., 160.
55. *Eumenides*, end.
56. Murry, *Greek, Literature*, 215.
57. Botsford and Schlegel, 34.
58. Athenaeus, i, 37; Schlegel, 97; Taine. H., *Lectures on Art*. N. Y., 1901, II, 483; Plumptre, E. H., Introd. to *Tragedies of Sophocles*, London, 1867, p. xxxvi.
59. Sophoclas, *Works*, tr. F. Storr, Loeb Library, I, Inrod, vii.
60. Symonds, 278.
61. Athenaeus, xiii, 81.
62. Mahaffy, *Greek, Literature* II, 57.
63. Murray, *Greek Literature*, 234.
64. Symonds, 290.
65. Sophocles, *Oedipus the King*, 98 of.
66. *Oedipus at Colonus*, 668f tr. Walter Headlam, *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 378
67. *Oedipus at Colonus*, 607f, tr. Murray, *Greek Literature*, 249.
98. *Oed. Col*, 1648f, tr Murray.
69. *Antigone*, 332f, tr. Storr.
70. Ibid., 786f.
71. Ibid., 122of.
72. Murray, *Greek Literature*, 288.
73. *Trachinian Women*, 1265f.
74. *Philocteles* 451-2.
75. *Electra*, 473f.
76. *Oedipus the King*, 863f.
77. *Oed. Col.*, 1211f, slightly transposed, tr. A. E. Housman. in *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 378.. Cf. to like effect *Oedipus the King* 1187-95 and 1529-30.
78. Athenaeus, xiii, 61
79. Symonds, 278.
80. Mahaffy, *Greek Literature*, II, 97.
81. Murray, *Gk. Lit.*, 261.
82. Strabo, xiv, 1-36.
83. Diog. L., "Socrates," ii.
84. Euripides, *Hippolytus*, 191-7, in Murray *Gk. Lit.*, 12.
85. Murray, op. cit., 34.
86. Euripides, *Medea*, 41of, tr. G. Murray, Oxford, 1912, p. 15.
87. Herod. ii, 120.
88. *Iphigenia in Aulis*, 686-54, tr. A. S. Way, Loeb Library.

89. *Iph. in Aulis*, tr. Webb in Mahaffy, *Social Life*, 202-4.
90. *Iph. in Aulis*, 1369-84, tr. A. S. Way.
91. *Hecuba*, 488f, tr. Way.
92. Murray, *Gk. Lit.* 137.
93. *Trojan Women*, tr. G. Murray, Oxford, 1914.
94. Euripides, *Electra*, tr. Murray, Oxford, 1907, p. 77.
95. Euripides, *Iphigenia in Tauris*, tr. Murray, Oxford, 1930.
96. Aristotle, *Poetics*, xiii, 4.
97. Verrall, A. W., *Euripides the Rationalist*, Cambridge Univ. Press, 1913, 178 and *passim*.
98. Elizbeth Barrett Browning referred to "Euripides the human, with his droppings of warm tears."
99. *Iph. Aulis*, 957.
100. *Helen* 744f, tr. Way.
101. *Ion*, 374-8; *Iph. in T.*, 570-5; *Electra*, 400; *Bacchae*, 255-7; *Hippolytus*, 1059; Roberson, I, 162.
102. Euripides, *Electra*, tr. Murray, p. 87; *Heracles*, 1341; *Iph. in T.*, 386.
103. *Bellerophontes*, 298, tr. Symond, 868; cf. *Helen*, 1137.
104. *Iph. in T.*, tr. Murray, p. 82.
105. *Helen*, 1688.
106. Verrall, 79.
107. *Trojan Women*, 884.
108. *Hecuba*, 282.
109. *Trojan Women*, prologue.
109a. *Cresphontes*, frag.
110. *Hippolytus* and the *Stheneboea* and *Chrysippus*.
111. *Andromeda*, 135, t., Symonds, 863.
112. Norwood, 311.
113. Euripides, *Medea*, tr., Murray, p. 67.
114. Frag. 167 in Rohde, 438.
115. *Electra*, tr., Murray, p. 78.
116. Rohde, 487.
117. An uncertain frag. tr. Symonds, 867.
118. A frag, in Symonds, 866.
119. Aristophanes, *Frogs*, 552; Athenaeus, i, 41.
120. Symonds, 426.
121. Mahaffy, *Gk. Let.*, II, 98.
122. Pater, 122.
123. Plutarch, "Nicias."
124. *Greek Anthology*, ix, 450.
125. Quoted by Murray, *Euripides and His Age*, N.Y., 1913, 10.
126. Murray, *Gk. Lit.*, 277.
127. Aristophanes, I, 117.
128. Haigh, 260.
129. Murray, *Aristophanes*, 102.
130. Zeller, 203.
131. Aristophanes, I, 91.
132. Ibid., 314, 319.
133. E.g. *Thesmophoriazusae* II, 286; *Knights*, I, 11; *Ecclesiazusae*, II, 378.
134. *Knights*, I, 31.
135. *Peace*, I, 194. In *The Birds* he calls Heracles a bastard (I,173); and in *Frogs* he makes Dionysus a coward, an onanist, a lecher, and a clown.
136. Philostratus, 483.
137. Lucian, "Herodotus and Aetion," 1; Bury, J. B., *Ancient Greek Histarians*, N. Y., 1909, 95; Mahaffy, *Gk. Lit.*, II, 18; Murray, *Gk. Lit.*, 134.
138. Herod., I, 1.
139. Gibbon, Ed., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Everyman Library, I, 77, ch. iii.
140. Strabo, xvii, 1.52.
141. Herod., iii, 101.
142. Ibid., i, 68.
143. iii, 88; ii, 3.
144. E.g., vii, 189, 191.
145. vii, 152.
146. Lucian, l.c.
147. Thuc., i, 1. 21-23.
148. Mahaffy, *Social Life*, 208.
149. Thuc., ii, 45.
150. Ibid., viii, 24; ii, 17.
151. *Gk. Lit.*, 1.

CHAPTER XVIII

1. Diog. L., "Empedocles," vii.

2. Athenaeus, xii, 84
3. Aristophanes, *Acharnians*, I, 111
4. Glotz, *Ancient Greece*, 314
5. Grote, V, 390
6. Thuc., iii, 87
7. Ibid , i, 3-75
8. Plutarch, "Pericles."
9. Thuc., ii, 6.8
10. Ibid , i, 2.58-65; i, 5.139-46
11. Jones, W. H. S., *Malaria and Greek Histoy*, 182
12. Plutarch, "Tiberius Gracchus."
13. Aristode, *Constitution*, 28
14. Thuc., iii, 9.49-50
15. Ibid., v, 15.22-3
16. v, 17.84f
17. Plutarch, "Alcibiades."
18. Ibid.
19. Xenophon, *Memor* , I, 1.49
20. Athenaeus, i, 5
21. Benson, *Alcibiades*, 152
22. Plutarch, l.c.
23. Thuc., 18.18
24. Ibid., 20.89
25. viii, 23.18
26. viii, 26.97; Aristotle, *Constitution*, 33
27. Xenophon , *Hellenica*, Loeb Library, i, 4.13
28. Aristotle, *Constitution*, 34
29. Plutarch, "Lysander."
30. Isocrates, *Areopagiticus*, 66
31. Aristotle, op. cit, 40
32. Murray, *Gk. Lit.*, 176
33. Xenophon, *Memor.*, i, 2.82
34. Grote, IV, 68
35. Ueberweg, I, 81
36. In Reinach, 96
37. Plato, *Apology*, 38
38. Ibid., 27
39. 18
40. 29
41. 80
42. Diog. L., "Socates," xxi
45. Plato, *Crito*
46. Xenophon, *Memor.*, iv, 8.1
47. Plato, *Phaedo*, 59-60
48. Ibid., 89
49. Xenophon, *Apology*, 28
50. Diodorus, xiv, 37
51. In Zeller, 201
52. Plutarch, *De Invid*, 6, in Zeller
53. Diog. L., "Socrates," xxii
54. Grote, IV, 88
55. Tertullian, *Apology*, 14, and Augustine, *City of God*, viii, 3, 3, in Zeller, 201

CHAPTER XIX

1. Aristotle, *Physics*, Loeb Library, 1269-70; Plutarch. "Lysanber," "Lycurgus."
2. Glotz, *Greek city*, 300
3. Aristotle, *Physics*, 1270
4. Xenophon, *Anobasis*, iv, 7-22
5. Plutarch, *Moralia*, 190f.
6. Plutarch, "Agesilaus."
7. Plutarch *Moralia*, 39
8. Ibid., 192 C.
9. Aristotle, *Physies*, 1270
10. Glotz, *Ancient Greece*, 199
11. Xenophon, "On the Revenues," in *Minor Works*.
12. Calhoun, 46-8, 98-4, 101
13. Glotz, *Anc. G.*, 304 ; CAH, VI, 72
14. Calhoun, 109
15. Ibid. 116; Glotz, 306
16. Glotz. *Greek City*, 311; *Anc. G.*, 201
17. Glotz, *Gk. City*, 312-3
18. Plato, *Republic*, 312-3
19. Aristotle *Politics*, 1310
20. Isocrates, *Archidamus*, 67. Isocrates was writing of the Peloponnesian Greeks, but probably had his fellow Athenians in mind
21. Pöhlmann, I, 147
22. Plato, *Laws*, v. 736
23. Vinogradoff, II, 118; Glotz, *Gk City*, 318
24. Vinogradoff, I, 205
25. Isocrates, *Antidasis*, 159
26. Glòtz, *Gk City*, 323; Rostovtzeff, M., *Social and Economic History of the Roman Empire*, Oxford, 1926, 2; id., *History of the Ancient World*, Oxford, 1928, II 362; Coulanges, 498

27. Mahaffy, *Social Life*, 267, 273
28. Glotz, *Gk. City*, 296
29. Ibid.
30. Athenaeus, xiii, 38f; Lacroix, I, 168
31. Athenaeus, xii, 43
32. Aristotle, *History Animalium*, 583a.
33. Gomme, 18, 26, 47; Atheáneus, vi, 272; Müller-Lyer, *Family*, 203; Gote, V, 838
34. Xenophon, *Hellenica*, vi, 1.5
35. Isocrates, *On the Peace*, 50
36. Aristotle, *Problems*, in Vinogradoff, II, 67
37. Demosthenes in Gloz, *Gk City*, 216
38. Aristotle, *Constitution*, 41
39. Aristophanes, *Clouds*, 991; Plato *Theaetetus*, 173
40. Isocrates, op. cit, 59
41. Grote, XI. 198
42. Diodorus, x, 4
43. Aristotle (?) *Economicas*, ii, 2.20
44 *Lyra G.*, III, 366
45 Diog. L., "Plato," xiv; Plutarch, "Dion"; Diodorus, xv. 7; Grote, XI, 84-5. Taylor, A. E., *Plato*, N. Y., 1936, 5, questions the story
46. Plato, *Epistles*, Loeb Library, vii
47. Athenaeus, x, 47
48. Plutarch, I.c.
49. Plato, I.c.
50. Plutarch, I.c.
51. Athenaeus, xii, 58
52. In Weigall *Alexander the Great*, N. Y., 1933, 19
53. Adams, Brooks, *New Empire*, N. Y., 1903, 36
54. Athenaeus, xiii, 63
55. Mahaffy *Social Life*, 425-7
56. Glotz, *Gk, City*, 339
57. Philostratus, 507
58. Plutarch, "Phocion."
59. Philostratus, 61
60. Plutarch, "Alexander."

CHAPTER XX

1. Plutarch, "Demosthenes": *Moralia*, 6
2. Mahaffy, *Gk. Lit.*, IV, 137
3. Demosthenes, *On the Crown*, Loeb Library, 126, 258-9, 265
4. Murray, *Gk Lit.*, 369
5. Isocrates, *Antidosis*, 48
6. Grote, G., *Aristotle*, London, 1872, I, 31; Murray, 344
7. Isocrates, *Panegyricus*, 49
8. Ibid., 167
9 Ibid., 160
10. Isocrates, *On the Peace*, 94
11. Ibid., 13
12. Isocrates, *Areopagiticus*, 15, 70
13. *On the Peace*, 109
14. *Areopag.*, 20
15. Pausanias, i, 18; so Lucian and Philostratus; cf. Murray. 350
16. Milton's phrase, [illegible]
17. Diog, L, "Xenophon," i-ii
18. Aristophanes, *Cluods*, 225
19. Plutarch, *Moralia*, 212B.
20. Xenophon, *Economicus*, x, 1-10
21. Ibid., xix, 7
22. Quoted by Shotwell, 180
23. Pausanias, viii, 45
24. Plutarch, "Alexander."
25. Cotterill, I, 108n.
26. Pliny, xxxv, 36, 40 Winckelmann, I, 219
27. Pliny, xxxv, 32
28. Ibid., xxxv, 36
29. Ibid.
30. Aelian, *Varia Historia*, ii, 3, in Weigall, *Alexander*, 186
31. Pliny, l c.
32. Vitruvius, ii, 8.14
35. Pausanias, i, 20
36. Gardner, *Greek Sculpture*, 397
37. Pausanias, v, 17
38. Ibid., viii, 9
39. They are listed in Murray, A. S., II, 253-4. Pliny alone mentions 28
40. Pausanias, vi. 25
41. Pliny, xxxvi, 41
42. Ibid., xxxiv, 19
43. Ibid.

CHAPTER XXI

1. Sarton 127
2. Plutarch, "Marcellus."
3. Aristotle, *Metaphylcs*, i, 9
4. Plato, *Hippias Major*, 308
5. Sarton, 113
6. Aristotle, *Politics*, 1340
7. Sedgwick, 76
8. Heath, *Greek Math*, I, 209, 233, 252
8a. Ibid., 354
9. Dioh. L., "Eudoxus," i-iii; Strabo, ii, 5.14 Heath, I, 320; id., *Aristarchus*, 192; Grote, *Plato*, I, 124n; Ball, W. R., *short History of Mathematics*, London. 1888, 41
10. Heath, I. 323
11. Heath, *Aristarchus*, 208
12. Sarton, 118
13. Ibid., 141
14. Heath, *Aristarchus*, 276
15. Heath, I, 16
16. Arrian, *Indica*, London, 1893, chaps. xxxliii
17. Sarton, 120-1
18. Carroll, 325
19. In Zeller, 266
20. Zeller, 277
21. Athenaeus, xiii, 55
22. Vitruvius, ii, 6.1
23. Athenaeus, xii, 63
24. Zeller, 357, 361
25. Ibid., 362b
26. Diogt L., "Aristippus," iv
27. Ibid.
28. Ibid.
29. Ibid.
30. Ibid.
31. Zeller, 367
32. Carroll, 513
33. Ibid.
34. Plato, *Phaedo*, 64
35. Xenophon, *Banquet*, iii, 8
36 Diog. L., "Antisthenes," iv
37. Murray, *Five Stages*, 116
38. Diog. L., "Diogenes," iii
39. Ibid., iii, vi; Zeller, 326n
40. Diog. L., "Diogenes," vi.
41. Ibid.
42. Ibid , x.
43. Ibid., vi.
44. Ibid.
45. Weigall *Alexander*, 103
46. Arrian, *Anabasis of Alexander*, vii, 2; Diog. L., "Diogenes," vi.
47. Ibid., xi.
48. Zeller, 308
49. Diog. L., "Antisthens," iv.
50. Ibid , "Diohenes," vi.
51. Plutarch, *Moralia*, 21F.
52. Diog. L., l.c.
53. Zeller, 319
54. Ibid., 326
55. Diog. L., "Diog.," xi.
56. Murray, *Five Stages*, 118
57. Pöhlmann, 86-91
58. Zeller, 317
59. Plato, *Republic*, 372
60. Diog. L., "Plato," i.
61. Ibid., v,x.
62. viii-ix; Cicero, *De Finibus*, v, 29
62a. Plutarch. *De Exilio*, 10, in Capes, W. W., *University Life in Ancient Athens*, N. Y., 1922, 32.
63. Suidas, *Lexicon*, s.v. *Plato*, in Mahaffy, *Greek Education*, 129
64. Diog. L., "Plato," xi.
65. Mahaffy, op. cit., 128; Grote, *Plato*, I, 125
66. Heath, I, 11
67. Plato, *Republic*, 539
68. Heath, *Aristarchus*, 141
69. Plutarch, *Moralia*. 79
70. Plato, *Epistles*, vii, 531
71. Taylor, 503
72. Cf. *Epistles*, vii, 541
73. Athenaeus, xi, 112
74. Diog. L., "Cimon," i-iii, "Plato," xxxii.
75. Athenaeuf, xi, 118
76. Taylor, 20
77. Plato, *Protag* , 334
78. *Symposium*, 175
79. *Euthypho*, 292
80. *Charmides*, 169

81. *Cratylus*
82. *Phaedo*, 106
83. *Theaetetus*, 161
84. Ibid . 158; *Epistles*, vii, 344
85. Aristotle *Meta*, i 5-6; iii, 2; xiii, 4; *Cratylus*, 440
86. Aristotle, *Meta.*, i, 9.16, etc.
87. Plato *Phaedo*, 65
88. Ibid., 74-5, *Theaetetas*, 185-7
89. Carrel. Alexis, *Man the Unknown*, N. Y. 1935, 236
90. Spinoka, *De Emendatione Intellectus*, Everyman Library. p. 259
91. *Phredrus*, 245
92. *Philebus*, 22
93. *Rep.*, 605
94. *Laws*, 966; *Phaedo*, 96
95. *Sophist*, 247
96. *Phaedrus*, 245; *Philebus*, 30
97. *Meno*, 81-2
98. *Gorgias*, 523
99. *Phaedo*, 69, 80-5, 110, 114; *Rep.*, 615f; *Tinaeus*, 43-4
100. *Phaedo*, 91, 11
101. *Rep.*, 865
102. *Symp.*, 209
103. *Gorgias*. 482
104. Ibid., 495; *Rep.*, 619; *Philebus*, 66
105. *Rep.*, 441, 587
106. *Philebus*, 94-6
107. Ibid., 57-8
108. *Crito*, 49
109. Ibid., *Laws*, 951; *Phaedo*, 82
110. Aristotle, *Poetics*, i, 4
111. *Rep* 424.
112. Quoted by Symonds, 411
113. *Philebus*, 51; *Rep.*, 529
114. *Symp.*, 206
115. *Laws*, 636
116. *Symp.*, 201; *Phaedrus*, 244f
117. *Rep* , 500
118. *Epistles*, vii, 337
119. *Rep.*, 555
120. Ibid., 557
121. 562
122. 565
123. 567
124. 496
125. *Phaedrus*, 239
126. *Rep.*, 459
127. 478
128. *Statesman*, 297; *Epistles*, vii 337
129. *Laws*, 710
130. Ibid., 704
131. 968
132. 761
134. 744, 922-3
135. 785
136. 721, 774
137. 672
138. 885, 908-9
139. *Phaedo*, 66
140. Pater, 126
141. *Laws*. 7
142. Dioh. L., "Plato," xxv.
143. Calhoun, 125-7
144. Locy, W.A., *Growth of Biology* N. Y., 1925, 27
145. Athenaeus, xiii, 56
146. Grote, *Aristotle*, I, 8
147. Diog. L , "Aristotle," iv.
148. Grote, *Aristotle*, I, 43
149. Murray, *Greek Epic*, 99; CAH VI, 333
150. Aristotle. *Meta* iii, 6.7-9
151. Ibid., iv, 3.8
152. Aristotle, *On Generation*, i, 2
153. *Physics*, v, 3; vii, 1
154. Aristotle, *Mechanics*, iii, 848-50
155. *On the Havens*, ii, 14
146. *Meteoraiogy*, i, 14
157. *Meta.*, xii, 8.21
158. Pliny, viii, 16
159. Aristotle, *Parts of Animals*, i, 5
160. *History of Animals* v, 21-2; ix, 39-40
161. Ibid., vi, 22
162. Aristotle (?), *Economics*, i, 3; a typically Aristotleian sentence in a work long attributed to Aristotle, but probably from a later hand
163. *History of Animals*, viii, 2
164. *Reproduction of Animals*, i, 15

165. Ibid., I, 21
166. iv, 1
167. *Hist. An.*, vi, 2-8
168. *Reprod. An*, ii, 1
169. Ibid., ii, 3
170. ii, 12
171. *Hist. An.*, vi, 2-3
172. Ibid.
173. i, 1
174. viii, 1
175. Ueberweg, I, 167
176. Sedgwick, 14
177. Lewes, G. H., *Aristotle: a Chapter in the History of Science*, London, 1864, 284, 361; Lange, 81
178. Lowes, 159
179. Aristotle, *Hist. An.*, ii, 3
180. *Parts of Animals*, ii, 7
181. Sarton, 128
182. Aristotle, *Politics*, 1256; Lewes,
183. Aristotle; *On the Soul*, ii, 1
184. Ibid., ii, 4
185. iii, 8
186. iii, 7
187. *Reprod An*, ii, 3
188. *Meta.*, viii, 4.4
189. *Poetics*, ii 8
190. *Meta.*, ix, 7
191. *Politics*, i, 8
192. Ibid., vi, 2
193. *Politics*, 1137b.
194. *Ethics*, 1097b, 1176b.
195. *Rhetoric*, i, 5.4, where, in a long list of things necessary for happiness, virtue comes in a poor last
196. *Ethics*, 1099a.
197. Ibid., 1153b.
198. *Rhetoric*, ii, 16.2
199. *Ethics*, 1178a.
200. Ibid., 1125b.
201. 1098a.
202. 1178b.
203. *Politices*, 1267a.
204. Ibid., 1275b.
205. 1258a.
206. 1296b.
207. *Ethics*, 1160ab.
208. *Rhetoric*, ii, 15.3.
209. *Politics*, 1258b.
210. Ibid., 1281a.
211. 1318b.
212. 1286a.
213. 1278a.
214. 1280a.
215. 1266b.
216. 1254b.
217. 1320a.
218. Ibid.
219. 1295a.
220. 1264
221. 1261b.
222. 1296b.
223. 1296a.
224. 1330a.
226. *Rhetorics*, i, 1.7
227. *Politics*, 1287a.
228. Ibid., 1265b.
230. In Ueberweg, I, 177
231. Pater, 141

CHAPTER XXII

1. Plutarch, *Moralia*, 178F
2. Mahaffy, *Greek Life and thought*, 18
3. Plutarch, "Alexander."
4. Weigall, *Alexander*, 235
5. Ibid.
6. Plutarch, *Moralia*, 127B.
8. Id., *Moralia*, 180A.
9. Id., "Alexander."
10. Ibid; Arrian, i, 17
11. Weigall, 50
12. Plutarch, *Moralia*, 170E
13. Id., "Alexander."
14. Arrian, vi., 28
15. Ibid., iii, 6
16. Grote, *History*, XI, 85
17. Weigall, 85
18. Arrian, i, 8
19. Weigall, 97
20. Plutarch, "Alexander."
21. Ibid.
22. Arrian, vii, 9
23. Plutarch, l.c.
24. Vitruvius, ii, 2
25. Plutarch, *Moralia*, 180

26. CAH, VI, 384
27. Arrian iv, 7
28. Ibid., vi, 26
29. vii, 4
30. Plutarch, "Alexander."
31. Grote, XII, 89
32. Athenaeus, xii, 35
33. Plutarch, *Moralia*, 180D.
34. Weigall, 146
35. Plutarch. "Alexander."; Arrian,
36. Lucian, *Dialogues of the Dead*,
37. Cf. Arrian, iv, 9-11
38. Ibid., vii, 11
39. vii, 9-10
40. ii, 12
41. Plutarch, "Alexander"; Arrian,
42. Plutarch, l.c.
43. Grote, *Aristotle*, I, 23
44. Diog. L., "Aristotle," vii
45. Thrasybulus in Grote, *History*, VIII, 263

CHAPTER XXIII

1. Mahaffay, *Greek Life and Thought*, pp. xxx, 112
2. Ibid., 56; Plutarch, "Demetrius
3. Ibid.
4. Pausanias, x. 19
5. Ibid., 22
6. Livy, T. L., *History of Rome*, xxxviii, 16; CAH, VII, 103-7
7. Polybius, iv. 77; Pausanias, ii. 9, vii, 7; Plutarch, "Aratus."
8. Athenaeus, vi, 103
9. Heitland, W. E., *Agricola*, Cambridge University Press, 1921
10. Plato, *Critias*, 111
11. Rostovtzeff, M. *History of the Ancient World*, Oxford, 1930, I, 320
12. Cf. Tarn, W. W., *Hellenistic Civilization*, London, 1927, 90
13. Vinogradoff, II, 108-9
14. Glotz, *Ancient Greece*, 366
15. Ibid 364
16. Ibid.
17. Ibid., 331-3; Tarn, 95
18. Tarn, 102; Heitland, 63; Glotz, 369
19. CAH, VII, 740
20. Ibid.
20a. Ibid., 265, 741; Tran, 104
21. Ibid., 34
22. Glotz, 333
23. Polybius, vi, 9; vii, 10; xv, 21 Glotz, *Greek City*, 323
23a. Diodorus Sic., V, 41-6
24. Bentwich, Norman, *Hellenism*, Phila, 1919, 62
25. Athenaeus, xii, 18
26. Tarn, 82
27. Theocritus, Idvl ii.
28. Lacroix, I, 138-9
29. Athenaeus, in Becker, 344
30. Glotz, *Ancient Greece*, 298 Tarn; 86
31. Ibid., 88
32. Polybius, xxxvi, 17
33. Plutarch, "Agis."
34. Glotz, *Ancient Greece*, 346
35. Plutarch, l.c.
36. CAH VII, 755
37. Polybius, ii, 62; v, 38; Pausanias, ii, 9
38. Coulanges, 467
39. Pausanias, vii, 50
40. Strabo, xix, 2.5
41. Ibid.
42. Polybius, v, 88

CHAPTER XXIV

1. Meeting of the Oriental Institute, Chicago, Mar. 29, 1932
2. Plutarch. *Moralia*, 183 F.
3. Polybius, xy, 8
4. Ibid., xxx, 26
5. Ibid., xxxix, 27; xxxi, 9; Bevan, E. R, *House of Seleucus* London, 1902, II, 181, 158
6. Rostovtzeff *Social and Economic History of the Roman Empire*, 3; Tarn, 79
7. Toutain, 103-3
8. Glotz, *Ancient Greece*, 358
9. Rostovtzeff *Roman Empire* 3; id., *Ancient World*, I. 368-70; Glotz, 321
10. Glotz, *Greek City*, 388
11. Tarn, 254

13. Josephus, *Against Apion*, I, 60; Bevan, 35; Tarn, 209
14. CAH, VII, 193
15. Sachar, A.L., *History of the Jews*, N.Y., 1932, 102. Cf. Zeitlin, S., *History of the Second Jewish Commonwealth*, Phila., 1938, 18f, or CAH, VIII, 501f, for an economic interpretation of these intrgues
16. Graetz, H., *History of the Jews*, Phila., 1891f, I, 445-6; Zeitlin, 18
17. Bevan, I, 171; Mahaffy, J.P., *Empire of the Ptolemies*, London 1895, 341
18. CAH, VIII, 507-8
19. I Macc., i; Josephus, *Works*, Boston, 1811, I, 438; *Antiquities of the Jews*, xii, 5
20. Bevan, II, 154
21. I Macc., v-vi; Bevan, 174
22. I Macc., ii
23. Ibid., vi
24. Ibid., ii
25. Ibid., ii-v
26. Sachar, 104
27. Bevan II, 183, 223

CHAPTER XXV

1. Breccia E., *Alexandrea ad Aegyptum*, Bergamo, 1922, 96; Strabo, xvii, 1.8
2. Mahaffy, *Empire*, 104; *Greek Life*, 204
3. Athenaeus, xiii, 37
4. Mahaffy, *Empire*, 162
5. Draper, I, 190
6. Tarn. 148; CAH, VII, 187
7. Ibid., 27; Rostovtzeff, *Roman Empire*, 259
8. Tran, 149-51, 155; Glotz, *Ancient Greece*, 345
9. Ibid., 343
10. Usher, 80, 85
11. Strabo, xvii, 1.25
12. Glotz, *Ancient Greece*, 353
13. Tarn, 152; Usher, 75
14. Glotz, l.c.
15. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 482
16. Usher, 79, 119
17. Pliny, xxxv, 42
18. Rostovtzeff, *Ancient World*, I, 373; Tarn, 102; Glotz, 350
19. Tarn, 155.
20. Botsford and Sihler, 597
21. Athenaeus, v, 36
22. Pliny, xxxyi, 18
23. Breccia, 107
24. Tarn, 198
25. Calhoun. 130
26. CAH, VIII, 662
27. Mahaffy, *Greek Life*, 182
28. Mahaffy, *What Have the Greeks?*, 195-7
29. Tarn, 158; CAH, VII, 28
30. Ibid., 139-40; Tarn, 153; Mahaffy *Empire*, 182, 213; Breccia, 42
31. Breccia, 69
32. Strabo, xvii, 1.8-10; Tarn, 146
33. Glotz, 336
34. Athenaeus, iii, 47
35. Herodas, *Mimianbi*, i
36. Lacroix, I, 124
37. Carroll, 326
38. Graetz, I, 418; Mahaffy, *Empire* 86
39. Josephus, *Antiquities*, xii, 1-2
40. Zeitlin, 6-8; Bevan, I, 165
41. Bentwwich, 36
42. Renan, E., *History of the Peop of Israel*, N.Y., 1888, IV, 194; V, 189
42a Graetz, I, 504
43. Bevan and Singer, *Legacy of Israel*, Oxford, 1927, 32
44. Josephus, *Antiquities*, xii, 2; Sarton, 151
45. Sachar, 109
46. *Enc Brit.*, XX, 885; Tarn, 177
47. Glotz, *Ancient Greece*, 356; Tarn, 204
48. Tarn, 158
49. Mahaffy, *Greek Life*, 208
50. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 264
51. Glotz., *Greek City*, 323
52. Polybius, vii, 8
53. Ibid.
54. Randall-MacIver, 138-9
55. Athenaeus, v, 40

56. Livy, xxiv, 4

CHAPTER XXVI

1. Polybius, ix, 2
2. Thompson, 71
3. Strabo, xiii, 1.54
4. Grote, *Aris otle*, 50
5. Breccia, 47
6. Ibid., 48
7. Mahaffy, *Empire*, 208
8. Oxyrhynchus. Papyri X, 1241, p. 99; Breccia, 44
9. Tarn, 238; Symonds, 21
10. Tarn, 287 Mahaffy, 511
11. Waxman, M , *History of Jewish Literature*, N.Y., 1930, 1, 48
12. Ibid., 49
13. Ibid., 21
14. Renan, IV, 258
15. Lacroix, I, 166-7
16. Wright, 22
17. CAH, VII, 227
18. Menander, *Arbitranss*, 679-85
19. Bacchis in the *Phormio*
20. St. Paul, I Cor., xv, 33
21. Tarn, 219
22. Frag. 40 in Murray, *Aristophanes*, 223
23. Translation by Symonds. 464
24. Ibid., 526
25. Murray, *Greek Literature*, 381; Mahaffy, *Greek Literature* I, 166; id., *Progress of Hellenism in Alexander's Empire*, Chicago, 1905; 112
26. Theocritus, xv, tr. Lindsay, in *Oxford Book of Greek Verse*, 564
27. Theocritus, i, 123-42; tr. Sir Wm. Marris, *Oxford Book*, 543
28. Tarn, 52
29. Frag. 54 in McCrindle, J. W., *Ancient India*, Calcutta, 1877, 120.
30. Bury, *Greek Historians*, 188
31. Polybius, xii, 25, 27, etc
32. Ibid., xxxiv, 6; xxxviii, 6
33. xxx, 32
34. iii, 2
35. vi, 2
36. vi, 3
37. iii, 48, 59; Shotwell, 199
38. xvi, 20
39. xii, 28
40. v, 75
41. xxi, 32
42. xvi, 12
43. vi, 48
44. iii, 31
45. i, 1
46. i, 35; i, 1
47. i, 4
48. ix, 1; ii, 56
49. Dionysius of Halicarnassus in CAH, VIII, 10

CHAPTER XXVII

1. Athenaeus, xiv, 33
2. Mahaffy, *Social Life*, 467-8; 475-6
3. Vitruvius, ix, 9; x, 18; Athenaeus iv, 75; *Oxford History of Music*, Introd. Vol., 26
4. Mahaffy, 455; id., *Greek Life*, 382
5. Athenaeus, xiv, 31
6. Strabo, xiv, 1.37
7. In Gardner, *Ancient Athens*, 486
8. Pliny, xxxv, 40
9. Plyutarch, "Aratus."
10. Strabo, xiv, 2.5
11. Pliny, xxxv, 36
12. Ibid., xxxv, 36
13. Lessing, G.E., *Laocoön*, London, 1874, 15
14. Pliny, xxxiv, 18
15. *Greek Anthology*, vi, 171
16. Pliny, l.c.
17. Bostock's note, Ibid
18. Winckelmann, I, 229
19. Virgil, *Aeneid*, ii, 49
20. Pliny, xxxvi, 4
21. Winckelmann, II, 825
22. CAH, VIII, 675
23. In Gardner, E. A., *Six Greek Sculptors*, London, 1910, 6

CHAPTER XXVIII

1. Stobaeus. in Heath, *Greek Mathematics*, I, 357

2. Plutarch, "Marcellus."
3. Ball, W.W.R., *Short History of Mathematics*, London, 1888, 64
4. Ibid., 66-7
5. Plutarch
6. Cicero, *Tusc. Disp.*, i, 25
7. Cicero, *Rep.*, i, 14
8. Singer, C, *Studies in the History of Science*, Oxford, 1921, II, 502
9. Heath, II, 18
10. Plutarch
11. Ibid
12. Polybius, viii, 5; Livy, xxiv, 34
13. Heath, l.c.
14. Plutarch
15. Polybius, l.c.
16. Plutarch
17. Livy, xxv, 31
18. Heath, II, 20
19. Sarton, 184; Usher, 44
20. Ibid., 80
21. Ibid., 41; Sarton, 184, 195
22. Vitruvius, i, I.16
23. Heath, *Aristarchus of Samos*, 310, 383
24. Ibid., 302
25. Heath, *Greek Math.*, II, 2
26. Williams, H.S., *History of Science*, N.Y., 1909, I, 233
27. Heath, *Aristarchus*, 296-7; CAH, VII, 311
28. *Enc. Brit.*, XI, 583
29. Tarn, 280
30. Heath, *Aristarchus*, 339-40
31. Sarton, 144; Glotz, *Ancient Greece*, 375
32. Strabo, i, 3.3
33. Ibid., i, 4.7-9
34. Ibid., i, 4 6
35. Wright, 14
36. Garrison, 102
37. Theophrastus, *History of Plants*, ii, 1.1, in Livingtone, *Legacy*, 178
38. Locy, 37
39. Grote, II, 17
40. Sarton, 143
41. Ibid., 126
42. In Wright, 14
43. Celsus, *De Artibus*, i, 4 in Botsford and Sihler, 631
44. Botsford and Sihler, 631
45. Sarton, 159; Garrison, 153
46. Sextus, Empiricus, *Adv. Math.*, xi, 50, in Livingstone, 201
47. Garrison, 103
48. Sarton, 159-60

CHAPTER XXIX

1. Carroll, 316
2. Athenaeus, xiii, 90
3. Diog. L., "Theophrastus," iv-xi
4. Theophrastus, *Characters*, Loeb Library, 1929, iii, xiv, etc
5. Diog., "Xenophanes," iii
6. Ibid., iii-v, x.
7. Aristotle, *Anal. Post.*, ii, 1
9. Ibid., iii
10. Zeller, E., *Stoics Epicureans and Sceptics*, London, 1870, 99
11. Ibid., 503
12. Wright, 128
13. Ueberweg, I, 136
14. Polybius, xii, 26
15. Diog., "Aristippus," xii-vix
16. Lacroix, I, 160-1
17. Diog., "Epicurus," v.
18. Ibid., vi-viii
19. Lucretius, v, 196; ii, 1090; Lucian "Zeus Tragoedus," in *Works*, III, 97
20. Lucretius, ii, 292; Plutarch, *Moralia*, 964 C.
21. Cicero, *Nat. Deor.*, i, 20
22. Diog., "Epicurus," xxiv
23. Ibid., xxvii; Murray *Greek Religion*, 168
24. Diog., xxv
25. Athenaeus, xii, 67
26. Diog., xxxi
27. Ibid., xxvii
28. Ibid.
29. Ibid., xxxi, 31
30. Ibid., xxvi
31. xxvii
32. Zeller, 464
33. Diog., xxxi, 28
34. Cf. Frags. 165, 186, 194 and 213 in Murray, 130
35. Murray, 138
36. Frag. 188 in Murray, 141

37. Diog., x.
38. Athenaeus, vii, 11
39. Becker, 825
40. *Jewish Enc.*, art. "Apikōros"; Bentwich, 77
41. Zeller, 388
42. Cicero, *De Fin.*, i, 7.25
43. In Murray, *Greek Literatur*, 372
44. Diog., "Zeno," i-ii
45. Ibid., xi, v.
46. Ibid., v.
47. Ibid., "Crates," i-iv, "Hipparchia", i-ii; Zeller, *Socrates*, 326 n.
48. Diog., "Zeno," xxviii-xxix
49. Ibid., xiv
50. Zeller, *Stoics*, 37n
51. Diog., "Zeno," ix
52. Ibid., xxvii. Lucian, Lactantius, and Stobaeus tell the same story; cf. Zeller, 40
53. Zeller, 59
54. Ibid., 121
55. Cicero, *Nat. Deor.*, ii, 7
56. Diog., "Zeno," lxviii-lxxvii
57. Tr by Pater, 50
58. Plutarch, *De Stoic. Repug.*, xxi, 4, in Zeller, 178; but Plutarch was intensely prejudiced against the Stoics
59. *Oxford Book of Greek Verse*, 585
60. Zeller, 288
61. Diog., "Zeno," xix
62. Ibid., lxiv
63. Zeller, 316
64. Diog., lxvi
65. Zeller, 303
66. Cicero, *Tusc. Disp.*, i, 34.83
67. Zeller, 327
68. Ibid., 207

CHAPTER XXX

1. Polybius, i, 1.
2. Plutarch, "Pyrrhus."
3. Ibid.
4. Ibid.
5. Mommsen, T., *History of Rome*, London, 1901, II, 5
6. Plutarch, l.c.
7. Livy, xxv, 40, 31
8. Polybius, ii, 8
9. Ibid., vi, 103
10. Livy, xxiii, 33
11. Polybius, xvi, 30; Livy, xxxi, 18
12. Polybius, xviii, 45
13. Livy, xxxiv, 52
14. Tarn, 29
15. Strabo, viii, 6.23
16. Polybius, xxxix, 2; Strabo, l.c.

EPILOGUE

1. Symonds, 579
2. Rede Lecture for 1875, in Symonds, 578
3. *Enc. Brit.*, II, 344